

UNIVERSAL
LIBRARY

OU-234350

UNIVERSAL
LIBRARY

232250

92

the (un)labeled

unlabeled
end

٩٢٢٥٩٤١
٦٢٩
٣

صُورَةُ السَّامِيَةِ

تخريج تفسير الى صاحب
دار الزعيم من المولى
عبد الله
السدي

الجزء الاول

عبد الحميد محمد المشهدي

رسالة زعيم الجيل

أحمد حسين

عظمة رسول الله

هـى السبيل لمعرفة الله --- فاعرفوه أيتها المسلمون

ولنسانف جهادنا فى عزيم ونبات

ولدت من أبوين مسلمين ومن هنا فقد نشأت مسلما والحمد لله . .
ولقد كانت أمى سيدة متعبدة وأنى لاذكرها الآن وهى تصلى وتطيل
الصلاة وتكثر من التسبيح وتلاوة القرآن .. ولعل هذا هو الاثر العميق
الذى تركته والذى فى نفسى اذ نشأت نشأة دينية وفى المدرسة، الابتدائية
كنت رئيسا لجمعية دينية سمينها (جمعية نصر الدين الاسلامى) . وكانت
مهمتها الوعظ والارشاد عن طريق الخطابة وتوزيع نشرات تحمل تفسيراً
لآيات القرآن واحكام الدين وقواعده . كان هذا فيما يختص بنشر الدعوة
ولكن الطابع الظاهر لهذه الجمعية هو الذى تغذناه على أنفسنا . فقد أخذنا

أنفسنا بالتعبد والاسراف في العبادة .. حتى لا ذكر مرة أنني صليت مائة
ركعة .. كما أفتخر بأني صليت هذا العدد ولم اكده انتهى منها حتى
تورمت قدماي وركبتاي وأصبحت بعدها عاجزا عن الصلاة اطلاقا لمدة
من الزمن .. وكنا نصلي الفجر دواما في مسجد السيدة زينب وكنا
نشعر في ذلك بلدة لا تعد لها لذة .. ذلك كان اسلامي في طفولتي ..
ولم أكن في ذاك الوقت الا طالبا في المدرسة الابتدائية في السنة
الثانية . ولعل هذه النشأة تدلك على أني كنت مسلما متدينا كأقصى
ما يكون المسلم المتدين ، ولكن لم أكن في ذلك الا متبعا لهذا
الالهام الذي يخالج نفوسنا من حين لآخر . وقد لا أكون في هذا الامقلا
كما يقولون فقد شاهدت والذي متدينة متعبدة فخاريتها في هذه العبادة .
وكان لنا مدرس للديانة يغذي هذا الشعور في نفوسنا فاندفعت في هذا
السبيل من غير تفكير أو منطق ..

وأنا اليوم بنعمة الله وفضله مسلم متدين .. ولكن شتان ما بين
مسلم اليوم ومسلم الأمس . شتان بين نظرتي للدين بالأمس ونظرتي له اليوم .
شتان بين طفل الأمس ورجل اليوم . كنت بالأمس أصلي واكثر من
الصلاة لأنهم علموني أن كل ركعة يقابلها (كذا) من الحسنات .
وأن كل صلاة يقابلها قصر في الجنة وأن كل خطوة نحو المسجد يحجزها
الله عشر حسنات وأن كل تسبيحة لها حسنة وكل صلاة على النبي لها حسنة .
أخرى . وهذه الحسنات اذا ما تكاثرت يوم القيامة جعلها الله قصورا
وجنانا وحورا عينا وفاكة . لا مقطوعة ولا ممنوعة . وانهارا من اللبن
والعسل وانابا من سندس واستبرق وارائك من الخز والديباج وأساور من
ذهب ومن فضة .

كان ذلك كله يستهويني وكنت أطمع في الحصول عليه . . . وكنت أري العبادة توصلني اليه . فكنت أسرف في كل مظهر من مظاهرها ابتغاء الثواب الكثير . اذكر مرة أنه قيل لي ان بقعة الارض التي نصلي عليها تشهد لنا يوم القيامة فعلينا أن نجعلها كبيرة ما أمكن فكنت اذا وقفت أصلي باعدت ما بين قدحي لتشغلا مساحة أوسع . . . وكنت أتعبد طمعا في الجنة ورهبة من النار . . . أجل كان يرعبنى ما سمعه عن النار . . . كان يرعبنى ما سمعه من احاديث النار ويجعلني أقوم من النوم فزعا . . . فشجرة الزقوم وزبانية القبر والجحيم وهذه النار التي تشوي الوجوه وهذه المياه الملهبة . وهذه الافاعي وهذه الاسلحة التي تقرى اللحم والعظم وهذه الجلود التي تحرق ثم تنمو من جديد لتمزق مرة أخرى كل هذا كان يملأني رعبا وفزعا ويدفعني للصلاة والاكثر من الصلاة ويدفعني للتبطل فلا اكلم الناس الا بحديث الدين ولا أفهم الحياة الا من خلال الجنة والنار . ذلك كان اسلامي وتديني بالامس عندما كنت طفلا وهكذا آمنت بالجنة والنار دون أن أدرك لها سرا . ونفذت تعاليم الاسلام دون أن أدرك لها حكمة .

عقيدة الرجولة

أما اليوم فما أسعدني وما أكثر إيماني . أنا اليوم أو من بالجنة لا لأنني لقيت أن أو من بها أو أن أمي حدثتني عنها ولكن لأنها حق . أحسه بروحي ونفسي وعقلي . وأنا اليوم أو من بالنار لا لأنهم أخافوني منها ولكن لأنها حق أحسه بنفسي وروحي وعقلي . وأنا اليوم أعبد الله لا طمعا في الجنة وأعناها وخوخها ورماتها . ولكن طمعا في رضا الله

ومغفرته . وأنا اليوم أعبد الله لارهبته من النار وزبانيته ولكن فرعا
من سخط الجبار وغضبه . وأنا اليوم أصوم وأصلى وأقوم بكل أركان
العبادات . لا لاني رأيت الناس يفعلون ذلك ولكن لاني لا أكاد
أقوى على الحياة بغير هذه العبادات . بل لا أكاد افهم الحياة بغير هذه
العبادات . بل لا أكاد أدرك علة لوجودي الا لهذه العبادات مصداقا
لقول العزيز الحكيم « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون »

أنا اليوم لا أستطيع أن اتصور كيف تستقيم الدنيا بغير الاسلام .
أنا اليوم اومن بأن لاسلام للعالم الا بانتشار الاسلام . أنا اليوم أو من
بأن آلام البشرية لن يقضى عليها الا الاسلام ولن يحول العالم الى دنيا من
الخير والاحسان الا الاسلام . . كل ما أمر به القرآن فهو عندي حق وكل
خروج عنه أو تهاون فيه أو تفريط في معانيه هو اهدار للحياة وكيانها .
كل ما أمر به الرسول هو عندي مقدس لاتستقيم الحياة الا به . كل ما فعل
محمد أو قال أو أشار اليه . هو الخير الذي لاخير قبله ولا بعده . هو النجاة
لهذه البشرية الضالة . هو النور وهو السعادة التي ينتظرها العالم منذ
الوف والوف من السنين . .

أما كيف أصبحت الى هذا الحد مؤمنا . أما كيف أصبحت الى هذا
الحد وقد كرسيت حياتي من أجل عقيدتي فالفضل في ذلك لعظمة محمد عليه
الصلاة والسلام تلك التي خلقها الله على الارض لتكون معجزة له ودليلا
على وجوده وبرهان ربوبيته . فعظمة محمد هي الطريق لمعرفة الله هي
برهان وجود الله . وآيات الله وكلامه . قد جاءت الى هذا الكون على
لسان محمد فان لم نعرف محمدا فقد جهلنا الله . ومتى عرفنا محمدا فقد
أصبح الإيمان بالله كالصخرة الشماء لا يأتيا الوهن من بين يديها ولا من خلفها .

أُتُعرف هؤلاء الملاحدة وهؤلاء الجاحدين . هؤلاء الذين ينكرون الله والأديان . هؤلاء الذين يشورون على الخالق فيجذفون ويسرفون في التجذيف . هؤلاء ما كانوا ليفعلوا ذلك لو أنهم عرفوا عظمة سيدنا محمد . ولو أنهم وقفوا على رسالة سيدنا محمد ، اذن لما استطاعوا الا أن يحنوا الرؤوس وأن يركعوا مع الراكعين ويسجدوا مع الساجدين تمجيذا لله ذي الجلال والاكرام .

فعظمة محمد هي نقطة البدء للوصول الى الله . وعن طريق هذه العظمة - أنا اليوم بعد ألف وثلثمائة عام من وفاة محمد - علي استعداد لسفك آخر قطرة من دمي في سبيل الذود عن تلك الرسالة التي حمل لواءها سيدنا محمد . وعظمة محمد لا نعرفها أول ما نعرفها من هذه الاحاديث التي يروونها عنه . عظمة محمد لم أعرفها لاني تعلمت في المدارس انه كان عظيما أو انه كان صاحب معجزات . أو انه فعل كذا وكذا وقالت الناس عنه كذا وكذا وعظمة محمد لم أعرفها أول ما عرفتھا لأن القرآن يحدثنا عنها فلقد كنت حدثا صغيرا ما كان لي أن أفهم اسرار القرآن وأن أغوص الى اعماقه . . وأنا اليوم حتى في هذا السن وفي هذا السبيل الذي أنا آخذ به نفسي ما زلت أضعف من أن أغوص الى أعماق القرآن وأخرج منه كل ما ينطوى عليه من أسرار وآيات

ولكن عظمة الرسول عليه الصلاة والسلام قد لمستھا وشعرت بها من خلال تعاليم الاسلام وقواعده واحدة بعد الاخرى . . ولم تكن الصلاة ولا الصوم هي القواعد التي هدتني أول ما هدتني الى عظمة الرسول ولكن التشريع المدني الخاص بالمعاملات وعلاقات الناس وتنظيمها وقواعد المجتمع هي أول ما لفت نظري الى عظمة الدين

الاسلامى . ومن هذه العظمة التشريعية أخذت أتدرج الى العظمة الروحيه . . حتى انتهيت الى عظمة محمد وآمنت بأنه سيد الخلق فعلا . . حتى اذا نضج في نفسي هذا الايمان لم يبق الا أن أصدق كل ما يقوله سيد الخلق وأن ينزل منى منزلة التقديس

بين تعاليم الممنية الغربية

تفتحت عيني على الحياة وأخذت أتطلع لهذا الذي يسمونه المدنية الغربية وقواعد الحضارة الحديثة فراعنتى كل هذه الامبراطوريات والممالك التى تحكم الدنيا فأخذت أدرس مع الدارسين عناصر هذه الحضارة وعناصر هذه القوة التى جعلت إنجلترا سيدة البحار . ولها من المستعمرات مالا تغيب عنه الشمس وجعلت فرنسا سيدة أوروبا بلا مرء وصاحبة النفوذ الأدي على العالم بأسره . .

استهوانى ذلك النهوض وأخذت بلبى تلك الحضارة فاعزمت أن أعترف من منهلها وأن أدرك سرها وابها فآليت على نفسي أن أبادر في أول فرصة لزيارة فرنسا وعاصمتها باريس حتى أقف بصورة مادية على أثر الحضارة الغربية . .

ولقد كان وسافرت الى باريس في عام ١٩٣٠ وهناك مكثت شهراً ونصفاً أو أكثر ولم يكن لى من عمل إلا دراسة هذه الظواهر التى تحيط بى والتأمل في حقيقة القواعد والمبادئ التى يقوم عليها هذا البناء . . خطف بصرى أول ما طالعت باريس ديمقراطية الفرنسيين واحساسهم بشخصيتهم وايمانهم بالمساواة فيما بينهم . . حتى اذا امتدت بي الايام قليلا أخذت أرى من تفاصيل الحياة الفرنسية ما يلفت النظر فقد وجدت أنهم

لا يكذبون في معاملاتهم اليومية . . فهم يصدقون في وعودهم . وهم لا يحاولون خديعة محادثهم . وراعى منهم النظام والنظافة . . فالنظافة في كل شيء . في ملابسهم . . في طرقاتهم . في معيشتهم . . في قطاراتهم ومركباتهم . . والنظام رائد لهم اذا أقبلوا يركبون سيارة وقفوا صفا منتظما ينتظر كل دوره . واذا رغبوا في شراء سلعة من السلع وتكاثروا عددهم بادروا بتنظيم أنفسهم وهكذا

والكى بعد ذلك لم أجد شيئا غريبا ولا فذا فقد وجدت أناسا ككل الناس لهم عيون ولهم آذان ولهم أرجل . . لا . . بل لهم أكثر من ذلك عقول محدودة لا ذكاء خارق فيها ولا نبوغ . فالمصري قد يكون في بعض الاحيان أكثر ذكاء ونبوغا . . كما نشاهد ذلك في بعض معاهد العلم الفرنسية بالذات . .

واذن لم يكن نجاح الفرنسيين والاوربيين على العموم راجع الى مقدرة خارقة . ولا هو معجزة من المعجزات وانما هو نتيجة لهذه الحياة التي يحيونها والتي تخلق للرجل شخصيته وتسوى بين الافراد وتمنحهم حريتهم المطلقة . . وهو في النهاية نتيجة لهذه التربية التي تغرس في النفس حب العلم والنظام والخلق الحسن . . من جد وصدق وعزم واخلاص . وهذه صفات تتوفر كلها في الاوربيين اذا اسقطنا من الحساب ما طرأ على ذلك كله عقب الحرب من تغييرات . . واذا كانت دول أوربا قد سادت فهي انما سادت بهذه الاخلاق وهذه الصفات التي كانت لها بالامس لا بما هي عليه اليوم والتي ستؤدى بها الى الخراب والدمار حتما بعد أول حرب مقبلة . واذن فقد دفعنى ذلك للتفكير العميق في هذه الأسس التي تقوم عليها الحياة الفرنسية والحياة الاوربية بصفة عامة . .

حرية . اخاء . مساواة

فعاد بي الفكر الى الثورة الفرنسية . . وكل ما في باريس يذكرك
بالثورة الفرنسية . . فهذه القصور وهذه الاعلام وهذه الاسماء كلها تعيد
الى الذهن هذا الحدث العظيم الرهيب . والذي انطلق فيه الشعب الفرنسى
يخرب ويحطم آثار العهود القديمة فسرت منه نار الثورة الى أوروبا
بأسرها . فسرعان ما دكت النظم القديمة دكا . . واستقبلت أوروبا عهدا
جديدا من الحضارة والحياة . .

حرية . واخاء . ومساواة . تلك هي الثلاث تعاليم التي حملتها الثورة
الفرنسية والتي تراها اليوم في باريس وقد خطت على كل منشأة عامة وفي
كل مدرسة وفي كل محكمة وفي كل كنيسة . . بل انك تراها على
مطبوعات الحكومة ومنشوراتها وأعلامها . . بل انك لو اجدتها في علم
الدولة المثلث الالوان . . وواجدها بالأكثر على كل ما يتناوله الناس
من طعام وشراب

ولست هذه المبادئ الثلاثة إلا شعار أوروبا الحديثة بأسرها . .
فهي كما قلت لك قد سرت من فرنسا الى ما جاورها من البلدان وسرعان
ما اعتبر العالم أن الثورة الفرنسية بدء حلقة جديدة من حياة الانسانية
بأسرها . . ففي كل ميادين الحياة وفروعها في نظم الحكم وفي علاقة الناس
في القانون والتشريع والقضاء . في الادب وفي الفنون وفي الدين . . في
كل مظاهر الحياة حدث انقلاب من جراء الثورة الفرنسية والتي حملت
لواء المبادئ الثلاثة . حرية واخاء ومساواة وكان ذلك منذ قرن ونصف
وقفت طويلا أمام هذه المبادئ التي أشرقت على الانسانية منذ قرن .

ونصف والتي يقول الفرنسيون انهم حملوها للعالم. وان قبل ذلك التاريخ كان العالم يعيش في ظلام وذل وشقاء .. كان العالم يعيش في فوضى. والانسانية في تأخر وخمول . لانها لم تكن تعرف الحرية ولم تكن تعرف الاخاء ولم تكن تعرف المساواة .

على اننى عبثا حاولت أن أشعر بعمق هذا الانقلاب وخطورته فلم أتخيل كيف كان العالم قبل الثورة الفرنسية يجمل هذه المبادئ الثلاثة . . وساءلت نفسى هل كانت الناس تفهم الحياة بغير حرية . . وهل كانوا يفهمونها بغير مساواة وبغير اخاء حي قرن ونصف من الزمان ..

فكان جواب الثورة الفرنسية (نعم) والا فعلام كل هذه الهزة التي أطاحت برؤوس ملوك وملكات وأشراف ..

علام هذه الفترة من الزمن التي كان يقاد فيها للمقصلة كل شريف أو من يحمي شريفا أو يمت الي شريف بصلة ..

والتي صورها بعض الكتاب والمؤلفين بصورة يرتعد لها البدن ومهتز النفس لها من الاعماق .. علام ذلك كله ان لم تكن الانسانية تبغى التخلص من عهد لتستقبل عهدا جديدا . . لتدفن مبادئ ولتستقبل مبادئ جديدة .. ففرنسا بل أوربا بأسرها قبل الثورة الفرنسية كانت تنظر الى الملك كصاحب حق الهي ..

وكان الناس قسمين قسما من الاشراف هم السادة وهم الاغنياء وقسما من العبيد والاتباع وهم جمهرة الناس وأغليبتهم . . ولم يكن لدم الاخيرين من ثمن .. ولم يكن لحریتهم من باب أو بالاحرى من معنى مفهوم. فقد كان السادة ينظرون اليهم كنوع من الحشرات أو نوع من البعوض .. ولذلك فلقد

دهشت ما برى انتوانيت ولقد كانت مخلصه في دهشتها عند ما قالوا لها ان الناس في الخارج تريد خبزاً لانها جائعة .

مرت في ذهني كل هذه الاخيلة والمعاني وأنا مبهورت لمجرد استعراضها ولم أكن أعرف لماذا أنا في كل هذا العجب وهذه الدهشة لهذه الحوادث منذ قرن ونصف .. ولم أستطع أن أعلل ما أشعر به من الحيرة في نفسي ازاء هذه الثورة حتى تنبتهت الى اننى مسلم ودينى الاسلام . وهذا ما يجعل الثورة الفرنسية تبدو غريبة كل الغرابة، تبدو وليس لها ما يعلاها من تفكيرى ومنطقى واحساسى .

ذلك انا معاشر المسلمين نرى الحرية شيئاً طبيعياً كالهواء والماء .. ونرى المساواة كذلك والاخاء .. ولذلك فلسنا نستطيع أن نتصور أن هذه المبادئ كانت محل نزاع وانها ظلت منكورة حتى قرن ونصف من الزمان .. وان انفجاراً مخيفاً وحشياً هو الذي أعلنها وخلقها ... وما كان ذلك يحدث لو أن هذه البيئة كانت تعيش في ظل الاسلام وتعاليم الاسلام والتي نصت أول ما نصت على الحرية والاخاء والمساواة ..

فمن الاحاديث المروية أن المسلمين سواسية كأسنان المشط ..
ومن الاحاديث المروية أن لا فضل لعربى على عجمى الا بدين أو عمل صالح

ومن الآيات الكريمة (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) ..

ومن آيات الاسلام أنه جعل المؤمنين أخوة فحديث الأخوة بين المؤمنين يفيض به القرآن وتفيض به الاحاديث ..

وقل مثل ذلك عن الحرية وحق كل مؤمن فيها كما لخصها بحق سيدنا

عمر رضي الله عنه في عبارته المشهورة « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم
أمهاتهم أحرارا » .

فالمساواة المطلقة والحرية المطلقة والاخاء الصادق كانت الدعاوى الاولى
التي دعى اليها الاسلام وارتفع على قواعدها .

وماذا تقول في هذه القصة الخالدة التي يرويها التاريخ عن عمر عند
ما وقف في المسجد يقول : من رأى في اعوجاجا فليقومه . فقام أعرابي
من أقصى المسجد يقول : والله لو رأينا فيك اعوجاجا لهومناه بسيوفنا .
فحمد عمر الله أن جعل في أمة المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بالسيف .

بل ولماذا تتدرج الي ذكر هذه الحكاية السابقة وهذا سيدنا محمد
عليه الصلاة والسلام وقف مرة يقول للناس (من كان له عندي حق فليطالبني
به) فقام رجل يقول له لقد أوجعتني يا رسول الله يوما بغير حق فكفني من
نفسك حتى أخذ حتى فوالله ما كاد الرجل يتم قولته حتى كان سيدنا محمد
أسرع الي تلييته من ختام عبارته فلم يمالك الرجل نفسه من أن يلتزم
رسول الله وأن يعانقه وهو يقول : بأبي أنت وأمي يا رسول . .

سبحانك يارب ما أروع آياتك أكل هذه المساواة قد علمنا اياها
الاسلام وقدمها للعالمين ؟ . . أكل هذه الحرية . وكل هذا الاخاء قد لقننا
الاسلام للانسانية . فما أعظم هذه التعاليم . . وما أعظم تلك المبادئ . .
فليكبر العالم ما شاء له الاكبار في مبادئ الثورة الفرنسية فليقدسها
تقديسا وليسجد لها سجودا ان أراد . .

فليعتبروا ان الثورة الفرنسية هي النور الذي أضاء الارحاء . . وهي
الخير الذي عم العالمين فذلك كله تمجيد للاسلام واعظام للاسلام .

ذلك الذي حمل هذه المبادئ للانسانية منذ نيف والى وتلثمائة عام
عند ما كانت الانسانية تعج في دياجير الظلمات
ولم يكن الاسلام داعيا فحسب لهذه المبادئ ولكنه شاد على
قواعدها دولة هي أعظم دولة عرفها التاريخ .. واذا كانت هذه الدولة قد
تفككت ردحا من الزمان فهي لا تلبث أن تعود أكثر قوة ومضاء من
ذي قبل بعد أن آمن العالم بأسره بهذه القواعد التي أقرها الاسلام وأغنى
بها الحرية والاخاء والمساواة ..

وهكذا كانت مبادئ الثورة الفرنسية كما رأيتها في باريس هي أول
من هداني الى عظمة التشريع الاسلامي فأخذت منذ ذلك التاريخ أتأمل
أحكام هذا التشريع وأطبقه على ما وصل العالم اليه من نظم أو ينبغي
لوصول اليها فلا أجد من الاسلام الا احكاما وسموا واعجازا

الاسلام والاشتراكية

ان موجة التفكير الحديث اليوم في العالم قاطبة تندحونحو الاشتراكية
والتعاون فالناس لم تعد تطبق رؤية الثروات تكس في يد بضعة أفراد
والى جوارهم عشرات الالوف يئنون من الجوع والفاقة .. لم يعد ضمير
العالم يحتمل كل هذه الفوارق الاقتصادية بين جماعة وجماعة .. فنت
المبادئ الاشتراكية وترعرعت .. واختلفت مدارسها وتعددت مذاهبها
ولكنها تدور كلها حول محور واحد . وهو واجب الاغنياء في مساعدة
الفقراء وتضامن الطبقات لخير المجموع وسعادة المجموع .
ويرون في انتشار المبادئ الاشتراكية وتأثر أوروبا الحديثة بها
بوتأليف حكومات مختلفة على اساسها

يري الكتاب والمؤلفون والناقدون والمتفرجون . يرون في ذلك مظهرا من مظاهر ارتقاء البشرية ورفعتها ويشيرون الى تطور الانسانية وتدرجها نحو الكمال والمثل الاعلى . كيف نما الضمير الانساني فأصبح يحرم الصعود على اكتاف الناس ويتركهم فقراء ضعفاء . .

وان كنت أعجب لشيء فهو أن هذا التفكير لم تعرفه اوربا الا منذ خمسين عاما فقط أو أقل ولكن العجب يزول اذا تذكرنا ان اوربا لم تعرف الحرية ولا الاخاء ولا المساواة الا منذ قرن ونصف فقط . وهكذا يبدو منطقيا أنها ظلت تجهل الى نصف قرن تضامن المجموع لخير المجموع . وأن للضعفاء على الاقوياء حقا والفقراء على الاغنياء حقوقا

ذلك أن هذا المعنى الذى لم تحاول أوربا أن تفهمه الا منذ هذا الامد القصير هو ركن من أركان الاسلام وبغيره لا يستقيم الاسلام ولقد فكر بعض المسلمين يوما أن يتحرروا منه فكانت حروب لا عهد للمسلمين بأهوالها من قبل حتى خرج المبدأ ظافرا منتصرا يقرر للفقير حقه على الغنى وللضعيف حقه على القوى وأعنى به مبدأ الزكاة .

فالزكاة هي الروح الاشتراكية التي لم تكتشفها اوربا الا منذ خمسين عاما يقررها الاسلام منذ الف وثلاثمائة عام في قوة ووضوح ويجعلها من دعائم الدين .

وزكاة المال هي دفع ٢٥ في المائة من رأس المال في كل عام يتسلمها بيت المال ليوزعها على الفقراء والمعوزين

وهذه نسبة ضخمة تكفي لانها رأس المال بحيث أن رأس المال هذا ان لم يتزايد وينمو فهو لا يلبث أن ينعدم بعد أربعين عاما أو خمسين وان كانت الزكاة تقف عند حد معين فلا تصبح واجبة عند هذا الحد .

هذا المبدأ الخالد من مبادئ الاسلام هو ما نجاهدله الانسانية عبثا حتى الآن بأساليب مختلفة، تارة بالعنف وتارة بالتطور البطيء . . فلم تستطع الوصول اليه حتى الآن وأرجوان تفرق بين الضرائب التي يدفعها الاغنياء اليوم في بلاد أوروبا وبين الزكاة . . ذلك أن الضرائب يدفعها الانسان في مقابل منفعة يحصل عليها شخصيا من الدولة ولذلك فهو يدفع عن هذه المنفعة والدليل على ذلك أن الضرائب التي تأخذها الحكومة لا تقف عند حد الاغنياء بل هي تشمل الفقراء أيضا ولعلها تشمل الفقراء بأقصى مما تنال الاغنياء . .

فالفقراء يدفعون ضرائب باهظة عن طريق غير مباشرة

فالضرائب الجمركية التي تفرض على السلع يتوزع ثمنها على وحدات هذه السلع والتي يحصل عليها الفقراء . . خذ مثالا لذلك في مصر فهناك ضرائب على السكر والشاي والكبريت والدخان وكل هذه حاجيات يستهلكها الفقراء بقدر استهلاك الاغنياء لها فالفقراء يتألمون من الضرائب التي تفرض على هذه السلع سواء أكانت في ضرائب جمركية أو ضرائب انتاج . . أكثر مما يتأثر الاغنياء .

فالضرائب تحببها الدولة في مقابل منافع تقدمها للسكان فهي تشق الطرق وتبنى الكبارى وتطفيء الحرائق وتحفظ الامن وتبنى المستشفيات وتنشر التعليم وتدافع عن الدولة بالجيش . فالضرائب ثمن لعضوية الدولة . أما الزكاة فشيء غير هذا . . انها فريضة على رؤوس الاموال لمنح مباشرة للفقراء والمعوزين بطريقة منظمة . . وهذا هو آخر ما تطمح اليه الانسانية ولا تكاد تصل اليه .

بقي أن الاشتراكية فيها ناحية أخرى من تنظيم علاقة أصحاب

الاعمال بالعمل وانك لتعجب بهذه الاحكام الدقيقة التي فرضها الاسلام علي من يؤجر عاملا وبحسبك أن تعلم أن من بين هذه الاحكام ان صاحب العمل ان شاء اطعام العامل فقد وجب عليه أن يقدم له طعاما من خاصة ما يأكل.. وان شاء ان يقدم لها رداءا فقد وجب أن يكون من خاصة ما يلبس

وهكذا وضع الاسلام العامل في مرتبة يصل فيها الي صاحب العمل بالاحسان والمعروف والديانة .

واذن فان الاسلام لم يغفل الحاجيات المادية للانسانية ولم يغفل عن تنظيمها ووضع القواعد الاساسية لها والتي احتاجت الانسانية الى ثلاثة وعشرين قرنا كما تهتدى اليها عن طريق التفكير والفلسفة . وما زالت الانسانية تتخبط وتتعثر على غير هدى لاتعرف قاعدة تسير عليها الا ان تكون هذه القاعدة التي قررها الاسلام في هذا السبيل .

الاسلام والعالم

وفي العالم اليوم نزعة لتوحيد صفوفه والتأليف بين وحداته . واحلام البشرية اليوم تتلخص في رؤية العالم وحدة واحدة لاقبود ولا حواجز ولا حروب ولا ويلات . ايس في العالم اليوم من تصبو نفسه بأن تكون الدنيا بأسرها وطنه فالتجارة حرة والرزق حروا وانباء العالم اخوة وليست عصبة الامم التي تريد اخضاع العالم بأسره لسيادتها .. وليست هذه المؤتمرات العالمية والمعارض العالمية . والالعب الاولمبية والمباريات الدولية .. ليس ذلك كله الا محاولات من العالم لجعل العالم بأسره وحدة واحدة .

هذا المبدأ الذي اعتنقته الشيوعية وجعلت تفخر به وتنادى أنها

تريد انقاذ الانسانية بواسطته .

ما أعجب .. بل ما أصدق أن يكون ذلك هو الاساس الذي قام عليه الاسلام يوم أن قرر الرسول صلى الله عليه وسلم أن لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى فالاسلام بهذه القاعدة كان يقضي على الفوارق الجنسية وحدود الممالك وينظر الى المسلمين في جميع بقاع الارض كأمة واحدة وأبناء وطن واحد ولقد قامت الدولة الاسلامية على هذه الدعام بالذات فامتدت من بحر قزوين شمالا الى انهار الهند جنوبا والى الصين شرقا والمحيط الاطلسي غربا

كل هذه الرقعة التي حوت ثلاثة أرباع العالم كان كل فرد فيها يقف على قدم المساواة مع المسلم الآخر
وكان المسلم يرى في هذه المملكة الضخمة وطنه . فلم يكن المغربي في مصر إلا مساماً له حقوق المسلم وعليه واجباته .

تلك هي العالمية ، حلم البشرية في العصور الحديثة قررها الاسلام وعمل لها وما زال يعمل وسوف يحققها من جديد باذن الله

اللق باللك لهذا المؤتمر العالمي الذي يعقده الاسلام في الحجاز كل عام مرة عند ما يؤدي المسلمون فريضة الحج فانك تستطيع أن تأخذ لنفسك صورة كيف يريد الاسلام أن يجمع أمم العالم كلها في صعيد واحد . فاذا عرفت بعد ذلك أن الحاج ينبغي عليه أن يخلع ملابسه ويرتدي ازاراً أبيض وأن يقف المسلمون جميعاً موقفاً واحداً على جبل عرفات لافرق فيهم بين ملك وجندي . بين غنى وفقير . بين مصري وصيني . بين تركي وعجمي . . .
الجميع في ملابس بيضاء ومن نوع واحد .. الجميع يرددون دعاءً واحداً

وحديثا واحدا .. الجميع يطلبون من الله عزرا ونصرا ومغفرة : . فاذا انقضوا من ذلك الموقف اجتمع زعماءهم الى بعضهم يتحدثون ويتشاورون ويتبادلون المنافع ويتعاونون .. هذه هي عصبه الامم التي يحلم بها العالم اليوم فيعجز عن تحقيقها إلا بهذه الحفنة من السياسيين الكاذبين المنافقين الذين يجتمعون لينهبوا ويسرقوا ويعتدوا علي الضعفاء .. ضع نصب عينك هاتين الصورتين ثم احكم بنفسك الى أي مدى كان التشريع الاسلامي منظما للدنيا بأسرها في سمو واعجاز

فالحرية والاخاء والمساواة وهي ما يسمونها حقوق الانسان والاشراكية والعالمية .. كل هذه قواعد مقررة في التشريع الاسلامي وطبقها الاسلام وسيظل ينادي بها ويطبقها ..

واذن فان جهود العقل البشري طوال الف وثلثمائة عام قد تمخضت وانتهت الى ما أعلنه الاسلام منذ الدقيقة الاولى وهي قد انتهت اليه فكرا لاعملا .. وما زالت تعتبره حاما وخيالا .. ومع ذلك فهذا هو ما أعلنه محمد عليه الصلاة والسلام وطبقه بالفعل وقامت الدولة الاسلامية على أساسه في عز وسؤدد وقوة طوال عدة قرون فهل يمكن أن يكون ذلك كله من صنع الانسان .. ؟ ؟

الاسلام وآداب السلوك

ويلفت أنظارنا من حضارة الغرب مبادئ السلوك التي اعتادها الناس قبلغوا شأوا عظيما في الرقي .. فهم لا يكذبون في معاملاتهم وهم يؤدون الامانات .. وهم يشمرون عن ساعد الجد في أعمالهم .. وهم يأخذون أنفسهم بالنظام والنظافة .. وهم يحترمون الرجولة ويكبرونها .. ويحفظون للكرامة

حقها . وهذا ما يروع الانسان عندما ينفذ الي صميم حياة الاوربيين ..
فهذه الاخلاق تهوقوا .. وبهذه الآداب سادوا .. وانك لتعجب أن
تري ذلك كله ليس إلا قواعد مقررة في الاسلام دعا اليها منذ الدقيقة
الاولى واعتنقها المسلمون الاوائل فسادوا علي العالمين .. فليس هذا الذي
يسير عليه الاوريون إلا فضيلة الاسلام اعتنقوها فسادوا .. وأهملناها
فهبطنا الي الحضيض .. وهل يعامنا الاسلام شيئاً أكثر من الصدق ..
هل فينا من لا يعرف وصية سيدنا محمد لا أحد المسلمين الذي شكاه اليه كثرة
خطاياهم وطلب من النبي صلى الله عليه وسلم علاجاً فطلب منه الرسول أن
يعاهده على ترك الكذب .. وأخذ يكررها له حتي خلدت على مر
الايام ووصلت اليها من خلال العصور

فمن من المسلمين اليوم لا يصطنع الكذب في حديثه بل لا يتخذ
الكذب حرفته في بعض الاحيان ..

والوفاء بالعهود وحفظ الامانات والتعاون والاتحاد .. كلها ..
كلها فضائل دعاها اليها الاسلام وطلبنا بها .. فنفعها الاوريون فكان
ذلك سر تقدمهم .. وأهملناها فكان سر تدهورنا ..

طالما وقفت مشدوها أمام ظاهرة غريبة وتلك هي نظافة الاوربيين
وقدارة المسلمين .. هنا في مصر اذا فتح أجنبي أحد الحوانيت فلن
يأخذ نفسه بشيء غير النظافة وهذا كفيل بأجابه . واذا مارس أحد
الصناع الاجانب عملاً من الاعمال . فلن يأخذ نفسه بغير النظافة . وهذا
كفيل بأجابه .

فهم قد اعتادوا النظافة في بيوتهم في أعمالهم في ملابسهم في
حياتهم ونحن قد افلنا القدارة . تراها في حوانيتنا . تراها في بيوتنا .

تراها في ملابسنا تراها طالبا لكل شيء . والغريب في ذلك كله أننا
أبناء الدين الذي يضع النظافة شرطا أساسيا للصحة أى ضرب من ضرب
العبادة . هو دين جعل من آدابه أن تغسل يديك قبل الأكل
وبعده . وهو دين جعل من فروضه أن يتوضأ الإنسان بالماء خمس
مرات في اليوم وهو دين جعل من فروضه الاستحمام في أكثر من
مناسبة . وهكذا هو دين قد قدس النظافة وقدمها على ماعداها . فاذا راعتنا
نظافة الأوربيين فهي ليست الا قبسا من تعاليم الاسلام التي أهملناها وجعلناها
فالدين الاسلامي قد تعدد الي كل تفاصيل الحياة فنظمها ووضع آداب
السلوك وشرعها بما تفخر الانسانية أنها قد اكتشفته بعد ثلاثة عشر قرنا .
أذكر مرة أنني ذهلت عندما كنت اطالع آداب المائدة عند الانجليز
عندما وجدتها تكاد تنطبق بالحرف على آداب المائدة في الاسلام .
فالانجليز يطلبون منك أن تجلس الى المائدة في أدب ووقار معتدلا في
جلستك فاذا أكلت فقد وجب أن تمضغ الأكل جيدا وأن تغلق فمك
حين المضغ مخافة أن يتناثر الطعام من فيك على أن تتبادل الحديث الطريف
من حين لاخر ابان الطعام . هذه التفاصيل وغيرها وأكثر دقة منها سوف
يروعك أن تعلم أنها هي . هي بذاتها ما شرعها لنا الاسلام ذلك الذي
لم يترك صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها . .

الاسلام وعلاقة الزوجية

انتقل بنا الى نظام الاسلام في الزواج وهذه القواعد التي وضعها .
للمرأة تجده أنه قد وصل كعادته الى الكمال المطلق الذي تنشده الانسانية
خلا تكاد تصل اليه وهي تتخبط في سبيل الحصول عليه لعجزها

حتى الآن عن ادراك هذه النعمة . شرع الاسلام للانسانية نظام الطلاق ذلك أن هذه العلاقة التي تقوم بين الرجل وزوجه هى علاقة تقوم على التألف والاتحاد والوثام فاذا انحلت هذه العروة الوثقى فقد تحوات رابطة الزوجية الى جحيم وهم دائم . ومن هنا فقد تداخل التشريع الاسلامي ليفصل بين الزوجين بمعروف . والمسيحية لا تعرف الطلاق وتعتبره من أكبر المنكرات فقد جاء في الانجيل أن ما ربطه الله لا يحله الانسان فلا عجب أن قامت اوربا المسيحية وقعدت ضد هذا التشريع الاسلامي وجعلته مطعنا في الدين الاسلامي ومأخذا أى مأخذ . ولكن أوربا تطورت في النضوج العقلي وامتلأت بالثقافة والفلسفة التي تعمل لادراك مشكلات الحياة . اوربا هذه قد انتهت الى تقرير شريعة الاسلام فأخذت تبيح الطلاق وتنظم الطلاق وهى في هذا انما تطبق أدق تعاليم الاسلام وهكذا احتاجت البشرية الى ثلاثة عشر قرنا لتهدى الى نظام قرره الاسلام في وضوح ونصاعة منذ اللحظة الاولى . .

ومن نظم الاسلام التي تقف الى جوار الطلاق سماحه بتعدد الزوجات ابان الضرورة كأن تكون الزوجة عاقرا والزوج يريد الولد . أو كأن تكون الزوجة مريضة تطاول بها المرض أو كأن تصاب الامة عقب حرب من الحروب بفناء أغلبية الذكور فيها . أو تزيد نسبة الاناث عن الذكران كما حدث في التعداد المصرى هذا العام وقس على ذلك أمثال هذه الحالات التي يصبح فيها التعدد ضرورة اجتماعية لا يحلها الاالقوضى الجنسية أو تعدد الزوجات ولقد وقف الاوريون يوما من هذا النظام موقفهم بالأمس من الطلاق . فهم يستبشعون . وهم في هذا يمثلون دورا من أحط أدوار النفاق والامحطاط ذلك أنهم لا يستطيعون الرد على مسائل

الاسلام في هذا الباب الا بأن يعلنوا الاناحية والقوضى الخلقية . فانت اذ تسألهم: الاتسلمون معنا بأن من الرجال من لا يطمع من حياته في أكثر من أن يكون له ولد فان لم يرزق هذا الولد كان شقيا تعسا ؟ . فيقولون بلى . فتسألهم: فماذا يكون الحل اذا تزوج هذا الرجل بامرأة وأحبها وارتضاها زوجة له ولكنها كانت عاقرا فلم تمنحه الولد الذي يصبو اليه ؟ ما هو الحل في مثل هذا الموقف من الناحية الاجتماعية ومن الناحية الانسانية ومن الناحية الطبيعية التي تؤمنون بها . الاتسلمون معنا أن غاية الزواج هي النسل فيسقطون: نعم . فنسألهم بدورنا فماذا تفعل في هذا الزواج العقيم؟؟
الا يكون من المنطق ومن حق المجتمع وخضوعا لنواميس الحياة أن يتزوج هذا الرجل بزوجة ثانية وأن يحتفظ بالاخري التي فتحت بيته أولا . فلها عليه حق العطف والرعاية ثم يتزوج باخري ليرزق منها بالغلام الذي يصبو اليه كل رجل في الحياة . اذ هو حياة الرجل وخلوده

واذا تزوج رجل بامرأة فرضت مرضا مزمنًا الزمها الفراش عاما وعامين وثلاثة والي ماشاء الله . فأين يكون الخير للانسانية ولهذه المرأة وللمجتمع . وأين يوجد المنطق السليم . أليس في أن يتزوج هذا الرجل بامرأة جديدة تعيد الحياة اليه والي بيته والي المجتمع .

في مثل هاتين الحالتين لا يجد الاوربيون جوابا على مثل هذه المشا كل الا بواحد من اثنين اما أن يلبسوا ثوب النفاق والرياء ويهرفون بألفاظهم أول من يعرف سخافتها وتلك هي أن يقولوا لك على مثل هذا الرجل أن يتعفف .. وماذا يعني انه لا بد أن يرزق ابنا !! وهل الحياة لا بد فيها من ابن؟! واذا مرضت زوجته مرضا طويلا مزمنًا فما للرجل لا يتعفف . أهو لا بد أن يكون حيوانا شهوانيا !! ومثل هذه الردود لا تحتاج منا الا مجرد اثباتها

ليتين ما فيها من سخف لأن قائلها هم الفارقون في الشهوات حتي اذقاهم
هم الذين ابتكروا الرقص والاختلاط ورفعوا الحدود ونادوا بالاباحية
الجنسية .. فهؤلاء هم الذين يتحدثون عن التغف في أمثال هذه
الحالات فيطالبون الرجل لأن زوجته مريضة طوال عدة سنوات أن
يتزهد وأن يزهد في النساء ، وهم أول من يقررون لك أن هذا مستحيل
وهو ان أمكن تصوره بالنسبة لرجل من الناس فهو لا يمكن أن
يكون قاعدة عامة .

بقى الجواب الثاني الذي يردون به في أمثال هذه المواضع وهو يتلخص
في كلمة الاباحية وفوضي الاباحية فهم يقولون ان النساء أمام الرجل
كثيرات فليتنصل بهن على شكل محظيات .. وأنت ترى أن ذلك لا يمكن
أن يكون حلا لأن الاباحية لا يمكن أن تكون حلا يقوم الى
جوار الزوجية ..

لأن نظام الزوجية يعنى شرعية العلاقة بين الرجل والمرأة وتقييدها
بقيود . والاباحية معناها اهدار هذه القيود فكيف تتفق قيود ولا قيود ..
وأياها أكثر حفظا لكيان المرأة واحترامها .. أن تكون ولها حق
شرعي على الرجل اذا اقترب منها .. أم أن تكون سلعة يدفع ثمنها معجلا
لكل مرة يقترب فيها منها ..

الحق ان السماح بتعدد الزوجة في أمثال هذه الحالات هو الحياة
وناموس الحياة .. هو احترام المرأة وتوقيرها واعلاء كلمتها وتقديس
حقوقها ولعله يدهش قرا عظميا من المسلمين أن يعرفوا أن أوربات تتجه اليوم
نحو الاعتراف بتعدد الزوجات تحت ضغط مطالب الحياة وضرورتها
ويتجلى ذلك في أن النساء يطالبن في مؤتمراتهم العامة أن يعمل التشريع

على الاعتراف بالولد الغير شرعى ليرتب على آبيه له حقوقا واذا أضفت الى ذلك أن القانون في بعض بلاد أوربا يعترف بحق الخلية على الرجل الذى عاشرها فباتت المحاكم تقضى بالتعويضات اذا ماتحلى عنها الرجل فجأة وامتنع عن الصرف ..

أقول اذا قرنت هذا الحق الذى تقرر أو هو في سبيل التقرير أكثر صراحة وتنظيما .. اذا قرنت اليه ما يطالب به النساء الآن من ضرورة الاعتراف بالابن الغير شرعى لعلمت اذن كيف تتجه اوربا نحو اقرار مبدأ تعدد الزوجات .. فان الخلية التى يترتب لها حق على خليلها .. وابنها الذى ترزقه .. منه يصبح ابنا شرعيا فانها في مثل هذه الحالة لا تكون خلية بل حلية لان الفرق بين العلاقة الشرعية وغير الشرعية أن الاولى يعترف بها المجتمع ويرتب عليها حقوقا وواجبات .. أما الاخيرة فينكرها المجتمع ويأبأها .. ولا يترتب عليها أي حق من الحقوق .. فاذا انتهى المجتمع - وهو منته حتما - الى تقريرها فهو قد اعتنق مبدأ تعدد الزوجات .. وان كان لا يسميه كذلك صراحة خوفا من دينه المسيحى الذى يحرمه تحريما باتا ..

فأنت تري من هذا كيف أن الاوربيين أصبحوا مضطرين للخروج على تعاليم المسيحية سواء في الطلاق أو في اباحة تعدد علاقات الرجل بالمرأة .. وهم في هذا يقتربون من الاسلام وقواعده رغم أنوفهم تحت ضغط تطور الحياة ونواميسها ..

فهلا يروحك بعد ذلك كله عظمة هذا التشريع الاسلامى الذى أحاط بالكون كل هذه الاحاطة ونظمه كل هذا التنظيم الذى هو صورة من صور السكالم وعلاج لكل أمراض الانسانية .. الأمر الذى لجعلنى أؤمن أن كل ما تشكونه اليوم مرده اغفالها لهذه المبادئ والتعاليم

عظمة سيدنا محمد

هنا وقت طويل وأخذت أتأمل في هذا الانسان الذي حمل للانسانية هذا التشريع منذ ألف وثلثمائة عام ..
ويقولون عنه انه كان أميا .. ويقولون عنه انه لم يتعلم ولم يتلق درسا علي أحد وهو قد وجد في بلاد لو لم يوجد فيها لسكانت صحراء بلقعا لا قيمة لها ولا مقدارا .

أجل . لكم وقت طويل ازاء هذه البلاد التي خرج منها سيدنا محمد فعملني ذلك أومن برسالة محمد .. لو أنه جاء في بلاد اليونان لا مكن القول انه عظيم كهؤلاء العظماء الذين سبقوه .. عظيم في الحرب كالاسكندر الذي فتح الدنيا .. وعظيم في الفكر كافلاطون وسقراط وارسطو فهو قد جمع في شخصه كل هذه المواهب والقدرة ..

ولو انه جاء في الرومان ل قيل عنه مثل ذلك أيضا .. واذن فليخرج من بلاد لا ماضى لها ولا قوة ولا حول ولا طول .. فليخرج من شعب لا يعرف مجرد الكتابة .. ولا يزيد مكانه على بضعة ملايين .. ولا يملك من الثروة الا بمقدار ما يقيم أوده ..

فليخرج من هذا البلقع المجدب كل هذه الحياة .. فليخرج من هذا الضعف كل هذه القوة .. فليخرج من هذا الاحياد كل هذا الايمان .. فليخرج من العدم كل هذا الوجود ..

فحمد عليه الصلاة والسلام منذ ألف وثلثمائة عام وفي جزيرة العرب التي لم تكن تساوي شيئا بين الممالك والامبراطوريات .. محمد في هذا الزمن الذي خرج فيه وفي هذه البيئة، يحمل للعالم هذا التشريع الذي تثبت الايام

كأل كل مظهر من مظاهره .. وبهذا القرآن الذي تثبت الأيام صحة كل حرف فيه مع كثرة ما يعرض له من موضوعات وكثرة ما خاض فيه من علوم فلمقد تناول القرآن الفلك والجغرافيا والتاريخ وعلم الحياة .. وسجل نظريات وقرر قواعد والعقل البشري منذ ذلك التاريخ يعمل ويحتهد ويتكر ويخترع ويكتشف، وتطورت العلوم حتى انقلبت من النقيض الى النقيض .. ومن الميمين الى الشمال . فهل جاء العلم طوال هذه الحقبة بنظرية تهدم حرفا او تعدل حرفا مما جاء في القرآن على كثرة ما تناوله من المباحث الفلكية والعلوم الاخرى ؟ ..

اللهم لا .. فهل يمكن أن يكون ذلك من صنع بشر ؟ .. اللهم لا . وان سلمنا بأنه من صنع بشر أو لا يكون هذا البشر هو أعظم الخليفة طرا وأسمها مقاما ؟ فوجب علينا أن نصدقه في كل ما يقول وان نزل عند أوامره ونواهيه ، وأن نتعلم ما يعلمنا اياه .. ونرى ما يرينا اياه .. الحق ان ذلك هو الحق الذي لا مراء فيه ..

محمد رسول الله

ان عظمة سيدنا محمد تجعله فوق مستوى البشرية بلا مرأ . فهذا تاريخ البشرية جمعاء لا يوجد فيه رجل واحد نبيا كان أو رسولا أو عبقريا أو صنديدا قد أثر على الانسانية بكل هذا ووضع لها هذه القواعد الخالدة التي شيدت أعظم دولة عرفها التاريخ من القدم . وهي بعد ما زالت عاملة في نفوس ربعمائة مليون مسلم يعملون اناء الليل واطراف النهار للنهوض من كبوتهم واعادة مجد الاسلام ونشر لوائه على العالمين من جديد

وقد تقول ان المسيحية لها من الاتباع ما يربو على المسلمين ولكنك قد فهمت من غير شك في هذه العجالة السابقة كيف ان مبادئ المسيحية لم تعد قادرة على مسايرة الزمن الحديث فأصبحت التشريعات تخرج عليها وتعطل أحكامها . وهي بتعديلهما وخروجها على المسيحية انما تقترب من قواعد الاسلام

فالتاريخ بأسره ليس فيه انسان قد بلغ من العظمة والتأثير على البشرية مقدار ما وصل إليه سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام

اذن فقد وجب على العالم كله أن يجلس منه مجلس التلميذ يتلقن على يديه تعاليم الاسلام واسرار الكون ووحدانية الله . لان هذا العظيم البالغ منتهى العظمة لا يمكن الا أن يكون صادقا في كل مايقول .. ولا يجوز عليه الكذب باى حال من الأحوال لان الكذب منقصة وذميمة والعقل لا يتصور أن يتصف هذا الكمال الانساني الذى يتلخص في سيدنا محمد ، بهذه النقيصة التى تعيب الانسان العادي فما بالك بالانسان الكامل .. فسيد الخلق صادق من غير شك فاذا قال لنا انه رسول الله فقد صدق واذا قال لنا ان الله يوحى اليه فهو صادق . واذا يقول لنا ان القرآن هو من عند الله فهو صادق .. وهو اذا تحدثنا بالمغيبات فهو صادق وهو اذا تصور لنا الجنة والنار فهو صادق وهو اذا يفرض علينا تعاليم الدين باعتبارها اوامر الله فهو صادق .. هو صادق في كل مايقول وما يفعل .. ولا يوجد في البشرية بأسرها من يستطيع أن يرفع رأسه ليناقش أو يجادل أو يماري فما كان لعقل أن يرقى الى عقل سيدنا محمد . وما كان لحكمة أو نفس أن ترقى الى حكمة سيدنا محمد أو نفس سيدنا محمد فعندما يقول سيدنا محمد انه رسول الله حقا وصادقا فقد وجب على

البشرية بأسرها خصوصا في هذه الايام - بعدالف وثلاثمائة عام من بعثه - أن تؤمن بهذه الرسالة والنبوة التي أعلن صاحبها أنها ستكون خاتمة الرسالات والنبوات فصدق في هذه الدعوة .. صدقه في كل ما قاله أو فعله ..

فالبشرية التي كانت تتوالى عليها الرسالات كل عدة قرون وأنبياء بني اسرائيل الذين كانوا سلسلة متصلة الحلقات .. كل هؤلاء قد وقفوا عند حد رسول الله خاتم النبيين والصديقين .. فوالله لقد صدق رسول الله .. وتحمدي البشرية أن لا نبي بعده أو رسول بعده فانتصر، لأن الله يريد النصر ليعز كلمته وينشر لواءه على العالمين وليقطع دابر الكافرين وهكذا آمنت برسالة سيدنا محمد بوحى من العقيدة والعقل والتفكير وهتفت من الاعماق أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .. وركعت وسجدت لله خاشعا كما علمنا سيدنا محمد وناديت سبحانك يا رب لا علم لنا الا ما علمتنا ولا هدي الا ما هديتنا اليه ولا نعمة الا ما اسبغها علينا .

فسيدنا محمد هو رسول الله بعثه الله ليكون بشيرا ونذيرا بين يدي الساعة وليدعو للتي هي أقوم وليبين الرشد من الغي .. وليعرف الناس بربهم وليقود المفلحين منهم الى منازلهم في الجنة .

جهاد الرسول ومعجزاته

وسيدنا محمد وهذه رسالته في الحياة ، هو حبيب الله وصفيه .. وهو خليله ونبيه ومع ذلك فأى عذاب هذا الذى كابدته .. وأى مشاق تلك التي عاناها .. وأى اخطار تلك التي عرض لها في سبيل تبليغ الرسالة

وان الانسان لا يملك نفسه من الوقوف مشدوها ازاء هذه الآلام
المادية التي حلت بسيدنا محمد ولا يملك نفسه من القول سبحانه يارب
جلت قدرتك وتزهت حكمتك .. فلقد كان بمكنتك أن تجعل الدنيا
مسألة في طرفة عين بل أقصر .. فبحسبك أن تأمر فتطاع ولكن
لو تم ذلك لما تميز الخبيث من الطيب ولما تحققت سنتك التي أردتها لتكون
ولعبيدك الصالحين وهي أن يمتازوا فيما بينهم بالجهد والصبر والثبات والتعفف
كما تنزههم بعد ذلك منازلهم وتؤاخذ المذنب بما فعل واستعبد نفسه للشيطان
وتجزى المحسن قدر احسانه واتباعه ما أمرت وانتهائه عما نهيت

ولقد أراد الله ان يكون حبيبه ورسوله خير قدوة للناس .. كيف
يجاهدون وكيف يصبرون وكيف يكابدون فلا يترجعون .. وليكون
هو وأصحابه في جهادهم وبلائهم اسوة لمن يجيئون بعدهم .. وليكون
في ذلك معجزة آية معجزة تخلد على كر الدهور والايام ..
لو أن مهمة سيدنا محمد كانت سهلة في تبليغ رسالته .. اذن لفقدت
هذه الرسالة معجزتها الكبرى وهو انتصارها على كل ما وضع في طريقها
من عقبات

لو أن محمدا قال فصدق الناس اذن لما ارتفع الاسلام وعاش حتى
اليوم وخلد الى الابد لان كفاح الناس لسيدنا محمد هو برهان صدق
ومحك رسالته وخروجه منتصرا على حربه وكيدهم ، هو دليل تأييد الله له .
فقد كان سيدنا محمد أصغر بني قومه وكان فقيرا فقاموا عليه جميعا قومة
رجل واحد وانك لتعجب كيف أنهم لم يقتوه على كثرة ما دبوا له من
مؤامرات وما أحاطوه من فتن

وانك لتعجب كيف أن شعبا كان في هذه لحالة من الهمجية، قد وقف

عاجزا أمام سيدنا محمد فلم يقدر على تحطيم هذا الجسد الصغير النحيل مع
 رغبتهم القوية وعزمهم على ذلك . وانك لتعجب ايضا كيف كان سيدنا
 محمد يروح ويحيى ويدخل الى الحرم وسط خصوم وأعداء يتمنى كل واحد
 منهم له الموت وليس من يحاسب وليس من يخشى الله وليس من يرعى للحياة
 حرمة . ومع ذلك فقد عاش سيدنا محمد حتى تغلب على كل هؤلاء وانتصر
 على كل هؤلاء وأعز كلمة الاسلام . لا تستطيع أن تفسر هذه الظاهرة الا
 اذا آمنت بأن سيد الخلق هو رسول الله حقا وصدقا . وأن الله ساعة
 أن قال له « والله يعصمك من الناس » كان وفيا بعهده ومن أوفى من الله
 عهداً . فحماه ورعاه حتى قام برسالته .

كافح سيدنا محمد في سبيل تأدية الرسالة ثلاثة وعشرين عاما فقد بعث
 وهو في الاربعين وتوفي وهو في الثالثة والستين مدة كفاحه ثلاثة وعشرين
 سنه أمضي ثلاثة عشر عاما منها وهو في مكة شريدا طريدا لاناصر له ولا
 معين الا الله أما شر اذم المساميين فقد اضطرت أن تنجو بحياتها فرحلت الى الحبشة
 وبارحت مكة هربا بدينها وعقيدتها . عاش سيدنا محمد في مكة وحيدا
 الا من ايمانه . يرى في كل يوم ايداء قومه . فما وهن ولا أصاب عزمه
 الكلل أو الملال . وهذا وحده دليل رسالته وصلته بالله . فان أى انسان
 عادى لا بد وان يتسرب اليه ، أى انسان فيه ضعف البشرية
 ما كان يستطيع أن يقاوم ذلك كله طويلا . خصوصا وقد عرض أن يكون
 سيدا عليهم . عرض عليه قومه أن يعطوه من ما لهم حتى يصير اغناهم
 وارقاهم . عرض عليه قومه أن ينزلوا له عن بناتهم يختار منهم من يشاء .
 وعن بيوتهم يختار منها ما يريد . وأخيرا عرضوا عليه أن يكون ملكا
 عليهم يسير بهم الى المجد الذى يشتهيه وأن يصبح الكل له من الخدم

والعبيد: وذلك كله في مقابل أن ينزل عن دعوته بوحدانية الله فأبى وأثر
أن يعيش مهددا في كل لحظة فقيرا معهما الأمن إيمانه بربه ووحيه وإلهامه
ووالله لو لم يكن على صلة بربه وبوحيه لما قاوم كل هذه الأعاصير والزوابع
ولما زاد عليها بعد ذلك بقليل . . هذه الرسائل التي بعث بها إلى ملوك
الأرض طرا يدعوهم إلى الإيمان بالله وبرسالته في كلمات قلائل فيها نصاعة
الحق وقوة اليقين . فتخيل هذا العربي في بلاد العرب التي لا حول لها
ولا طول ولا مكان بين الأمم وهو يرسل هذه الرسائل لملوك الأرض طرا
وليس فيهم من لا يستطيع أن يدهم العرب بخيله ورجله ويقطع رؤوس
ابنائها جميعا جزاء لهم أن أخرجوا من بين صفوفهم من يجراً على الوقوف
منهم هذا الموقف ، فيدعوهم فيه للنزول عند دعوته ودينه . ومن عجب . .
لا . . ليس عجيبا ولكنه برهان صدق رسول الله . أن هؤلاء الملوك يتلقون
كتابه بالتكريم والأعظام . ويخشعون لرأى رسله وتلا آياته فيبيعون
إليه الردود الرقيقة ويشفعونها بالهدايا والخيرات إلا ملك واحد اجتراً على
أن يمزق خطاب سيد المرسلين وقد كان ذلك هو كسرى الفرس ما كان من
سيد الخلق إلا أن قال (مزق الله ملكه) وقد كان : فقد تمزق ملكه وكان
ممزقوه هم هؤلاء الذين سمعوا سيدنا محمد يقول هذه الكلمات .
أشهد أن محمدا رسول الله . . أشهد أن محمدا رسول الله . .

حياة الرسول مدرسة العالم

ثلاثة عشر عاما هي التي قضاها في مسكة ثم هاجر منها وليس معه
إلا رفيق واحد هو الصديق . حتى إذا بلغ يثرب شرع يؤسس دولة
الإسلام التي حكمت العالمين في الماضي . وستضيء عليه في المستقبل

ولقد أمضى بالمدينة عشر سنوات تدفق فيها هذا التشريع الكامل للجامع
والذى عرضت عليك لمحة منه فيما سبق . وما زال في النفس آيات من
هذا التشريع . أرغب في عرضها عليك ، لولا أن المقام لايسغنى والكتاب
يضيق بي . ولكنى أرجو أن لاتنسى الى مجوار ما حدثتك عنه من
مبادئ أن الاسلام قد دعا الى الشورى والتشاور فوضع نظام الحكم
الديمقراطي والبرلمانات فيما وضع من نظم

وفي المدينة قام سيدنا محمد بغزوات وبعث بسرايا . وعقد
محادثات وابرم معاهدات . وصادق وعادي . وهاجم ودافع . واقتصر
وسامح . واشتد ولان . وغضب ثم ابتسم . وفي المدينة تزوج
وتعددت زوجاته وفي كلمة لقد عاش سيدنا محمد حياة كاملة ولم يقبضه
الله الا بعد أن شرع بأقواله وأعماله في كل ناحية من نواحي الحياة
وكل ضرب من ضروب الفقه والتشريع والسياسة والحرب والعلم
والاخلاق . فحياة الرسول هي المدرسة الكاملة للبشرية جمعاء وهذه هي
المدرسة التي تتلقى فيها مصر الفتاة الدروس في كل يوم بل في كل ساعة .

وطالما يسألني الغرباء الذين يقابلونني لأول مرة . من . من العظماء قد أثر
عليك وأيهم يستهويك . . ومن الذى جعلته نبراسك وأمامك . أهو هتلر
أم موسوليني أم غاندى أم مصطفى كمال . . ولقد فات هؤلاء الساعلون
اننى مسلم أشهد أن محمدا رسول الله . . وأن من عرف سيدنا محمد حق
المعرفة أغناهم عن البشر جميعا . . وأن مدرسة الرسول هي مدرسة المجاهدين
في كل زمان ومكان . . فهو قد دعانا للتشبه به والنسج على منواله . .
والله يقول لنا « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » وسيدنا
محمد يدعونا للاقتداء بأصحابه . . فمحمد ومن معه قبلتنا وهم نشدتنا . .

قآذا خزبنا الامر هرعنا الى السيرة نتعلم منها ما يهديننا الى حل المشكلات
واذا أردنا التذرع بالصبر والثبات .. استوحينا ذلك من سيرته
وسيرة الاصحاب .

فسيرة رسول الله قبلتنا .. وسيرة من معه قدوتنا ونحن واصلون
بفضل تلك الهداية الى الذروة باذن الله .. الله مولانا ومحمد امامنا وقائدنا
والاسلام عدتنا .. ونحن في ذلك نقول ما نؤمن به .. فهل لنا الا النصر
ان شاء الله .

مصر الفتاة والاسلام

وهذه هي مصر الفتاة .. تريد بعث الاسلام من جديد .. ايماننا منا
بأن هذا البعث فيه خير لمصر وللمصريين .. وفيه سعادة للعالم وحاجة ..
وهذا هو جهادنا .. وماتلك الصور التي يعرضها عليك أخي وصديق
روحي المجاهد عبد الحميد المشهدي إلا هذه المدرسة التي تخرجنا منها والتي
نريدك بدورك أن تتخرج منها كذلك .. فنور الاسلام الصحيح يجب
أن ينفذ الى كل قلب كما نفذ الى قلوبنا .. وليكن ايماننا بالاسلام بعد
اليوم ايماننا مجددا يدفعنا من جديد الى تحقيقه ونشر لوائه .. ولترجع
روح الرسول لتسيطر على عصرنا الحاضر ولتستمد منها الالهام والمعونة
ولتنظر الى أنفسنا من جديد كأتباع يتلقون دعوة الاسلام في فطرتها
فنصل الى ما وصل اليه السلف الصالح عندما فتحوا الدنيا وسادوها
بالحق واليقين ..

لم نسجل على أنفسنا أننا في عصر لانستطيع أن نكون فيه مسلمين
مجاهدين .. ولم ، لانتطلع دائما الى صدر الاسلام ونحتذيه .. والا فلو

قلنا ان الاسلام لن يزدهر ولم يزدهر إلا في صدره لحكنا على الاسلام
بالافلاس .. وحاشا لله أن يكون الاسلام كذلك فهو في تجدد دائم
وشباب دائم وخلود دائم .. الاسلام دين عام خالد مبعوث لكل الناس
ولكل العصور ولجميع الممالك .. فطوبى لهذا الشعب الذي يتلقى رسالته
فينهض بها ويعتنقها كاعتناق المسلمين الاولين .. وسحقا لهذا الشعب ..
الذي يفرض في نفسه العجز والذلة والضعف فيقعد عن الايمان برسالة
الاسلام حق الايمان والجهاد في سبيل الاسلام حق الجهاد .

نراء

الى المسلمين اذن في أنحاء الدنيا تقدم هذه الصور من حياة رسول الله
ليعلموا كم قاسى وكم جاهد وكم صبر والذين معه حتي انتصر .. ولم يكن
ذلك خلاصا بالرسول والا فلو تخصص هذا الجهاد به فما كان أغنى الله عنه .
ولكن اختار الله جهاد الرسول ليكون قدوة للمسلمين على مر
العصور والايام ..

فهاموا من رقادكم أيها المسلمون القاعدون .. هلموا من سقطتكم
أيها المسلمون المتعثرون .. هبوا من أحلامكم أيها المسلمون النائمون ..
لم يغلبنا الغرب ولكن غلبتنا أنفسنا ورب الكعبة بتقلب شهواتنا
علينا .. لم يتحكم فينا عدو أو مستعمر ولكن حكمانا في أنفسنا لكثرة
ما فرطنا من أمر ديننا وعقيدتنا

لم تصبح مصر والشام والعراق وتونس وطرابلس والجزائر والمغرب
الاقصى حقولا للاستعمار والذل . الا لأن ابناءها قد خانوها وتهاونوا
في أمرها وقلبوا علي أنفسهم أعداء ..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْقَا ذَرَّةٍ فِي الْوَاقِعِ
فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي رُجَاةِ الزَّجَاجِ
كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ
زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيئُ
وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ
مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ
وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ



قال كبار المفسرين ان النور الثاني في هذه الآية
هو محمد صلى الله عليه وسلم : لهذا صدرنا الكتاب بها

729

وميفضل المحب ٢

يقع تحت هذا العنوان ما رواه المؤرخون
على لسان الاخبار والرهبان والكهنة عن
رسول الله قبل ولادته وما حدث بسبب
ذلك من المعلومات الدالة على نبوته وعظمته
حتى خرج في رحلته الاولى الى الشام
وتتحدث هذه الصورة عن اخبار كعب بن
لؤي جد النبي السابع بقرب ظهور الرسول
صلى الله عليه وسلم

ووقف الكهول يرقبون الافق بعين الاسى والضراعة . والقى
 الرعاة هراواتهم يأسا من السعى خلف الاعشاب دون جدوى وتناثرت بعض
 السائمة تدرج في بطء واعياء عليها تجرد ما يعوضها من فضلات الطعام
 وانبطح بعض آخر على الارض يجتر ما عساه يكون قد بقي في الامعاء . وزحف
 اليأس الى قلوب الامهات خوفا على ابنائهن لنضوب اللبن وقلة الزاد
 وراح الشيوخ يستسقون الالهة ويستزلمون الكهان كلما ضاقت حلقات
 الحياة واستشري شرها . وأخذ الشبان يروحون ويغدون كالسجين يسري
 عن ضيقه بالتمشي ذهبة وجياة، والكل في النهاية لا تحيد وجوههم عن
 محراب السماء . ينشدون الخير ويرقبون أقصى الافق . . . تداعبهم الطبيعة
 فتحجب عنهم عين الشمس . فيحني في صدرهم ميت الامل في نزول الغيث . ثم
 تزجي نحوهم طلائع السحاب . فيشهقون في فرح . ويشع في وجوههم السرور
 ثم يخيلهم عارض معتكر . فيتمم الشيوخ بالحمد . وتطير الصبيان من
 الجدل . ويحاول النساء كتمان الغبطة . فلا يستطعن ذلك فيترجمه احتضانا
 للرواضع وتقبيلالهم ولثما . .

ثم مرت السحب تحت سماء مكة وفوق رؤوس اهلها مرور البخيل
 الكاند ، والشحيح المعتم فاكتست وجوه الجميع بسواد الالم وانقبضت
 جباههم وتجمعت بالاسى . وانكشفت شفاههم عن بسمه لم تكذ تتمتع
 بضوء الحياة حتى فارقتها ذابلة مصفرة .

فعدا هذا الي كاهنه . وذاك الى ساحره . وثالت الى ضحية يسفك

دمها للآلهة . ورابع الى الوقوف بين يدي (هبل (١)) ضارعا
متوسلا أن ينزل عليهم الماء فقد هلك الزرع وجف الضرع وماتت
الاعشاب والمروج .

مر كعب بن لؤي بهذا الشئ من البشر لا تجمعهم عقيدة صحيحة
ولا تربطه شريعة سليمة .. وان الف قسوة الطبيعة بينهم . وربطت شدتها
بين قلوبهم وأفئدتهم . فصعد فوق الصفا ونادى .
يامعشر قريش ..

فاستفاق السكل على صوت قوي مؤمن . يبعث الرجاء ويحيى دارس
الامل . ثم يعمموا صوبه يجرون اقدامهم جرا . ويسعون نحوه في ضيق
وقنوط . فأخذ يدعوهم الى الله ويعظمهم كعاداته في كل يوم جمعة (٢)
ويستسقى بهم ويبشرهم بالنبي محمد ويقول من خطبة له :

أما بعد فاسمعوا وتعالموا .. وافهموا واعلموا .. ليل ساج . ونهار
ضاح . والارض مهاد . والسماء بناء والجبال أوتاد . والنجوم أعلام - الى
أن قال - الدار أمامكم . والظن غير ما تقولون .. حرمة زينوه
وعظموه . فسيأتي له نبأ عظيم . وسيخرج منه بنى كريم ، ثم أنشد يقول

نهار وليل كل يوم بحادث سواء علينا ليلها ونهارها
منونان بالاحداث حين تناديا وبالنعم الضافي علينا ستورها
على غفلة يأتي النبي محمد فيخبر اخبارا صدوقا خيرا
فبعثت خطبة كعب ماء الحياة الى هذه الاشباح الياسة . وأمدت
نفوسهم بالامل الرخي . وأنسهم أخبار النبي العربي وبشاراته ، ما هم فيه من

(١) كبير الاصنام بمكة

(٢) يقال انه أول من جمع الناس في يوم الجمعة وأول من سعاها بهذا الاسم

هم ومكد، وما لبثوا بعد ذلك قليلا حتى سحت السماء عليهم مدرارا
فقامت الافراح ومشى السرور الى كل منزل وناد، وذهبت هذه
الايات أنشودة على الشفاه. واهزوجة الذكري العاطرة باعراف النبي
المنتظر، الشادية بذكري غمام هذا اليوم وأمطاره الفيضة بالخير العميم بعد
الجذب والاخلال

— ٢ —

واحتشد الجميع شيوخا وشبانا خارج مكة في شاطئين مستطيلين من البشر
يتنا بدون بالالاقاب. ويتفخرون بالانساب. وينتظرون رؤية الجواد المحجل
والفارس المغوار، ويتمنى كل قبيل ويعمد من حوله أن سيكون الظافر منهم. فيكمل
هام قومه بتاج الفخر. ويلبس قبيلته وشاح النصر. ثم جاس الميدان
شاب فاراه الجسم ناهد الشباب ايذا نا يقرب ابتداء المباراة. فراحت ترمقه النظارة
بعيون الاعجاب. ويشير اليه بنو قبيلته بيد الزهو والخيلاء. ثم مال
أحدهم على زميله وقال هذا حكيم بن مرة أنهد فتى في خزاعة. وقد جىء
به اليوم حكما لهذه الحلبة... وما كاد يصل الى نهايتها. حتى أشار الى
الفارسين المتاهبين في الطرف المقابل بابتداء الشوط. فابتدأ الجوادان من نقطة
واحدة وشالت نعائمهما من مكان واحد فتراهما عن قرب نسرين خاطفين
وعن بعد فراشتين سابحتين في سحب من التراب لا ترى منهما الا طيفين
طائرين في الفضاء تحملهما عيون الحاضرين. ونحف بهما قلوبهم. وانغمى
كل فريق لصاحبه النصر. ولمنافسه الهزيمة والافخاق
دارت الحلبة دورتها. وتسابق الفرسان شوطا إثر شوط حتى تمخضت

(٢) تتحدث هذه الصورة عن اخبار الكاهنة (جراش) بقرب ظهور رسوالة

عن فارسين مجليين من بني بكر وتيم . وبفوز أحدهما على الآخر تنتهي دورة
السبق بالنصر والفخر لقبيلته . واذ ذاك ارهفت الحواس وحبست
الانفاس . وسكنت الحلبة على احتشادها حتى كنت تسمع دقات القلوب
التي في الصدور .

ابتدأ الفارسان متعادلين ثم بدأت (البكرية) تغادر زميلتها رويدا
رويدا . كأن يد القدر قد ارخت عنان الفوز للاولى في تؤدة . واخذت
تقبضه عن الثانية ، ثم امعنت (البكرية) في سبقتها وامعنت (التيمية) في
التأخر ثم زاد التقدم . وزاد التأخر ثم قاربت (البكرية) الهدف وزميلتها
لا تزال تتعثر في النصف الاخير من الشوط . ثم دخلت (البكرية) الهدف
وجاوزته قبل زميلتها فانطلق بنو بكر انطلاق الرعود العاصفة . يهتفون
لفارسهم .. مرحى .. مرحى .. (١)

بينما تقصدت جباه بني تيم خجلا . واستعرت صدورهم غيظا وحقدا .
وكأنما أراد القدر الساخر أن يمنح بنو تيم قسطا من الفرح المؤقت .
والنصر المزيف . فاعتدى الفارس التيمي على صاحبه بضربة قاضية ظنها
سائرة من هزيمته . مشفية من صدره . لخاص التيميون حيصة ثائرة .
وهتفوا لصاحبهم بدورهم . مرحي . مرحي . فغضب بنو بكر لهذا الاعتداء
المنكر وثاروا . وتألبوا وفاروا . وكادت تدور رحى معركة دامية
تطيح برءوس الكثيرين من القبيلين . لولا تداخل سفيان بن مجاشع
التيمي الدارمي . يعلن استعدادده لتقديم الترضية ودفع الدية حقنا للدماء
وحسبا للنزاع

(١) كلمة اعجاب : ترادف في المعنى كلمة براغو .. براغو الافرنسية

وخرج سفيان عند الضحى للقاء حى من تميم للتفاهم معهم على طريقة دفع الدية فالفاهم في دار (جراشع) الكاهنة يجلسون منها مجلس التلاميذ من استاذهم. تتكلم في اعزاز وتحدث في ثقة . والكل قد منحها سمعه ووعيه . وكف عنها شكوكها واغضي عينه . لا تجيب الا اذا سئلت . ولا تتعجل اذا اجابت وقد ترجىء الاجابة في أكثر ما تسأل فيه حتى يأتها قريبها الجني يسترق السمع من احاديث سكان السماء . فأعجب سفيان حديثها . وراعاة ائمة دها ورأفة أخبارها . فجلس اليها واستمع منها وهي تقول (العزيز من والا . والدليل من خلاه . والموفور من والا . والموثر من علاه)

سفيان - من تذكركم لله ابوك . .

جراشع - صاحب هدى وعلم . وبطش وحلم . وحرب وسلم . ورأس رزعوس . ورابض شمس . وماجن بوس . وماهد زعوس . وناعس ومنعوس سفيان - لله ابوك من هو ؟

جراشع - بنى مؤيد . قد أتى حين يوجد . ودنا أوان يولد . يبعث الي الاحمر والاسود . بكتاب لا يفند . اسمه محمد

سفيان - لله ابوك - اعربى هوام عجمى ؟

جراشع - والسماء ذات العنان . والشجر ذات الافنان . انه لمن محمد بن عدنان

* * *

خرج سفيان الى ناديه عند الكعبة معتم النفس ضيق الصدر لا يقرىء أحدا نحية . ولا يرد الى نديعه جوابه . وجلساؤه حوله ينظر بعضهم الي بعض في تساؤل ودهشة . ولكنهم لا يجدون الجيب

رفع سفيان رأسه من اطراقته وشخص ببصره صوب الكعبة كأنه يستجد بالآلهة ويدعوها، الى تفريج همه . والتنفيس عن صدره . واذا بعبد (هرر) يعدو في جذل ويثب في سرور . فأدرك ما جاء لاجله فشق سفيان شهقة النجاة . وشاع فيه سرور ساذج وبادر عبده بالسؤال عن جنس المولود . فقال له (هرر) في جنون الفرح : انه وحقك ذكر . فسجد سفيان في مكانه شكرا لنجاة زوجته وارثاقه بولد ذكر ثم صاح : — لا سمينه محمدا ياهرر ، عسى يكنه النبي المنتظر ، الذي تحدثت عن ظهوره كاهنة بنى مضر

— ٣ —

وطال بهم المقام في ظلمتين من يأس وليل . وأمست منازل اليهود ودور صناعتهم علي بعد خطوات منهم كجيش من الاشباح . الخيفة . أوصفوف من مردة الشياطين . لهما السكون بافئاع الظلام يرمونها بشرر الكراهية وينفثونها بزفرات الحقد . يملكون ناصية الثروة في « المدينة » فيعرضون أقشمتهم بسعر موحد . ويقرضون أموالهم بالربا الفاحش . ويشدون علي وحدتهم برباط التعاون والتضامن والاخاء . بما لا يدع لسواهم منفذا الى صفوفهم أو لقمة علي موائدهم . أو منتقما بين أيديهم . ثم عادوا يستذكرون أولادهم وما هم عليه من تحول وضعف وعري . وما ينتظرهم من ظلمة المستقبل وسوء المصير نتيجة لسياسة هؤلاء اليهود . وأساليبهم الاقتصادية في مضايقة من يجاورهم من الجنسيات الاخرى .. فضاقت أمامهم حلقة القضاء . واضطرب بهم اتزان الارض . واستحال اهابهم الى مرجل يغلي بهم في دماء من الغيظ

(٣) تتحدث هذه الصورة عن بعض ما ذكره أحبار اليهود عن قرب ظهور رسول الله

ثم تنفس عمير بن وائل وقال :

لم يبق هناك من الوسائل في مكافحة هؤلاء اليهود الا الالتجاء الى
(تبع اليمين (١) ابي كريب) . فما نحن الا أغصان من دوحته . وأفنان من
أصرتة (٢) ولا اخاله إلا كنيا منجدا . وغياثا كريما . يحمي البيضة .
ويرعى الذمار ، والا هلكنا وهلكت بين أيدينا الذراري الصغار

كعب بن فهر - ولماذا لا نعتمد على سواعدنا في مكافحةهم بمثل طرائقهم .
فلنتضامن كما هم متضامنون . ولنتعاون كما هم متعاونون . ولنصم عن
سلعهم التي منها يثرون وبها يمتارون . ولنستعص عنها سلع اليمين وبضاعة
الشام . حتى إذا كمدت سوقهم . وبارت تجارتهم بادلونا خيرا بخير
واحسانا باحسان

عمير - واني لشتيت الأوس . وجماعات الخرج مبعثرة هنا وهناك
أن تجتمع علي قلب رجل واحد حتى تستطيع أن تؤدب اليهود وتحد من
جشعهم . . على أن اليهود يعرضون سلعهم بأثمان زهيدة لا تقف أمامها
سلع اليمن والشام . والشراة أفقر من أن يحتملوا فرق الزيادة . بل هم كلفون
دائما باليمن الزهيد .

كعب - لعل جودة البضائع اليمنية والشامية هي التي أغلقتها . ورداءة
اليهودية هي التي أرخصتها . فالشراة حينئذ لا يربحون شيئا حين يقبلون
على بضائع اليهود
عمير - ليس الامر كما زعمت . فقد تكون بضائع اليهود أشد لجة .

(١) ملك اليمن

(٢) اصله

وأقوي سدي . ولكنه كراء (١) النقل من بلاد نائية الى (المدينة) هو
الذي أغلا بضائع الشام واليمن

* * *

وقف اليهود فوق الربا والآكام ينظرون الى معسكر (تبع اليمين)
تحت ضوء نيرانهم المتناثرة المترامية تتراقص أعناقها وتتلاهاث السننها .
والحميريون والحضرميون (٢) حولها يصطلون بها وينضجون طعامهم وشرابهم
عليها تارة .. ويشحذون سيوفهم لمعركة الصباح تارة أخرى . ويرتقون
ثيابهم ويشدون مناطقهم ثالثة . وأقطار الابل من (الاوس والخزرج)
تقد اليهم متتابعة متلاحقة تحمل الميرة والماء والذخيرة . . واليهوديين هذا
كله مأخوذون بنوبة الدهول . تعبت أصابعهم بلحاهم المستطيلة وتسلكها
طرائق في حركات لاشعورية . ثم ينظر بعضهم الى بعض . وعيونهم تتأرجح
في محاجر الحيرة والرعب . مما يخبئه لهم القدر . بعد أن أيقنوا أنهم
الهدف لهذه السهام . والطعام الاخير لهذه النيران

وما طلعت شمس الصباح حتى كان وفد من اليهود في ثيابهم المخططة
ولحاهم المستطيلة وشعورهم المرسلة في طريقهم الى معسكر « تبع اليمين »
وخلفهم بعض الابل تحمل اليه هدايا اليهود من أقمشة وعمر وزبد وأدم
وراحوا يسرون على قدمين من خوف ورجاء . لانهم اما الى فناء عاجل
ثمرة لغضب (تبع) عليهم من جراء سياستهم الغنيمة الجشعة . واما الى شفاعاة
ترد هذا الجيش الزاحف دون أن يثار منهم وينال من دمائهم
وأموالهم ومنازلهم

(١) الاجر

(٢) نسبة لابي حمير وحضر موت

وهناك أمام خيمة العاهل « تبع » وقف وفد اليهود - يضمون أطراف
عباءاتهم ويربطون على قلوبهم بأيديهم لشدة ما هم فيه من فزع وهلع -
ينتظرون الاذن لهم في الدخول عليه بين عاصفة اختلط فيها صهيل الخيل
برغاء الابل وامتزجت فيها عبارات الترحيب بأهازيج التسمية . وأصوات
الاستهزاء بصفير العداء . ونظرات الكراهية والتغامز . بإشارات
السخرية والتضاحك . وكلما اشتدت حواهم هذه العاصفة نظروا خلفهم في
سرعة خاطفة . ثم نظر بعضهم الي بعض نظرات الغيظ والقنوط من النجاة
يرفعون أرجلا ويعتمدون أخرى كأنهم على بركاب من الاضطراب
والياس . لا يخفف منه الا خيط من الامل ضئيل في مصالحة عاهل
اليمين واسترضائه

ثم أذن لهم في الدخول عليه متكئا في عريشه يبض من مفرقيه بصيص
المسك قد اضعج سيفه الملتوى علي فخذه التواء الافعوان . ووقف بين
كتفيه شبان سمر الوجوه كالرماح قدا . والاسود مظهرا ، وجلس عن
يمينه وشماله خاصته وحاشيته من القواد والرهبان . وما كاد يراهم حتى تذكر
ما روى له من خصالهم وأساليبهم القاسية في المعاملة والتجارة . فتفاعلت
نفسه وغلت بالحنق عليهم وصاح فيهم :

— والله لا أسوين الارض بكم . ولا أخضبنها بدمائكم . ولا جعلن
عالي منازلكم سافلها . ولا تركنكم مثلا للغابرين

ففزع الوفد من صوته . وارتعشت أيديهم لحدته . وطأطأوا رؤوسهم
لغضبه حتى كأنهم ينتظرون سيف الجلاد في صبر واستسلام
ثم جمع الخبر (شريح) شجاعته وتقدم نحو العاهل خطوة وقال :
— حفظ الله الملك ، فانه أجل من أن يطريه فرقه . أو يستخفه غضبه

وأمره أعظم من أن يضيق حمله ، أو يخرم صفحه . وهذه البلدة التي بيت
لها ما بيت . مهاجر نبي عربي

أصوات من حاشية الملك في فرح - نبي عربي ؟ ؟ !
شريح - نعم عربي منكم يبعث بدين ابراهيم عليه السلام
رئيس الرهبان - زه (١)
فانشد شريح يقول :

شهدت على أحمد انه نبي من الله باري النعم
فلو مد عمري الي عمره لكنت وزيرا له وابن عم
وجاهدت بالسيف أعداءه وفرجت عن صدره كل غم
له أمة سميت في الزبور وأمه هي خير الامم
ثم طأطأ شريح رأسه وأخذ يغالب عبرة تجول في محاجره كادت
تغلبه لولا أن بادره (تبع) بقوله وهل نشيجك هذا حنين الى هذا النبي
أورعب من المستقبل الذي ينتظر أبناء جنسك من جراء مطامعهم
ومضايقتهم لابناء عمومتنا من بنى الاوس والخزرج
شريح - لا . وحق الملك ما نشيجى رعبا ولا خوفا . ولكن لان في
هدم يثرب - ان صح - هدم لما أعتقد في وجود هذا النبي العربي الكريم
الذي سيبعث رحمة للعالمين بها . ولقد أنشدت فيه ملحمة طويلة ضمنها ما جاء
من أوصافه في التوراة اذ كر منها ما يحضرنى الآن لو شاء الملك ذلك
تبع - هات منها ما يحضرك مادام هذا النبي عربيا

شريح - ويأتي بعدهم رجل عظيم نبي لا يرخص في الحرام
يسمي أحمد ياليت اني أعمر بعد مبعثه بعام

ثم نشج بالبكاء وبكي معه رهبان تبع وجلساؤه . وأخذ الملك ينظر اليهم في تأثر وحنين

ثم تقدم (شامول) ووقف في مكان شريح بعد أن تخلى عنه صاحبه وقال : أيها الملك : ان هذه البلدة مهاجر نبي من بنى اسماعيل مولده مكة واسمه أحمد وهذه دار هجرته وان منزلك الذي أنت به سيكون فيه من القتلي من أصحابه وأعدائه أمر عظيم

تبع - ومن يقاتله وهو نبي

شامول - قومه - ينفسون عليه ويحقدون

تبع - وأين قبره

شامول - بهذه البلدة

تبع - واذا قوتل فلن تكون النصر

شامول - تكون له مرة وعليه أخرى ثم تكون العاقبة له وسيظهر

حتى لا ينازعه أحد

تبع - وما صفته

شامول - انه صاحب العمامة والهرامة . الجعد الرأس . الصلت الجبين

بين كتفيه خاتم النبوة على شكل بيضة الحمام نبت فيه شعرات وخيلا

ثم سكت وسكت كل من في المجلس . وطأ طأ تبع رأسه رضاء

بتصاريق القدر . ثم مسح رئيس الرهبان دموعه وقال

أرجو أن يسمح لنا الملك في البقاء بهذه البلدة . فانا قد اعتزمنا أن

لا نبارحها حتى ندرك هذا النبي أو يدركه أبنائنا بعدنا

فسكت تبع ثم قال

أفنى لكم طيب الإقامة ولكل منكم ألف دينار وجارية . واذا ظهر

بينكم فاذكروني عنده . وابعثوا الي بشأنه حتى أوافيه وأغسل عن قدميه .

- ٤ -

في الساحة الكبرى التي تقع أمام منزل عبد المطلب بن هاشم . وقف حرب بن أمية عن قرب ينظر الى هذه السلسلة المترامية من الابل وافدة الى مكة بفواكه الشام وأقشيتها الجميلة . وقد أخذ حداتها (٥) تنيخها أمام منزل (أذينة) التاجر اليهودي المعروف . فأضحت في مباركها محملة بالبضائع . كأنها تلال منظمة أوطراب (٦) متصلة متتابعة ، لولا رغاؤها وازبادهما يعلأ الجو صخباً وضجيجاً يزيد فيها هتاف قائد الركب باصحابه شابا فاره الجسم عريض المنكبين حديد النظر . حاد العزقة لا يهتف بأحد الا جاءه يسابق الرياح . ولا يأمر بأمر الا تم بأسرع من رجع الصوت .

نعم وقف بن أمية ينظر الى اتساع سلطان هذا اليهودي والى ثروته الطائلة تغدو مابين مكة والشام كالسحب المتلاحقة تحمل في تضاعيفها الماء وفي ثناياها الخير والعزة والرفاء ، ولم يكن بالامس الا ضيفا جاء الى مكة أبقا من المدينة يحمل زاد يومه . وكساء مخطط مرقوعا . يكاد أصله يختفى تحت رقاعه . فأضحى اليوم يحاور مسكنه مسكن عبد المطلب سيد بنى هاشم وحاكم مكة . وأضحت له كل هذه الثروة . وهذا الصيت البعيد . حتى أزال جاهه الحواجز الجنسية . ودكت وجاهته الفوارق التقليدية . ولم يكن بينه وبين الدخول الى لحمة المصاهرة مع أشرف العرب الا حوائل الدين الذي اشتهر اليهود بالتعصب لها . كما اشتهر العرب بالعناد فيها .

(٤) هذه الصورة تحدث عن بعض ايجاد عبد المطلب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم

(٥) جمع حاد وهو الذي يغني للابل في السفر فيخفف عنها متاع السفر

(٦) جمع ظرب وهو الجبل الصغير

فكيف يتثنى لمثل هذا اليهودي كل هذا الجاه بينما تعب الكثيرون دون الوصول اليه ؟ وكيف تأتت له كل هذه الثروة بينما قصر نشاط أكثر انشباب في قريش دونها . وهي ليست في الواقع . الا قطرات جمعها من العرب . ووجبات من ثروة قريش قد ضم بعضها الى بعض حتي كان نهر ثروته المتلاطم . في بلد ظاميء الى قطرة منه محروم من التطلع اليه

هذا ما كان يجول بخاطر حرب بن أمية وهو واقف يرمق هذه القطارات من الابل المحملة بعين تتقد غيظا . وصدر يتهب حسداً وحقدأ وكما حاول الانصراف من مكانه اراحة لنفسه استدعاه الفضول الى الوقوف ليتبين أصناف البضائع ويعد قطارات الابل التي بلغت فوق الخمسة آلاف يروح بها الحداة خالية . ويعودون بمثلها محملة . فكان كالواقف حافيا فوق جسر من الشوك ، أو كمن تحته أرض ملساء قد شوت الشمس وجهها . يرفع رجلا ويخفض أخرى

ثم استرعي نظره وقفة شاب باهر الطلعة . سامق العود . مشدوه الفكر . مبهور الانفاس . فظنه واحدا ممن يرون في اليهودي رأيه . ويحمل له مثل حسده وحقده . غير أنه لا يفلئ البضاعة . ولا يتفحص الابل . ولا يجول بنظره في الركب . ولكنه منذ وقف ، كالتمثال الشارد يعد كواكب السماء أو يتصفح وجه الأفق . تحتبس في عينه دمعة يدفعها الجوي المتهب والوجد الدفين . ويمنعها عزم الرجولة . وحزم الحياء . ويتلون وجهه بين الفينة والاخرى . بأصباغ الأمل المعسول وألوان الذعر من شبح الصد والهجران دون أن يدرك لهذا كله تعليل أو يفهم له شرح وتفسير الا أن يكون الشاب يستشف أمله . وينشد سعادته . ويستوحي رجاءه من شرفة اليهودي . وماذا في هذه الشرفة الا أن تكون كريمته (راشيل) التي

تغنت بجبالها الركباز . وذهبت فتنتها بعقول الشبان . ثم دار حوله ونظر صوب بصره فاذا بالامر كما زعم . واذا بالشاب الواله (عبد شمس) يدرك منه سر دورانه حوله . فاطرق في اغضاء واصطبغ وجهه بحمرة الحياء . فاشفق (حرب) على مشاعره وانصرف باسما . ولعلها بسمة جاءت في الوقت المناسب تنفس عن غيظه وتبرد من حقدته وحدثه . ولكنها . ما كادت تجف على شفته حتى عاوده الغليان من جديد . وراح يفكر في طريق الحصول على هذه الثروة بأي ثمن . ولائمن لها الا رأس (أذينة) اليهودي وليس له من أخ ولا ولد يدافع عنه أو يطالب بدمه وقد يكون عبد شمس ذلك الشاب الوامق أول من يرحب بقتله ويساهم في سفك دمه حتى يستطيع أن يظفر بحبيبته وينعم معها بثروته

وفي كهف من كهوف جبل (أبي قبيس) بالقرب من مكة اجتمع عامر بن عبد مناف وصخر بن عمرو وعبد شمس بن عبد العزيز بدعوة من حرب بن أمية للتآمر على قتل (أذينة) اليهودي والبحث حول النجاح طرق التنفيذ . ثم ابتدرهم حرب بن أمية قائلاً :

تعلمون أن (أذينة) هذا يهودى جشع وافي مكة فقيرا معدما . وأضحى فيها ثريا متخما . يتاجر بالغبن . ويساوم بالربا الفاحش وينافس تجارة بنى خويلد ويضع في طريق رواجها العقبات الجسام ويتداخل في شئون العرب لصلاته القوية بأشراف مكة . ويستعمل أبناء يعرب في تجارته خولا وعبيدا . فمن دمننا تجمعت هذه الثروة الطائلة . ومن جهدنا وعنائنا هذه التجارة الواسعة . ومن صباباتنا هذا البحر الخضم من مال وعتاد . وهو بعد لا يزال ينظر إلينا في زراية . ويرمقنا في هزة وسخرية . ولا يرد كل هذا علينا الا أن نضع حدا لحياة هذا

الرجل فترتد بضاعتنا إلينا . وفيء المال إلى أصحابه والمال إلى نصابه
عأمر — ليس هذا بالأمر العسير . ولكن يجب أن نقرأ في صفحة
العواقب قليلا قبل أن نخطوا الخطوات الأخيرة

حرب — ماهذه العواقب يأخاه . والرجل عجيذة دوحة لأصل لها
ولأفرع . اللهم الا هذا الشاب الفاره . (جداع) رئيس قوافله ورحي
تجارته .. وماذا يصنع واحد !! مهما أوتى من قوة وبأس

صخر بن عمرو — لعلكم نسيتم (راشيلا) تلك التي لها من أهداها
أثر السنان . ومن لحاظها فعل السهام في نفوس بعض الشبان

فأطرق عبد شمس حياء واحمر وجهه خجلا . وعرق جبينه من وقع
ما قيل وقد ظن انه موضع التعريض بما سمع . ولم يكن صخر في الواقع
يعلم من علاقة عبد شمس براشيل شيئا . غير انه كان يعلم انها في مكان
التنافس بين شبان مكة والطائف . وهدف قلوب محترق لجمالها عشقا
وتذوب جوى

حرب — انا لانجد كفا لراشيل بين الشباب الا فتى واحدا لعله بيننا
وانه لا يجد طريقا للوصول اليها الا جثة أبيها العنيد الذي يريد لها ابن
عمه (جداع) لتظل ثروته في أهله بعد وفاته . وانه ليشاركنا الرأي
ويقاسمنا الرغبة في القضاء على هذا الرجل . وسوف تسمعون رأيه
بالموافقة الآن قبل أن ينفرط عقدا لاجتماع

عبد شمس — حسبكم منى أن أكون على وفاء لكم . دون أن أغمس
يدي في دم الرجل

صخر .. اتنا لا نخشى (راشيلا) ولا « جداعا » ولكننا نخشى
عبد المطلب بن هاشم وهو على وفاق مع الرجل تربطهما أواصر الجوار

ولحمة الصداقة والجاه والثراء . ومثل أبى طالب لا يفتزع حماه ولا يهاجم كنفه . فكيف المصير لو كشف أمرنا واستغاث أهل الرجل به ؟
حرب - ها هو شهر رمضان قد وافانا ومن عادة عبدالمطلب أن يعتكف فيه بفار حراء يصوم فيه أياما ويدر منه علي المعوزين والفقراء الكثير من طعامه وماله . فاذا ذهب اليه واعتكف فيه لا يعود الى داره حتى ينصرم حبل الشهر ، فليكن القضاء علي الرجل في شهر رمضان حتى اذا ما جفت دماء الجريمة وفر المتسآمرون فانه لن تصل يد عبدالمطلب اليهم بعد ذلك ..

* * *

جلست راشيل في جوف الليل يضىء وجهها تحت طيلسان الحداد ويزوى نورها بنور ذلك المصباح المترنج في زاوية المسكان يحاكي أنفاسها المحترقة ويمثل عيونها المعتركة من آثار البكاء ويشبه نفسها الآسية وقد اعتمدت رأسها وراحت تفكر فيما عساه يصيبها من صروف وينتظرها من احداث بعد قتل أبيها وكرهاتها لابن عمها الذي يريد زواجها ، وبينما هي جاثمة كالشبح الهاديء . صافح أذنها حفيف ملابس وشهيق أنفاس تتردد في هجعة المنزل وسكون الليل فانتابتها رعدة قوة وعرتها هزات عيفة ظنا منها ان قتلة أبيها جاءوا يطلبون دمها بدورها فحاولت أن تصيح لا يقاظ من في المنزل ولكن رعدتها كانت بحيث لا تستطيع معها أن تفتح فمها كأنها في رؤيا كريهة أو حلم ثقيل لا تستطيع منه فرارا ولا تخلصا . لم تستفق منه الا على آثار يدين يحملان وجهها وعينين صوب عينها . ولم تكن هاتان اليدان الا يدي عبد شمس وقد كان قلبه يدور في صدره من روعة الشحوب الفاتن ويتبخر فؤاده نفثات ملتهبة تحت لؤلؤ العبرات الحزينة فلم

تقو يده طويلا على ماتحمل فتراخت به فهوت رأسها على صدره ودفنت بين ثيابه وتيمست أصابعها على منكبه وراحت تبكي وتنتحب، لا يدري عبد شمس أبخار الخوف المحتبس اساله برد الاطمئنان ؟ أم دموع الذكريات الالمية لفراق الوالد الحنون . أم عبرات الجوى برح به طول الشوق وأضناه الا انتظار أم شجون العجز عن نيل المنى وبلوغ الوطر تستثير بها عبد شمس وتحفزه للثأر والانتقام

فمسح عبد شمس على شعرها الذهبي يتألق في نورين من وجهها والمصباح ثم مسح على ساعدها الدقيق يمزق نوره سواد الحرير كضوء القمر خلف الغمام . وربت على كتفها وهو يهز تحت يده لدفع الزفير وجذب الشهيق ثم أخذ يتحدث اليها وكأنما يحدث نفسه قائلا :

- أليظما الانسان وهو على ورد ، أو يصيبه الحرور في ظل الحماة ؟ أو يشقى المحب في كنف الحبيب ... فردت عليه « راشيل » ووجها غارق في صدره العريض

- نعم هو ورد ولكنه معتكر ، وظلال وارفة والكتها في مهب السموم ، وحبيب ولكنه لم يبرهن على وفائه لمحبوبته

وما كادت (راشيل) تلفظ آخر حرف مما قالت حتى كان وجهها ثانية بين يديه . وعيناها صوب عينيه . تتقدان حمية . وتتلطيان غيظا فأدركت (راشيل) في الحال حدة ألفاظها . وقرأت في عينيه مدى عباراتها وشاهدت في تفاعيل وجهه وقع كلماتها . فلم تر ما تدرك به عن نفسها الا غزير دموعها التي راحت ترسلها لؤلؤا رطبا ، فصاح بها عبد شمس بصوت هادئ أجش :

- ما الذي يجعل الورد معتكرا والظل مسموما :

راشيل - ذلك ما أنت أدري به . وما تستطيع أن تجعله رحمة
وبردا وسلاما ...

عبد شمس - وما فائدة كل هذا الحزن . وقد وقع المقدور . وجف
الكتاب بما هو كائن ..

راشيل تنتفض كالنبوة الغاضبة وتحملق في وجهه وتقول :

- جف الكتاب بما هو كائن ؟؟ ! . وكيف يحف ولم نعرف بعد قتلة
أبي ؟؟ ! انه لم يحف بعد .. ولن يحف حتى نثار له بل لن تكون يوما لي
محباً وزوجاً حتى تضع يدي على أعناق هؤلاء المجرمين

عبد شمس - وماذا تصنع يدك الدقيقة الناحلة على عنق ثلة من الجبابرة
وأخذ يدها وراح ينظر اليها ويقلبها كأنه ينقد اللثاء . ثم هوي عليها
وقبل أطرافها .. فنضت يدها من يده بسرعة يمازجها الحياء المشوب بنزعة
الجد ... ثم قالت له :

- دع عنك المزاح يا عبد شمس فان هذه الاظافر أحد من مخالب
الاسد ...

فابتسم عبد شمس وقال :

- واين موضع الخالب من أعناق المعتدين ؟؟

راشيل - ذلك ما تعرفه أنت .. وأنت وحدك . فان لم تحدثني عنهم
كان هذا آخر لقاء .

فغاب عن الوجود في مكانه فترة كانت تتعارك زهاءها في خلد
عاطفتان وتصيخ مشاعره الى ندائين عاصفين . الاول نداء الوفاء لعقله .
والثاني نداء الوفاء لعاطفته . ثم ذكر عهده لجلسائه بالكتمان . وعهده لمحبوته
بالتضحية . ولكنه ذكر في النهاية أن بيت «أذنية» لا أصول له ولا

فروع . اللهم الا هذه الام العجوز والفتاة الناحلة وابن عمها الذي يزعم القوافل الى الشام والذي يراه منافسا له في (راشيل) ومن يستطيع من كل هؤلاء أن يمد أظافره الي عنق واحد من هؤلاء القتلة الذين يكونون مع أصولهم وفروعهم سلسلة بعيدة الاطراف من رجال أقوياء . وكما بهاليل . فما يضرنى لو بحت لها بأسمائهم ؟ شمتنا زهيدا لبضاعة غالية رفيعة هي (راشيل) التي ملكت على منافذ الحياة . وأبواب الرفاء والهناء

هذا ما كان يدور بخلد عبد شمس وهو واقف أمامها مطرق الرأس كالتمثال الخاني لمظهر من مظاهر الوجود الفاتنة ، الخاضع لأثر من آثار عظمة الله الرهيبة . بينما راحت (راشيل) تمعن في بكائها ونحيبها بعد أن رأت آثار دموعها وتمن نحيبها يرتفع مستواه . ويفعل في نفس حبيبها فعل السحر الذريع ثم غالب عبد شمس نفسه الموفية وقال

وهل تظنين يا راشيل أن قاتلي أبوك من يهود أو من بنى يعرب راشيل — من أبناء عمومك بلا شك . ولولا ذلك ما ألحقت عليك عبد شمس — وماذا يكون مصيرهم بعد أن تعرفينهم . وأنت تعلمين أنهم قد يكونون من دوحات كبيرة لا يثنى لها عنان ولا ترد لها شكيمة فسكتت راشيل كأنها تدبر شيئا أو تخفى امرا ثم قالت

— لاشيء أكثر من أن أعرفهم ، احقاقا للحق وتبرأة للبريء فانهم يشيعون انك قدأ كريت على قتل أبى ليخلو لك الجوفى ثروته وبنيته عبد شمس — وهل رابك منى ذلك

راشيل — حتى تقول الكلمة الحقة

عبد شمس — فى الحق ان حرب بن أمية قد أغرى على أيبك عامر

ابن عبد مناف وصخر بن عمر فقتلاه

فهرزت راشيل رأسها هزات هادئة ثم تارت وقالت

— الويل لهما من عبد المطلب

عبد شمس — صائحا — عبد المطلب ما خطبه ؟ !

راشيل — محتدة — اذا كان بنو عموتك قد استضعفوا اجاهنا واستضعفوا

شأننا . واستخفوا عددنا . فان وراءنا هذا السيد المطاع والحاكم العادل

والجار الوفي الامين . وقد آلى الا يطاق جنبه المضجع ولا يزور عينه الكري

حتى يعرف قاتلي والدى

فدارت الارض بعبد شمس . وأيقن أن تدبيرا فوق تدبيره . وأن

حسابا فوق حسابه . قد أعد لاخوانه السيف والنطع . بينما كان هائما في جمال

(راشيل) !! ولكنه تظاهرا أمامها بالفرح لقرب القصاص العادل من المعتدين

بينما اشتعلت نفسه بحرارة التأنيب والوخز على هذه الفعلة التي أطاحت برأس

شاين من خيرة الشباب في مكة من أجل يهودي

* * *

جلس نفيل بن عبدالعزيز جد عمر بن الخطاب مجلس الحكم بين حرب

ابن أمية : المجير لقتلة « أذينة » وبين عبد المطلب بن هاشم ثم قال :

يا ابن أمية لقد انتهى الى أنك تغالطت في القول مع صديقك القديم

ونديمك الحميم عبد المطلب من أجل هؤلاء الذين قتلوا « أذينة » وقد

انتدبني نجاشي الحبشة حكما بينكما . فعجبت لامرك تنافر رجلا هو أطول

منك قامة ، وأوسم وسامة ، وأعظم منك هامة . وأقل منك ملامة . وأكثر

منك ولدا . وأجزل منك صفدا . وأطول منك مددا . وأنى لأقول هذا

وانك لبعيد الغضب . رفيع الصوت عند العرب . جلد الميرة . لحبل العشرة .

والكنك نافرت منفرا

حرب بن أمية - من انتكاس الزمان ان جعلت حكما
 قيل - والسكنى وأبيك حكم برغمك وعترتك . فحسبك اغراء فتیان
 بقتل رجل حل بيننا ضيفا . فقابل الصنيع بخير منه . وقدر فينا حسن
 الجوار . ووالله لا نتركك حي تدفع لابن اخي الرجل مائة ناقة وأن ترد
 عليه مال « أذينة » الذي أخذت . والا قاتلناك برمتنا عليه
 حرب - أتقاتل ابن عمك من أجل يهودى .. ؟
 قيل - ان وفاء العرب أوسع من ذلك وان كرمها أفسح من أن يضيق بضيف ذرعا
 ثم دفع حرب بن أمية ما فرض عليه من النياق ورد بعض مال اليهودي
 الى ابن عمه « جداع » . ودفع عبد المطلب ما فقد من ثروة الرجل من
 ماله الخاص . وجافا صديقه القديم حرب وامتنع عن منادمته حتى مات
 وسنه مائة وعشرون سنة

- ٥ -

... وبكر عبد المطلب بن هاشم في الذهاب صوب (نائلة وأساف) (٦) وخلفه
 وحيداً الحرث . وقد كشف كل منهما عن ساقه وشمر عن ساعده وحمل
 معولا ومكتلين ، ثم توقف عبد المطلب عن السير فجأة بالقرب من
 (نائلة واساف) فتوقف الحرث بن عبد المطلب بتوقف أبيه وحط ما بيده
 على الارض كما فعل والده وان لم يكن يعلم سر ذلك التوقف
 ثم دار حول أبيه يطالع وجهه وقد قبض على لحيته بيده . وأودع
 الاخرى ابطه وحدق بنظره حول هذه البقعة الواقعة بين الصنمين . كأنه

(٥) هذه الصورة تتحدث عن حفر زمزم وما وقع لابن طالب بسببها

(٦) صنمان بمكة

يقدر مساحتها أو يتبين تربتها . أو ينتظر حدثا فوق رقعتها .
ولم يكن الحدث الا انتظار ذلك الغراب الذى جاء ذكره على لسان ملك
الرؤيا الذى قال لعبد المطلب (احفر زمزم . انك ان حفرها لاتندم
تراث من أهلك الاعظم . لاتنزف أبدا ولا تدم ، تسقي الحجاج الاعظم
مثل نعام جافل لم يقسم . ينذر فيها ناذر لمنعم . يكون ميراثا وعقدا محكم
اييس كبعض ما قد تعلم . وهي بين الفرث والدم . عند ثقرة (الغراب)
الاعصم ..)

وما هي الا لحظات حتى هبط الغراب الاعصم وأخذ يبحث في
الارض ليريه مكان زمزم . فشقق عبد المطلب شهقة الفرح بوقوع ماسمعت
أذناه . وتحقيق جميل رؤياه . ومد يده الى معوله ومكتله فحملهما . وفعل
ولده مثل ما فعل . وفرح بما فرح به أبوه . دون أن يعلم من أمره شيئا
ولسكنها الابوه الحانيه . والرجولة الحازمة والنفس الكبيرة . توحى
بالقوة . وتبعث بالمحاكاة دون تفكير أو تدبير . أو مراجعة وتأمل . ومن
أجدر بقوة النفس وحزم الرجولة وحنان الابوة من جد رسول الله قبل
رسول الله ؟

وحيث بحث الغراب الاعصم بمنقاره هوي عبد المطلب بمعوله وأخذ
يملا مكتله بالرمل والأتربة ليرفعها عن مكانها بمعونة ولده الحرث . وظلا يعملان
كذلك في الشمس المحرقة . والجو القاطط . دون أن يدركهما كل أو ملالة .
فالوالد يرى في كل ضربة بمعوله قتلا للظلم عن آلاف البشر . وفي كل
وجبة مما يرفع من أتربة . تحقيقا لأمر الذى هتف به في المنام ثلاثا
يشوقه بالفاظ لم يفهما حتى فسرهما له . وأخبره عن مكان زمزم . . . وفي
كل شبر يصل اليه وصلة وقربي الى الاله الذى يحبه ويقده ثم دع عنك

لذة النجاح في عمل قد يكون في نظر الناس ضرباً من الخيال . بل دع عنك
نشوة التغلب على الصعاب . والفوز باستخراج الماء في بلد هي أشد ما
تكون حاجة اليه ..

أما الحرث فلم يكن له من ضروب السعادة . الا ارضاء عاطفة حبه
لأبيه رسول الالهام الالهي . في حفر زمزم المباركة الخالدة خلود الزمن
الى يوم القيامة

وبينما كان المطلب يركع بعموله ويمتصب بمكته وولده خلفه يحاكيه .
كانت جموع قريش تمر بهما ثم ينظر بعضهم الى بعض نظرة ابهام وغموض
واستخفاف بهذا العمل المقطوع السبب . المجهول النتائج

لقد كانوا يعلمون بالتواتر عن بئر لا يسمون اسماعيل قد طمرها قبائل
جرهم في مكة واسكنهم يجهلون مكانها وأهميتها العظمي

فليت شعري هل هذه هي البئر التي يكشف عنها عبد المطلب .
أم غيرها . واذا كانت هي . فمن عساه يكون قد أنبأ بها . وقد ولد يتيما
ودرج في (يثرب) يافعا بعيدا عن هذه الديار فلم تكتحل عينه بأبيه الذي
توفي (بغزه) . ولم يستمع الى لحن الابوة . أو سمر البيئة حتى يعلم من
أمر هذه البئر شيئا

هذا ما كان يدور في رأس كل عربي يمر بعبد المطلب وولده أو يختلف
اليهما . حتى اذا لم يحظ واحد منهم بجواب علي ما يعتلج في نفسه من
اسئله . مضى الى عمله يأسا أو وقف بالقرب من أحد الصنمين متعبدا
أو متطفلا ..

وما راع الجميع وهم على مثل حالهم كالنحل حول خليتها غدوا ورواحا
الا صيحة داوية من أعماق حفرة غير عميقة تقول « الله اكبر » . فكانت

أول ما هزت أعصاب الحرث بن عبد المطلب الذي راح يدور حول الحفرة في جذل وسرور بحركات لاشعورية وهو يردد تكبيرة أييه كلما نظر الى الماء وهو يغور ويرتفع في إبطاء . يشرح له فضل الجهد . ويفسر له ما غمض عنه ولم يستطع مكاشفة أييه به .

وجاءت قریش من كل ناحية مثنى وفرادي وجماعات وتزاحموا حول البئر حتى كاد زحامهم يصيب عمل يوم كامل بالتلف

ووقف عبد المطلب وولده يذودان عن جهدهما يبدین مكسوتين بالطين والرمال ويتلقيان التهاني من أقاربها الاذنين . بينما أخذت وفود أخرى تنظر الى الماء ثم تنسحب واجمة ثم تجتمع زمرا خلف زمرخى ألغوا جماعة واحدة . تتلاقي شفاهاها وتتقابل أحاديثها . بينما عيونهم صوب البئر وحافريه . تتقد غيظا . وتقذح شررا . وإن تظاهر البعض بالاغضاء والاتئاد . ونصح بالترث والحكمة . ولكن هذا النصح لم يكن كافيا لاطفاء هذا الحقد دفعة واحدة فذهبوا الى حيث وقفوا أمام عبد المطلب وابتدره اكبرهم سنا وقال

نراك ذواذا عن هذه البئر في حرارة المستحمس يا عبد المطلب ؟ !

فأدرك عبد المطلب غرضهم . وأحس سر حقدهم . وقرأ في عيونهم غيظهم . فالتفت حوله ليرى كم من أهله يمنعه ويشد أزره اذا التحم بشائتيه فلم يجد غير ولده الحرث وبعض المتخاذلين فادرك ضعفه . وأحس حاجته الى السند والمعين فتوجه صوب السكمة وتغنى على الله أمنية لم ير البوح بها أمام أحد ثم التفت لمن حوله ورد على تساؤلهم ونهكهم بقوله :

— لأنى ربها ومالكها .

— ربها ومالكها !! كأنك نسيت أنها بئر أيننا اسماعيل !

- ولكن كما أن البيت لمن يدينه فالبيت لمن يطويه (١)
 — هذا اذا لم يكن للبيت مالك أو للبيت وارث . ولكنها ميراث
 الوالد الاول فهي لجميع أولاده فلك فيها كسهم غيرك وحسبك فضل الا يثار (٢)
 — هذا أمر خصصت به دونكم
 — وإنا غير تاركك حتى نخاصمك عليه عند حكم .
 — اجعلوا بيني وبينكم من شتم .
 — إلي كاهنة بنى سعد فلنحتكم
 — انها في مشارف الشام . وان بيننا وبينها أمداً بعيداً . وانها لسفرة
 تكلفنا غالياً .
 — ان حقن الدماء وسيادة الصفاء أغلى مما ترى وأعز .

* * *

هاهو عبد المطلب بن هاشم يتقدم الركب في وسامة البطل وطلعة
 الزعيم الصنديد رغم ما بينهم من تلاح وتشاد كأنه الحلقة الكبرى في
 سلسلة من الابل تتأرجح براكبها علي وقع واحد أو مجموعة من الدمي
 الكبيرة متصلة بسلك كهربائي يعمل بتيار موحد
 وقد يكون ركوبها أروح للجسم في تأرجحها وهزتها من زلزلة الخيل
 لولا خفتها وسرعتها ، فلا تسمع خلفها وقعا فوق بساط الرمل . حتى يخيل
 لك أنك فوق سفينة في بحر هاديء الامواج لا يزعجك تمزق شراعها بين
 أيدي الرياح ولا يثير معويتك اضطرابها فوق أعناق الحجج . وان كلفتك
 القليل من نوى التمر وأشواك السعدان .. تتلوي مع المفاوز أحياناً كحبة

(١) يحفره

(٢) العثور

رقطاع . وتستقيم أخرى حتى تصير كالرمح . ثم تنخفض كرة كسيول
 محتاجة سابقة ، ثم ترتفع أخرى بقوة انخفاضها هادئة لاحقة . فتراها
 هكذا عن قرب ثم تراها عن بعد كقطع الشفق الأحمر في ذيل السماء عند
 الاصيل أو كسلسلة من الجبال أصابها زلزال عنيف فبرز منها أعناق القمم
 ولما واقع الركب (يثرب) طافت برأس عبد المطلب ذكريات الصبا
 ومدارج اللهو وجولات السكره ومطارج الرماية التي طالما عقد له فيها
 على أصحابه لواء النصر ثم رفرت على رأسه ذكريات خاله (أبي سعيد
 النجاري) يوم خرج في ثمانين راكبا الى مكة لينتصفه من عمه (نوفل)
 ويحمله على تسليم منزل أبيه له . وكان هذه الذكريات قد أثقلت رأسه .
 فطأ طأها بعد أن أسلم مشاعره وأحاسيسه لاطيافها تتنازعه وتتناهبه وتزيده
 ايمانا بالحاجة الى كثرة الولد وتعدد النصير . فيكرر نذره الذي نذر تقربا
 الى الله لا يتحدث به الى أحد . ولا يهجنس به الا لنفسه الحبيسة التي
 لا تجد سلوة ولا عزاء الا في هذا الامل الذي نذر لتحقيقه نذراً غاليا
 وضحية كريمة . دونها كل نذر وتضحية

وما ان فارق عبد المطلب ومن معه أرض يثرب صاعداً نحو الشام
 حتى تفقد ماءه وماءهم فافتقدوه ولم يكونوا يعلمون أكان افتقادهم اياه
 لاستهلاكه ونفاده أو ثمرة لمؤامرة مندوبي القبائل الاخرى عليهم . غير
 انه لم يحفل بهذا كثيرا . وراح يستحث راحلته . يصاول الصحاري ويطوي
 القفار حتي يبلغ ومن معه الغاية قبل الحاح الظم واشتداد الحاجة
 الى الماء ولكن الطريق كان أطول من أن يطوى بهذه السرعة للفتلة
 وكانت الحاجة الى الماء أقرب من الوصول الى دار كاهنة بني سعد بمشارف
 الشام فذوي بهم الظم وأضنائهم التمس فخطوا رحالهم . ثم انتشروا فوق

الجبال والري . يرقبون طيرا حائما هنا أو هناك فوق عين ثرة . أوشجر
باسقا في هذا الجانب أو ذاك دليل الحيا (١) والحياة ، ولكن بصرهم
قد ارتد خاسئا وهو حسير فعادوا الى رُحاهم كاسفى البسال يراودون
الموت ويرادهم ويساجلونه ويساجلهم . بينما أخذ مندوبو القبائل الذين
معهم ينظرون اليهم نظرة الفرح والشماتة ويرقبون دنو الساعة الاخيرة
فيهم حتى يعودوا الى أوطانهم وقد أصبحت زمزم لهم وحدهم دون معاند
أو معارض أو مزاحم

ثم طلب عبد المطلب منهم أن يتكرموا بقليل من الماء . لاسعاف أحد
أتباعه به وقد كاد يشرف على الموت . ولكنهم رفضوا بين اصرار
وفرح بقرب ازال الستار على أول فصل في هذه الرواية ، فأيقن بعضهم
أنهم هالكون لا محالة في هذه البقعة الموحشه . وراح يقترح شق المقابر
لمواراة من يموت أولا فأولا .. لان الذين ضنوا عليهم بقليل من الماء
سوف يضمنون بمواراتهم التراب قبل أن تمرقهم انياب الوحوش

فثارت نفس عبد المطلب القوية على الاستكانة والرضوخ
لمقدمات الموت وصاح فيمن معه صيحة بعثت اليهم ديب الحياة . وأهاب
بهم الي مواصلة السير . حتى اذا كان لا بد من الموت فليكن في الطريق
الي من قصدوا مجالدين مستميتين

وما سار عبد المطلب ومن معه خطوات معدودة . وخلفهم مندوبو القبائل
يفسرون حركاتهم بالاحتضار واهزازاتهم ببلوغ الروح الحلقوم . وسكونهم
بسكرات الموت .

... ثم يعودون الي البحث في توزيع مامعهم ونصيب كل واحد

فيه بعد أن اطمأنوا على ملكية زمزم ودخولها في حوزتهم - حي راعهم
تكبيرة عاصفة . تخفت بجوارها تلك التي سمعوها يوم نبع الماء من بئر
زمزم . فبهت المندوبون . وفغروا أفواههم . كأنهم فوج من البله .
ووقفوا ينظرون الى ماء يفور تحت حافر ناقة عبد المطلب . جامدين في
أما كنهم كأنما تيل . ثم ذاب جودهم وتحطمت تعويذتهم حينما وافي
عبد المطلب بأقداح الماء لمن منعوه إياه في اصرار وغت وغم وجوده
ووفرته . فأكبروا منه ذلك وصاحوا به . والله لا نخاصمك على زمزم ابدا .
ون لك لشأنا يا عبد المطلب . فائن عنان نياقك وعد بنا الى مكة . وحسبنا
هذا غنية عن الذهاب الى كاهنة بنى سعد

* * *

امتلات نوادي قريش بأحاديث عبد المطلب وفاضت . وسارت قصته
مع من نازعه على ماء زمزم وفورة الماء له في الصحراء — مسرى الدهشة
والعجب . وزاد اكبار الناس لجد الرسول ونما . فكان لا يمر بحى الا
حيوه تحية ملؤها الاعظام . ولا يسير في افنية مكة الا محاطا بهالات
الاكبار . ومهبطا للقلوب والابصار ، مما ضاعف من مقام بنى عبد مناف .
واذوي ببنى أمية وقد بدأوا ينفسون على بنى عبد مناف رئاسهم ومنزلتهم
في قريش سيما بعد حادث زمزم العجيب وذيوله .

ولم يكن تفجر الماء تحت خف ناقة عبد المطلب في الصحراء بعد
اكتشاف زمزم في بلد كمكة تعيش في عالم من الخرافات والاهام .
ويغلو الماء فيها كأن من مافي الوجود

نعم لم يكن هذا التفجر يمر في قريش سريعا ويزول أثره خاطفا دون أن يترك
في نفوس الشائئين رواسب الكراهة والحقده . تتجمع عناصره وتتفاعل

آثاره . كما كان لحدث الناس في مكة وضواحيها الا قصة زمزم وما تبعها . محوطة بالتجمل والاحترام كلما مروا على أبي طالب يمعن في الحفر ويرفع وولده الرمال والأتربة . تمكينا للملكية لزمزم . وتسجيلا لمفاخرها المستقبلية يرثها عنه أولاده طبقا بعد طبق

فكنت لا تمر حول اساف ونائلة (١) حتى تجد ثلاثا من الأتربة الرطبة المستخرجة من زمزم وبجوارها تلالا من السكتل البشرية يرمق بعضها عبدالمطلب بالتقدير والحنو . ويرميه بعضها بنظرات الحسد والحقد تتابع الحناء واعتداله . وحفره وطيه . وعمله وراحته . وحديثه وصمته حتى لتكاد تعد عليه زفيره وشقيقه . وهم بين الفينة والفينة لا ينقشون عن التحدث بعضهم مع بعض حول ما اجتمعوا من أجله ثم استرعى انتباههم فجأة صوت اصطكاك الفأس بجسم صلب ذي رنين ساحر فالتفتوا فجأة نحو مبعثه : قالوا أبا طالب قد وقف ينظر الى ما تحت قدمه مبهورا والممول في يده . وولده الحارث ينظر من فوق كتفه بينما أبوه في الحفرة ثم رفع عبد المطلب فأسه وهوي به في رفق وهوادة فأحدثت نفس ذلك الصوت فادرك وادرك من حوله ان هناك سرا قد يكون مفرحا . سيما لمن علم من تواتر الماضي ان (جرهم) (٢) قد دفنت كنزا حول هذا المكان . ثم أقعى عبد المطلب وجلس على مقدم قدمه . وأخذ يزيل بيده طبقة من الرمل غير كثيفة تكسو صفائح صفراء ليست لامعة ولكن لو أنها يدل على أنها من معدن ثمين .

وما أقعى عبد المطلب كذلك حتى دفع الفضول بمن حوله الى التجمع

(١) صنمان بالقرب من الكعبة .

(٢) اسم قبيلة

حول البر يستطلعون سر هذا الصوت الذي أجلس عبد المطلب على هذه الصورة .. حتى أصبحوا كدائرة راحة محورها عبد المطلب . يدلون برءوسهم ويتدافعون بمناكبهم ويتطاول من خلفهم فوق اكتافهم ليأخذوا بنصيبهم من المشاهدة .

كل هذا وعبد المطلب يدور بيده حول هذه الاجسام تشبه أن تكون حيوانا ويتحسس بدايتها ونهايتها . وشكلها وهيولتها . واذا به يصيح بأعلى صوته .. الله أكبر ..

فعدت بهم الصيحة الى ذكرى صيحته الاولى يوم كبر عند ظهور ماء زمزم . فهبوا اليه سراعا . وتكتبوا حوله في مثل بنيان ضخمة علي شفير من الرمل تهاوي اجزاؤه ثم ترجع فتعلو ، وتتداعى اطرافه ثم تعود فتماسك ..

ولم يمالك عبد المطلب نفسه من شدة الفرح . فرفع شكلا لحيوان في يده قد تداخلت الرمال الى بعض أجزائه حتى شوحت معاملته قليلا . وأخذ يقلبه مأخوذاً بجماله ومعدنه . حتى لمح المران بن سيف .. وكان ذا شأن في العلم بمتواتر الاخبار لشهرته ومجالسته الاحبار والرهبان والاستماع اليهم فهتف بالقوم وقال :

- يا لقريش .. هذي كنوز (جرهم) يستأثر بها بن هاشم دونكم !!

فتدافع القوم حول البر وتزاحموا على حافته حتى كادوا يطعمون ماءه ويفسدون حفره أو يتدافعون على من فيه .. لو لا أن أخذ الحرث بن عبد المطلب يذود عن جهد أبيه ومجده والكل يطالب بحظه في الكثر أو يريد ان يتمتع برؤيته ليتعرف الي شكله ومعدنه الذي طرق منه .. وأبو

طالب ينظر اليهم في قلق وذعر أنسياه الفرح بما عز عليه . ثم تر كم يتصايحون
ويتزاحمون حتى كلت حناجرهم وتعبت ألسنتهم . ثم قال لهم :
- دعوني أعرف بقية الكنز ثم لنا بعد ذلك أن نحتكم في شأنه الى
القдах على أن يكون للكعبة قدحان ولى قدحان ولكم قدحان فن خرجت
قداحه على شيء أخذه . ومن تخلقت قداحه فلا شيء له
فشهقوا جميعا شهقة الفرح وزفروا زفرة السرور وقالوا :
- أنصفت ..

ثم راح عبد المطلب يبحث بيده الى ما وراء ذلك والكل يكادون
يا كلونه بعيونهم . خصوصا بعد أن عرفوا ان سيكون لهم حظ في كل
هذه المكتشفات . وراحوا يحيصون ويهللون . كلما استخرج عبد المطلب
شيئا جديدا . ثم غسل يده من حمأة البر . وجمع مستخرجاته فاذا بها غزالان
وأسياف وأدرع من ذهب . وكادت تقوم الحرب طاحنة بين الحاضرين
اختلافا على من يحمل الكنز الى منزل عبد المطلب . ثم ذهبوا الى الكاهن
الا كبر . وأخذ كل يمين نفسه بحجز من هذه الثروة المفاجئة ويطوف
بالالهة وينذ لها النذور ويتمهد بالضحايا . ثم دارت الاقداح بين دقات
القلوب الواهة بالذهب . الخافقة بالثروة المنتظرة .. فقضت بأن تكون
الغزالان للكعبة .. فتهدم نصف املهم .. ثم دارت وقضت ان تكون
الاسياف والادرع لعبد المطلب فالتامح وتبخر كل ما كان في صدورهم من
الامل الباقي . ثم أخذوا يرمقونها بعين التشهى . ويرمون عبد المطلب
باحداق الحسد والكرهية وان تظاهر بعضهم بالنباله والفرح له . ثم
انصرفوا الى نواديهم ومنازلهم كما ينصرف المشيعون بعد أن يواروا
فقيدهم التراب ..

ولم يرد حقدهم وحسدهم على عبد المطلب الا بعد أن رأوا الغزالين
الاسياف قد ضربت صفائح وسمرت على أبواب الكعبة شعار الاجلال
والاحترام بهاء لهاوزينة

- ٦ -

هرعت قريش من أنديتها على نشيج حزين وبكاء مفزع . فالفوا
عن بعد رجلا طويل القامة عريض المنكبين . رحيب الصدر وقف بين (أساف
ونائلة) حيث تنحصر الضحايا وتقدم القرابين . وفي إحدى يديه مدية
طويلة . وفي اليد الاخرى معصم شاب جميل الطلعة مشرق المحيا هادىء
لنفس . لاخطام ناقة ولا مقود شاه . فهاهم بكاء الشباب حوله وراعيهم
أمر الضحية الجديدة التى لم يألوا مثلها في مثل هذا المكان . ولم يسمعوا
بأمرها في الاقاصيص الاولى .. اللهم الا ما عساه يكون قد وصلهم من
أطراف قصة اسماعيل بن ابراهيم . وافتدائه بذبح عظيم . فنفروا
نحوه مثني وجماعات وما اقتربوا منه حتي عرفوا فيه سمة عبد المطلب بن
هاشم ولحوا في وجه الضحية إشراق ولده عبد الله أجمل أولاده وأصغرهم
سنا . وأسمقهم عودا وأحفلهم بالصحة والقوة والشباب . وقرأوا على وجوه
الباكين اسماء بقية أولاده وأخوة عبد الله الكبار ولم يكن بكاؤهم خوفا
من الموت وليسكن عطفنا وحنانا على أخيه الصغير . فابتدره المغيرة بن
نخزوم وقال :

— ما هذا الذى تصنع يا ابن هاشم

(٦) تتحدث هذه الصورة عن قصة الفداء وزواج عبد الله والد النبي ووله اسماء
كذلك بحاله ، ثم سفره بالتجارة ووفاته بالمدينة

— اضحى بولدي عبد الله قربانا اليه ووفااء بنذرى له

— ولم ذلك??

— لقد وقفت يوم زمزم بين عناد قريش ومساومتها فيما أمرت به في خفرها فشمنت من معاطسهم روح الاستخفاف بقوتي والاستهتار بقلّة أنصاري وكادوا يحولون بيني وبين زمزم بل بيني وبين الحياة من أجلها حتي كانت قدرة الاله العجيبة وارادته. فتمنيت على الله الاماني ونذرت له ضحية لامن الابل ولا من النعم أو الغنم . ولكن من أبنائي اذا هم بلغوا عشرة ذكور وشارفوا سنا يمنعوني عندها من الناس وها هو يبلغني بغيتي وينيلني بلغتي وها أنذا في اليوم بوعدى بعد أن أوقفهم جميعا بين يدي (هبل) ودارت القداح باسمائهم وأنبأت عن فدائهم ونطقت باسم عبد الله أعز أبنائي عندي وأحبهم الي نفسي ، ولكن محبة الاله غالبة ورضاء فوق رضاء العاطفة

— والله لا تذبحه حتى تعذر فيه . والا لا يزال الرجل منا يأتي بانه حتى يذبحه فان كان فداؤه بأموالنا فديناه

— ولكن الاله قد اختاره فدية وضحية ولا أرضى برضائه بديلا

— سيكون قبول البديل برضاء الاله أيضا . ولنذهب به الي كاهنة

(خير) لترى رأيها في ذلك

ثم عاد عبد المطلب ومن معه من لدن الكاهنة ، ونفسه لا تزال تجيش بعاطفتين عاطفة الواجب وعاطفة الحنان ولكن حزم الرجولة وقوة الايمان بالوفاء تأبى الا أن يمضي في نذره وأن يدير الاقداح من جديد بين ولده وفدائه بعشرة من الابل تزيد الي مثلها وأضعافها حتي يرضي الاله كما أشارت الكاهنة . وبينما يقوم كاهن (هبل) بعملية القرعة كان عبد المطلب

متوجها الى الله بسر لا يستطيع أن يروح به الا له، ولعل ذلك السر لم يكن الارجاء .
 الاله بقبول البدل عن ولده الحبيب . ولا يزال الكاهن يبدى ويعيد حتي
 كانت فديته مائة من الابل . فعاد ايمان عبد المطلب يغالبه على ذلك
 ويشككه في حسن النتيجة ويبعث فيه روح الاعتقاد بأن رفض البدل
 في عشر قرعات لا يغني فيه الرضا بمرة واحدة فلعلها تكون ثمرة لخطأ .
 أو نتيجة لصدفة ، فأمر بأجراء القرعة من جديد ثلاث مواعيت حتى يستيقن
 حسن القبول . فكانت الثلاث في صف الابل فسجد شكرا وعيناه تنهمر
 بدموع الفرح ثم أمر بنحر الضحايا لا يصدعها انسان ولا يمنع عنها حيوان
 فشاع السرور في كل مكان وراح بنو عبد مناف يهنئ بعضهم بعضا ،
 وأخذ أبناء عبد المطلب ينظرون الي أخيههم نظرتهم الي ملك هابط من
 السماء وفرحتهم بإيثار ضالة طال افتقادها . وسرورهم بمولود جديد كان
 في عالم الجهول منذ ثوان معدودة .

وشاء عبد المطلب أن يزيد في أفراح بني عبد مناف . وفي سرور
 بيته وأولاده ويرجع الى نفس ولده ما عساه يكون قد فارقه من طمانينة
 وهدوء . فتقدمه الي دار وهب بن عبد مناف سيد بني زهرة وسار ولده
 عبد الله خلفه مشكاة المهابة ومصباح المجد وكوكب الشباب . فبهر نوره
 أنظار النساء وأطاح بهأوه بقلوبهن ، فرحن يرمقنه بحفون ناعسة وعيون
 مريضة ويختلسن الحديث معه من خلف أبيه اختلاسا وهو يشير بسبابته
 فوق شفته رهبة من أبيه وحصانة لنفسه

ثم وقفن دون الحى يشيعنه بعيون سخينة وقلوب خفاقة وصدور
 مشبوبة . وأقاس لاهته . حتى دخل دار وهب سيد بني زهرة فكان
 شمس النهار قد احتجبت فجأة وخلقت الكون بعدها في ثياب الوحشة

والحداد فجمدن في مكانهن . وغرقن في بحر من الاحزان ترامت شواطئه
لم ينقذهن من بين أمواجه إلا جهرة من الشبان حولهن يتهايمسون
ويتغامزون فعدن الي منزل فاطمة بنت مشهور وقد أدركن أنه لا بد وأن
يكون حضور عبد المطلب مع ولده الحبيب الي منزل وهب لخطبة آمنة
كان الوقت حرورا يزيد في حرارته والنفار منه . لو اعج الحب وتباريح
الهوى والسكف بحمال عبد الله وبهاثة

لقد شغف به طفلا يدرج في أفنية مكة كالحماسة الوديعة ، ثم يافعا تشع
من اهابه نضرة النعيم . وطلائع الفتوة ، ثم شابا تلتقى فيه مخايل الجمال
بسماوات الجلال . ثم سمت منزلته ونما حبه عند فاطمة بنت مشهور حين رآته بين
الموت والحياة عند (اساف و نائلة) لم تأخذه فزعة الموت ولم تغير منه
رهبته تقطر من شفرة مرهضة أشهرها أبوه على عنقه وفاء بنذره
الذي نذر . كما لم يهبجه الخلاص من بين أنيابه بالقداء . ثم جن جنونها به
حين رآته شمسا وهاجة . وجاذبية أخاذة في الطريق الي بيت وهب بن زهرة
والد آمنة يخطبها أبوه له حتى لقد انقلب حبها له الي غيرة جائحة وحفيظة
دفيئة . وكراهية لكل ما حولها . فما حدثتها جارية من جواربها إلا نهرتها
ولا سألتها خادمة من خادمتها إلا أغلظت القول لها . ولا حاولت احدي
صويحباتها الترفيه عنها إلا أعرضت عنها ووجت لها مشدوهة مأخوذة .
ولا قدم لها طعام أو شراب إلا رفع كما وضع . لم تطف به عين ولم تلمسه يد
وباتت فاطمة ليلتها كما بات السليم المسهد ، واذا كانت أم قتال وعاتكة
شركاء فاطمة في حب عبد الله قد زار الكرى جفهن سريعا خاطفا . فان
فاطمة بنت مشهور لم يفارق خيالها وجه عبد الله كالرمع قواما . والشمس
أشراقا . والنسيم شفافية وانسيابا . حتى اذا أضنتها عوامل التفكير

وبرحت بها وطأة الشوق . هضت من مخدعها الي نافذتها تطالع وجه
 السماء وتطيل . كأنها تعد نجومها . ثم تسرح نظرها في الفضاء كأنها تتفقد
 أوتابيع خطاه ، ثم تعود الي سهومها . كأنها تتخيله نائماً فتتمنى أن
 لو كانت حجرتها أفق شمس ومطالع أنواره . وذراعها وسادته التي يضع
 عليها خده الاثيل . . وأهدابه المستطيلة . أعدها (١) التي تكتحل عيناها به
 ثم تعود الي مخدعها يعالجها النوم وتعالجه ويناوشها وتناوشه . ولكن
 هيات أن يغادر خيالها شبح عبد الله

* * *

طلع النهار على فاطمة كأسوأ ما تطلع شمس على محبة والهة . ووافتها
 الي بيتها شريكاتها في التوله بعبد الله وان حاولت كل منهن أن تكتم
 سرها عن الاخرى وتمت لو يخلو الطريق لها دون صويحباتها . وان كان
 لابد لعاتكة وأم قتال من أن تتخذا من دار فاطمة منتدي لهما ومطرحا
 لهواها لوقوع منزلها في طريق عبد الله الي بيت أصهاره وجاءت (بره)
 أمة فاطمة من الخارج تطير في ثيابها الفضفاضة لتنبئ سيدتها أن عبد الله
 مع أبيه وأخوته في المسجد وأنه لا بد وأن يمر أمام الدار في طريقه الي
 ييب وهب والد آمنة . فحققت لهذا النبأ قلوب ثلاثة . وطفت على الوجوه
 سحائب اللوعة تتغير بتغير نبضات القلب وخفقات الفؤاد . وتظاهرت كل
 منهن بعدم الاكتراث للنبأ . وان أخذن يطفئن ظمأهن المفاجيء بأقداح
 الزبيب وهن على شفا النوافذ يراقبن الطريق . وينتظرن الحبيب القادم
 في قلق واضطراب

أخذت تمر الثواني دقائق . والدقائق ساعات والساعات أياماً وأشهرآ ،

(١) كحلها

وهن لا يستقررن على حال من القلق .. حتى لمحت احداهن عبد الله مقبلا
في سرعة شابه واذا بصوت ساحر يفقه مما أخذ عليه تفكيره ولبه يقول:

يامسرعا والناس من حوله * لم يأن لغادر وراح
فالتفت يتبين مصدر الصوت ومبعثه . فألشدته الثانية من خلفه في
الحن الهزار وصوت الكيوان وقالت :

يامطرقا والارض من حوله * يزينا حسن الوجوه الصباح
فالتفت عبد الله نحوها . فاذا بالثالثة : تشدو على مسمعه كالزاهر وقعا
والحمام هديلا وقالت :

عرج علينا ساعة فعذ * سدنا ان شئت روح وراح
فوقف عبد الله محاصرا بين الحسان يشرقن بوجوههن . ويصدن
بأهدابهن وهو لا يدري من أمرهن شيئا الا ان تكون مؤامرة دبرته
بليل ويأبى الا ان يعرف سرها ونجواها فيهتف بهن قائلا .
ما خطبكن ??

فنظرت اليه عاتكة نظرة مغرية وقالت :
حيهل (١) فستعرف خطبنا عند اللقاء . ثم قفت عليها أم قتال وقالت
ومتى رخصت الاسرار حتى تنثر في الطرقات علي كل طالب .. اليها اليها
ننبئك بنبا عظيم

فوقف عبد الله حائرا بين المضي الى أهله ومطاوعة غريزته في التطلع
الي ما وراء هذه الانباء فأدركن منه هذا التردد . فأخذت فاطمة تردد
على مسمعه في صوت مسه الحب ونبرة شواها الحنان

عرج علينا ساعة فعذ * سدنا ان شئت روح وراح

فاستجاب عبدالله الي صوتها تطلعا الي ماوراء ذلك الاغراء ودخل الي منزل فاطمة . فهو ين عليه وغلقت الجوارى الا بواب خلفه ثم التفتن حوله هذه تمسح على شعره في رفق وانسياب . وهذه تمس يدها على وجهه نضرة النعيم . والثالثة تسرح عينها في قوامه من أخص قدمه الي مفرق رأسه وعبدالله يذود عن نفسه في دعاية ورفق ويجهدها ازاء عوامل التشهى والاغراء حتى يسمع نبأهن الذي صدنه بأحولته من عرض الطريق

ثم اختلت فاطمة وصاحبها هنية كانت الجوارى خلالها قائمات بتقديم أقداح الزبيب الي عبدالله . ولم تكن خلوتها بها الا رجاء دالعا . وتوسلا ضارعا في أن يدعنها وحدها مع عبدالله ارواء لظمئها واطفاء لشوقها ولها بعد ذلك ماشئن منه . ولم يلبث عبدالله أن رأي أمامه فاطمة وحدها في أجمل حلة وأبهر زينة . تتمشى أمامه متشاغلة بشأن ما . وتتبختر بالقرب منه علها تستطيع أن تثير فيه جنسيته . ولكنها لم تصب منه إلا الجد المتجهم . والحزم الصارم . ولما لم ينفع معه هذا الاسلوب من الاغراء . جلست بين حاجبيه وأخذت تحدثه متجاهلة ما تعرفه من أخباره تمهيدا لما تريد أن تجره اليه . وقالت له :

— من أين والى أين ؟؟

— من الحرم الي منزل الاصهار

— أصهار ؟ ! وهل صاهرت ؟ ومن هؤلاء الاصهار .. وعن بنيت ..

— وهب بن زهرة .. من آمنة بنيتها

— آمنة .. يالها من مجدودة سعيدة

— ولكن أما وقد دخلت يافتي دارنا فلا بد أن نصيب منك

وتصيب منا شيئا ..

— عبد الله - محتدا - شيئا؟؟ وما هذا الشيء

فاطمة - تتراجع - شيئا من قري

— عبد الله - لست ضيفا على هذه الديار . وما أنا إلا وليدها

وابن بجدها ..

فاطمة - ثم ماذا أنت صانع بعد الاعراس بآمنة؟؟

عبد الله - لعلي راحل الى الشام على رأس قافلة بني عبد المطلب

فاطمة - لست يا فتى أهلا لمرارة الاسفار وذل الاغتراب أقم عندنا

ولك من مالي ما تهوي وتحب . من فضة أو ذهب .

عبد الله - في مقابل ماذا استولي على هذا المال

فاطمة - في مقابل التمتع بوجهك الوضيء وشعرك الفاحم وقوامك

السمهري . ثم زفرت وقالت : نادمنى يا فتى وتحدث الى . فان في وضاءتك

ما يشعل صدري بنار الهوى وفي سواد جفونك . ما يحز في نفسي حز

المدى . وفي بسمه محياك ما أطاح بالكرى . وقرح منى الجفون

عبد الله - لقد أعرست وكفي ..

فاطمة - وما ضرك لو أعرست مرة أخرى؟؟ ..

عبد الله - وكيف أفجع آمنة ولما تذنب؟!

فاطمة - ولكنى أحبك وسوف لا أدعك دون أن تتال منى وأنا لا

منك . سيما وقد تهيأ المخدع وصفا الجو . وبلغ السيل الزبى

عبد الله : -

أما الحرام فلمات دونه والحل لاحل فأستبينه

فكيف بالامر الذى تبغينه يحمي الكريم عرضه ودينه

فاطمة - ولكنه الحب!! شريعة قاسية جامحة.. وان كنت أعرف في بي
هاشم الطهارة والنسك .

عبد الله - لا نسك ولا سواه .. دعيني الى أهلي وسأعود اليك غدا
فاطمة - على أن لا تنسي يا فتى ان وعد الحر دين عليه
عبد الله - ومثلي حر وابن جر

ثم يم عبد الله سريعا صوب آمنة فتلقته بالبشاشة والبشر . وراحا
يتحدثان حديث زمزم والقداء . ثم انتقلا منه الى حديث أرق وأشف
هو حديث المنى والاماني العذاب .. حتى نسي موقف فاطمة وصاحبتها .
وما صنعته معه من وسائل الاغراء وشدة ما هم فيه من جوي به وهيام
وشالت نعمة الليل وتبليج الصباح عن عبد الله مطرقا مفكرا فيما ارتبط
به مع فاطمة للعودة اليها . وهل يستطيع أن يتحلل من وعده معها أم لا .
وما لبث أن ألقى نفسه يتقمص ثيابه مأخوذا بجبل وعده لها حتى دخل
منزلها . وما ألقى عينها عليه حتى فترت نظرتها الحادة . وهدأت ثورتها
الجامحة . ونام صوتها العذب الساحر ينشد ألحان الهوى والغرام . فظن
عبد الله أن فورة الحب قد عقدت لسانها . وطول السهر قد أرخى جوارحها
ثم رأي أن يختبر ظنه الذي زعم فقال لها :

- أرايت يا فاطمة كيف ينجز حر ما وعد ؟ .

فاطمة - نعم رأيت .. ولكن لعله لم ينجز وعده . لقد شمت (١) فيك بالامس
يا فتى وضاعة لم أرها على وجه أحد . وبهاء لم يخالط صفحة انسان أما اليوم
فلا أدري بعد . أن قضيت ليلك مع آمنة أين ذهب . ثم أنشدت تقول :

اني رأيت مخيلة لمعت فتلاأت بجنا تم (٢) القطر

(١) رأيت (٢) السحاب السود

فسميها نور يضيء به ما حوله كاضاءة البدر
ورأيت سقياها حيا (١) بلد وقعت به وعمارة القفر
فرجوته فخرا يؤوب به ما كل قاذح زنده يورى
لله ما (زهريه) (٢) سلبت منك الذى سلبت وما تدرى

- ٧ -

عبد المطلب في المسجد وحوله بنوه يحفون به ، وكأنهم هالته النيرة
التي استمدت اشراقها من أضوائه ، وجاها من لمعانه ، وسحرها من
التفافها به ، واقتربها منه .

وهو في جلسته تبدو عليه طيبة نفس ، تمازجها قوة شكيمة ، وابتسامة
في العينين ، مخاطبها امارات حزم في تقوس الحاجبين ، على أنه اليوم كان
أرضى ما يكون نفسا ، فتبسط مع بنيه وقال :
— ويكم !! لقد اجتمعتم جميعا الا عبد الله . ألا سألتهم عنه ؟ .
وعرفتم ما خطبه :

فتضاحك الالبناء في احتشام ، فنظر اليهم أبوهم ، وحدث طويلا في حمزة وقال :
— ما بالك تحاول أن تكلم في صدرك كلاما . وعلى شفئك ابتساما
هل تعرف عن أخيك ما يضحك ؟ .

فعلا ضحك الاخوة ، وتردد لقهقهتهم في بهو المسجد صدى يبعث
السرور . وهل في الدنيا كلها منظر اكثر اياها جال للقلب ولا انعاشا للنفس من
الوالد وبنيه وقد تضاحكوا وتباسطوا وأحسوا بالحنان يغدقه الوالد ، والحب
يعبر عنه الولد بضحكه أو إيمائه بالانصات والتأدب

(١) مطر (٢) تقصد آمنة

(٧) تشرح هذه الصورة سفر عبد الله بتجارته الى الشام ، ثم وفاته بالمدينة

مرت على حمزة خلجة حيرة ولكن رأى في عيني أبيه ما يسر له الكلام فقال :

— أأست تسأل يا أبتاه عن أخي عبد الله ؟ .

فقال أبو طالب :

— نعم ! وما في سؤالي هذا من غريب .

فانفرجت شفتا حمزة عن ابتسامة عذبة وقال :

— لا غريب ! وإنما أخي عبد الله تؤوم الضحى لا يبرح فراشه حتى

تعلو الشمس في سماءها . وتخرج الناس الى أعمالها .

فضحك أبو طالب لانه لم ير في كلام حمزة نعمة الحقد علي أخيه أو الغيرة منه . ثم قال وقد حمل قضيبا في يده أخذ ينكت به الارض لا تأملا ولكن ليفرج بهذه الحركة من يده، عن شدة ما يحسه من بهجة :

— ومن منكم لا يطيل الراحة ولا يسرف في الاخلاص الى أهله وبيته

كلكم تؤوم الضحى . وما عبد الله بأسوأ منكم حالا

وفيم هم يتكلمون علي هذا المنوال بان عبد الله علي باب المسجد فأنجبت

اليه الانظار وهو مقدم نحوهم في مشية تجمع بين جد الرجولة وميعة

الشباب وقد لمعت جبهته بريق الفتوة فأحس كل من اخوته بحال وجهه

وصباحته وحلاوة تقاسيمه وفتنته ومرت بقلوبهم جميعا عاطفة الاعجاب

به ولو تكاشفوا لرأي كل منهم في قلب أخيه ما في قلبه . ولو نظقت

ألسنتهم لقالوا : ما أبدعه ! . ما أروعاه ! . ما أفنت رجولته ! .

ما أوضح قوته ! .

وما كاد يمثل بين يدي أبيه حتى حياه تحية التأدب والاحترام .

ثم نظر حواله الي اخوته فألقى سلام الصباح وفي عينه ابتسامة الحب

الاخوى . فردوا عليه . ثم أخذ مكانه بينهم فوجه أبوه اليه الحديث وقال :
— أتدرى يا عبد الله ماذا كان يقول عنك هؤلاء ؟ .. وقال هؤلاء
برنة المزاح والدعابة قتلت عبد الله حواليه وقال :

— ومن هؤلاء يا أبتاه ؟

فعلت لعبد المطلب قهقهة . افصحبت عن عمق رجولته وسموا أبوته وقال :
— هؤلاء هم هؤلاء .. أخوتك الذين يشنأونك وينفسون عليك انك
تمام فتسرف فيه وتستريح فلا تبارح الفراش حتى تصلى شمس السماء
أهل الارض بنارها .

فمرت بعبد الله فترة حرج وكأنه قد ضبط يقارف ذنبا يشينه وينقصه
فصفق أخوته بأيديهم تصفيقة الارتياح والابتهاج أن يداعبهم أبوهم هكذا
وقالوا معا فيما يشبه الصوت الواحد :

— هذا حق ... هذا صحيح .

فنظر أبوهم اليهم متكلفا الغضب مصطنعا الازورار . وقال في لهجة
تشبه لهجة الامر الساخط

— على رسلكم أيها اليوافع الماجنون . فما عبد الله بخلق بهذا المزاح .
يا عبد الله أريد أن أكلمك في أمر فانصت الي
فقال عبد الله :

— اني أسمعك يا أبتاه فعسى ألا يكون ما بدا لي من ضحك اخوتي
ذا صلة بعيدة أو قريبة بما ستفضي به الي

فعاد الي وجه عبد المطلب الجدد واكتست تقاطيعه بوقارها الذى
لا يفارقها وان اختفى الحين بعد الحين ، تحت ابتسامة تزينه وتقربه
الي القلوب ثم قال :

- يا عبد الله ! أنت تعرف أنك من قريش وأن أهل قريش خاصة قوم لا تغلبهم عواطفهم على أنفسهم ولا تذهب بهم نوازع قلوبهم الى حيث التلف أو البوار . وانك لتدري أن الواحد يخرج من بيته منتضيا رحمة ممتشقا سيفه ساعيا الى الموت وكأنه يسعى الى حبيبة القلب وطلبة القواد وان كان قلبه ينتفض بحرارة الشوق الى الزوجة التي خلفها وراءه وتركها في دارها ينوشها الهلع عليه ثم تتجمل فلا تبكي ولا تولول . بل تدعو الله أن يكتب له التوفيق والسلامة وأن ينزل على قلبها العزاء والسكينة .

فلمعت في عيني عبد الله أضواء قلق لانه لم يفهم ما يعنيه أبوه حتى لقد حسب أن خلافا دب الى قريش وغيرها من القبائل وأن أباه يستحثه الى أن يقف في صفوف المقاتلين مهونا عليه فراق زوجته آمنة بنت وهب التي زف اليها منذ عهد غير بعيد فساءه أن يكون من فتيان قريش ولا يعرف شيئا من أنبائها وآله أن يكون جهله بما يقع في حيه وما يصيب أهله وذوى قرباه . هو السبب الذي أغرى اشقاءه بالضحك عليه أو الهزاء به . ثم ظنهم يأولون هذا التخلف في الدفاع عن حمى القبيلة وذمار شرفها ثم زواجه الجديد بأمنة بنت وهب فاخفت في التو من عينه بوارق القلق ولمعت فيها أضواء العزيمة والكرامة الجريئة وكاد يقول :

— أين هو هذا العدد الذي تستحثونني للقيام ، وكأنه شيء مخوف .. والله لو كان يصرع ، لصرعته ولو كان يتحطم لحطمته .. يذهب فتيان قريش الى الموت في سلاحهم وانى لأقاتله بيدي .. أنا عبد الله ابن عبد المطلب . وزوجتي من بني زهرة .. فليست هي من الاماء اللواتي يخفن على بمولتهن الموت .. وان خفن عليهم تلف الرخاوة والضعمة .

نظر عبد المطلب الى ابنه ورأى في وجهه هذا القلق ثم رآه

يتقلص ويغيب ليحل محله غضب نائر فائر ، فعرف كل ما في نفس ابنه وكأنه يسمع حديثا واضحا يلقيه لسان فصيح . ولكنه تجاهل هذا كله ليري اخوة عبد المطلب أخاهم مثلهم ، شجاعة واقداما وميلا عن اللهو وأخذوا بالصالح من الأمور .. فقال :-

وأنت تدري يا عبد الله أن قريشا وأغلب أهل الصحراء من حضر وبدوا لا يعيشون وهم في بيوتهم وإنما لا بد لهم ..

فانفجر غضب عبد الله المكثوم . بعد أن غالب نفسه طويلا وصاح :-
— من قتال .. ! —

فدوى المسكان بالضحك ونظر عبد المطلب الى ابنه نظرة العطف والاعجاب وعاد الى كلامه بنبرة هادئة وقد زجر أبناءه بمؤخر عينيه أن اصمتوا ولا تضحكوا . فعادوا الى أديهم وانصاتهم .

— لسنا بحمد الله على أبواب حرب مع أحد . ولكنك لا بد أن تشن الحرب على هذه الدنيا . فالحياة عدونا ان لم نغزها بالسهر والسعي غلبتنا وانى لأراك جديرا بالفوز فيها والانتصار عليها .
فقال بعض اشقائه :

— هو ذاك !

فقال عبد الله بعد أن استراحت نفسه ولانت غضبته ثم زالت .
— وهل كنت تحسبني يا أبتاه تخلدا الى بيتي أبدا الآبدى . مستريحا الى حنان زوجتي الى غير حين . بل انى منك وفي عروقي دمك . والرحمة والتجارة وهاما تعنيه لست أكره هابل انى منطلق من قومي الى أصهارى بنى زهرة لأفصل على القافلة المسافرة الى الشام وأعود معها بما يجعل لي مالا ، أشرف به وتشرف به زوجتي وذريتي ..

فقال أخوه حمزة . !

— ونحن نعطيك عروضنا وسلمنا لتبيعها فيما تبيع وتمطنا جزءاً مما تبقى به تجارتك من ربح وتستبقى لنفسك جزءاً .
وأضاف العباس :

مر علي يا عبد الله لأعطيك بعض أبراد عدنية ثمينة تروح تجارتها في الشام رواجاً عظيماً ..
فقال عبد المطلب :

— مر عليهم جميعاً وانظر ماذا لديهم ، يدعونه لديك تتجر فيه وكلم أصهارك . ثم أعد نفسك للرحلة ..

فوقف عبد الله وكأنه الرمح الممشوق وانطلق كالسهم المارِق ، وفي خطوته ما يصيح : لقد عزمت . ! لقد عزمت . ! لقد عزمت . !
وفيم هو يختفي صاح به أحد اخوته

— مر علي داري وخذ منها شيئاً من زيب الطائف . فلم يجب عبد الله ، وكأنه لم يسمع شيئاً . أو كأن الريح أخذت هذه الصيحة فبددتها

* * *

جلست آمنة بنت وهب ، زوج عبد الله في بيتها ، وحولها نساء كثيرات ، جئن جميعاً وقد لاحت في وجوههن ، علام الفرح والارتياح فتكلمن كثيراً وقصصن على عادة النساء كل ما يحضرهن من أقاصيص . توحيا المناسبة . أو لا يدعو اليها الاقتضاء علي السواء بلا تفریق أو تمييز . وكان من بين النساء ، امرأة هادئة ، لا تدري سر سكونها وسط هذا الفرح ، ولا علة صمتها ، والناس فرحون مرحون . إلا أن يكون أصابها شيء .

ولست تستطيع أن تعرف ما يدور بنفسها ، إلا أن تعرف أنها
« سمراء » زوجة عبد المطلب ، وأنها أم الحرث ، وإن ابنها الحرث
قد مات ، وأنها لذلك شكلي خف حزنها على مر الايام وبقي منه صمت
وأطراق . وهدوء واستسلام لقضاء الله .

ولقد رأت سمراء - في يومنا الذي أحدثك عنه - النساء فرحات
مغتبطات . لأن قافلة الشام عادت ولهنّ لاء النسوة أبناء في هذه الرحلة .
وأزواج وأقارب . فذكرها ذلك بابنها الحرث ، الذي لو كان حيا .
سكان من بين العائدين اليوم ولما كانت هي من بين الفرحات المغتبطات

وقد كان أشد النساء فرحا واغتباطا « هالة » أم عبد الله ، وزوج
عبد المطلب لأنها تعلم أن ابنها سيعود اليها وكفى بهذه فرحة لقلب الام
ولأنها تعلم فوق ذلك أن ابنها سيعود ومعه ما جناه من رحلته هذه من
مال ييسر له العيش . ويجعل حياة زوجته أكثر متاعا ونعما . ثم
لأنها تعلم أن ابنها سيعود الى زوجته الجميلة الفياضة بالحنان والرحمة .
وأنه سيجد في ظلها . ما ينسيه وعناء السفر . وما لقيه في الفيا في الطويلة
الموحشة من تعب وعطش وجوع وخوف فيلقي بين يديها بكل الذي جمع
وتلقى في فؤاده بكل ما انبثق فيه . من حبه وعطف عليه ..

تصورت هالة ابنها وقد خلا الى زوجته . فأخذ يقص عليها ما رأى
في الشام من أنهار وحدائق وبيوت ومدائن . ويصف لها الليل في القدافد
وتصف له ما ستطير له فرحا

نعم ستقول له اذ يعود في خفر وحياء .. إن عندها له هدية عظيمة
فيسألها وماذا تكون ؟ فلا تحيب . فلا يزال بها حتى يذهب عنها حياؤها
فتقول له ان في بطنها حياة جديدة تتحرك . ان في بطنها جنينا . فيمسك

برأسها بين يديه م يقبلها . ويقبلها . ويتمنى لو استطاع أن يجمع لهذا الولد
الجديد الوفا والوفاء من الدنانير وغوالي السلع ونقائسها .

مرت هذه الصور جميعا برأس (هالة) فانتفضت فرحا وقفرت
سرورا وصعدت الى ظاهر البيت لترى القافلة في أوتها فرأت على بعد
أشباحا تروح وتغدو . لم تكن القافلة . وإنما كانت شباب قريش الذي خرج
يستقبل القافلة ويسأل عنها قبل أن تصل الى مكة ..

أما سمراء فجلست الى جانب آمنة . تقول لها (لا تكثري من
الحركة فان في بطنك جنينا) فتطيعها آمنة وتقول لها (واءعجبى !! من هذا
الجنين . النساء يحملن فيتعبن . وأنا أحمل . فلا أحس بشيء . هل أكون
واهمة يا أمه ؟) فتطمئنها سمراء وتقول : (أمرك عجب ولكن لاريبة في
انك حامل) استمر فرح النساء وصخبهن ولكنهن لم يلبثن حتى هدأن
وكان مرحهن كان نورا . فانطفأ بهبة من ريح عابرة .. ولم تكن النسوة
علامات بسر وجوههن المفاجيء . ولكن شيئا ماء عقد السنتهن . فذهب
كل منهن الى ناحية في الغرفة وكأنها تحمل معها حزنها بعيدا . بعيدا
ولكن سمراء لم تلبث ان اقتربت من هالة أم عبد الله . وسألتها
ما الخطب ؟

فاجابت هالة . وقد ابيضت شفتاها وارتجفت يداها واربض جبينها
فأصبح كالبحر الذي ثارت غضبته بعد صفاء وسكون . فأمشكت سمراء
بيدها وقالت :

— هدئي نفسك وقولي ما الخطب .. !

فتململت هالة وكأنها تجالذ وقالت : عبد الله ...

فصرخت سمراء : كيف ؟ تقولين عبد الله ؟

فاختنقت هالة بالدموع وقالت : مريض .

فاستراحت سمراء قليلا وقد كانت نفسها صافية لا تحقد ولا تغار .
فلو كان غيرها في مكانها لافرحتها هذه النكبة . ولكنها كانت قد تفضت
يدها من الدنيا منذ مات ابنها الحارث . فما عادت تفعل كما تفعل النساء
الآخرات . يكدن لضرتهن ويشتمن في مصائبها . صحيح ان هالة هي
ضرة سمراء . ولكن سمراء كانت فوق طبيعتها أشد ما تكون عظفا على
آمنة . ومن هنا كان هلعها عظيما أول الامر حتى أدركت أن تخلف عبد الله
عن الرحلة كان بسبب المرض لا الموت . ذهبت الي آمنة وانتحت بها
جانبا . وكتبتها طويلا ...

وكانت آذان آمنة منصتة لما تقول سمراء . ولكن عقلها كان بعيدا
عن مكة وعن سمراء وعن النسوة اللواتي أخذن ينصرفن الى بيوتهن
وكانهن يحملن معهن سرور آمنة حتى اذا خرجت أخراهن شعرت آمنة
بأن الدنيا ضاقت في وجهها حتى كادت تنطبق عليها . وانها وحيدة لا مؤنس
لها ضعيفة لا عائل ولا حامي ... فانفجرت باكية وأسامت رأسها ليدي
سمراء التي طوقتها وقبلتها وهي تقول :

— لا عليك يا ابنتي .. ! لا عليك ... فعبد الله سليم معافي ...
وعبد الله سيعود اليك . ولكنه الحب والشوق الذي يعظم لك الامر
ويسبب لك الخوف ... »

وفي هذه الدقيقة اضطربت أحشاء آمنة . فتذكرت أن في بطنها
جنينا وأنها تفسان لا نفس واحدة . فاذا الحزن قد زال والألم قد انتهى ...
وإذا أمل جديد ينبثق في قلبها فتري عبد الله — على حدائته — يعود
اليها . فيقص عليها أنباء رحلته . وتقص عليه أنباء شوقها

خرجت سمراء من بيت آمنة وقلبا يتقطع لحزنها ونفسها تذهب عليها
حسرات . وقد كان حزن سمراء يتضاعف كلما ذكرت أن آمنة يتيمة وأن
عمها كان هو الذي يكللها قبل زواجها . وأن اليتيم والترمل اذا اجتمعا
كانا أقسى من أن تحتملهما نفس فتاة لا تزال في مطالع حياتها وان زفت
الى زوجها وحملت منه ولم تكذ سمراء تخطو خطوات قليلة حتي رأت
« مرشد بن خزيمة » وقد كان ممن عادوا مع القافلة . فنادته وكان من
ذوي قرباها .

فتوقف ثم نظر خلفه فرأى سمراء فعاد اليها ..

فحيته وسأله كيف كانت القافلة . وكيف كان عبد الله فيها . وكيف
صحته حين تركوه فاطرق مرشد قليلا وقال :

— يا عمه ! أهيكم أمره ؟

فاجابت :

— وكيف لا ! أليس هو زوج آمنة :

فجرت في عين مرشد سحابة شك وقال :

— ولكنه ابن ضرتك .. وما أعرف ماذا تكون آمنة منك

— أما آمنة فهي كالابنة مني ، أما هالة أم عبد الله فلقد أذهب

الله غضبي عليها منذ علمت انني في أخريات أيامي .

— اسمعي يا عمه ! ان عبد الله لن يعيش طويلا . لقد تركناه في

يثرب عند اخواله من بني النجار . وإني لاري قبره بعيني وانا احداثك !

— فلطمت سمراء خدها وصاحت :

— قبره ... أهومات .. ؟

فأجاب مرشد :

— لم يمت .. ولكن حاله لا يمشى بخير ، فقد حملناه الى دار أخواله وهو بين أيدينا كالجذرة .. كانت الحمى تهزه من منبت الشعر الى أخمص القدم وانى لا ذكره الآن . واذكر عيونه الجميلة الكحلأ . وهما يدوران في وجوهنا . وكأننا تودعان الصبح والحياة ... بالجمال وجهه . وجمال نفسه اخلق بالعداري أن يقبلن تراب قبره . فقد كان جماله يسرى الى كل ما يشككه .. أو يمسه ..

ولم يكن مربد كاذبا فى شيء مما يقول .. فلقد حمل الناس عبد الله الى مقره الاخير في بيت النابغة الجعدي وانطفأت أنوار هذه العيون التي كانت تودع الصبح والحياة حينما اشتدت وطأة الحمى وزاد لهيبها .. ؟

- ٨ -

« خرجت من نكاح . ولم أخرج من »
 « سفاح من لدن آدم الى أن ولدتنى أمي »
 « لم يصبنى من سفاح في الجاهلية شيء »

محمد رسول الله

استيقظ عبد المطلب بن هاشم على قرع باب الكبير يدوي صدها في هجعة الليل وسكونه فظنه أول ما استفاق طنين حلم أو وقع رؤيا طارت معالمها عن خلد له ولما تم فصولا ، غير أن الطارق عاد الى قرع الباب من جديد في شيء من العنف حتى بلغها آذان الناعمين قوة داوية . فأدرك عبد المطلب انه صوت الحقيقة لا طنين الرؤيا ولا همس الخيال . فنهض من فراشه وأطل من نافذته المشرفة على الباب دون أن يوقظ أحدا من العبيد أو الخدم . ثم علم أن الطارق هو (فاره) خادم بنى وهب سيد بنى

النجار وان نبأ خطيرا واحداثا مفاجئا هو الذى جاء به (فاره) في مثل هذه الساعة ، أو لعلها بشرى مولود. جديد لولده الحبيب عبد الله يحمل ذكراه ، ويملاً فراغه ويبرد جواه . سيبا وهذا شهر ولادته . غير اننى كنت في بيت وهب منذ أيام وجالست آمنة زوجة ولدى العزيز البعيد الغريب ، وحادثتها طويلا . فلم تنبئن بشيء من آلام الحمل . أو اعراض الوضع القريب . بل لم يظهر عليها ما أحس معه شعورها بتوعلك الصحة أو الضجر من قرب النفاس ؟ ! ولكن لعلها فتاة صبور قوية جلدة أو لعلها تكافح اباءا . وتتافح استحياءا . . والا فما هذا الذي يدعو الى ازعاجى وايقاظى في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل . الا أن يكون خطبا جللا ورزءا جسيما أرجو بحق البيت وصاحبه ان اجنب شره . وأتسكب رداه

هذا ما كان يحدث عبد المطلب به نفسه وهو يستعد للذهاب الى بيت وهب تلبية لرغبة آمنة حين وضعت محمدا صلى الله عليه وسلم . . . ثم سار عبد المطلب الى بيت وهب وخلفه الخادم (فاره) على قدمين من خوف الخطوب . ورجاء في أن يبشر بمولود . مطأطيء الرأس مأخوذ الفكر وكان يمكن أن يريح نفسه من الوسواس ووطأة الهواجس بسؤال الخادم عن سر حضوره ، ولكنه رأى أن لا يتمجل الحوادث وهو لا محالة ملاقيها شأن كل صنيديد قوي النفس . ثبت الفؤاد

وما أن عم حتى كان أمام منزل أصهاره فاستقبلته أعراف هي فوق الغبر والمسك جالا ، وأنعشته اشذاء لم تتفتح خياشيمه على مثلها طيبا . وغالبته أنوار لم تقو عينه على سناها . وبهرته أضواء لا يدري من أين منبعثا ولا أين منتهاها

فأدرك أنها آيات مولود ورجاء موعود وخليفة ولده المفقود . فصاح
كعاداته وهتف وبشر ، ودخل على آمنة يحبوها بسروره . وبيارك
وليدها السعيد . فألقاها كعاداتها هدوءا ورضاء . وبسمة وإشراقا . فلم
تقع عينه على آثار الوضع أو ضروريات الولادة ولم ير أمامه المرأة النفساء
التي كان يتخيلها منهوكة القوى مبهورة الانقاس تصيح بالشكوى وتجأر
بالانين وترتفع من أنفاسها وتنخفض ، أغطية ثقيلة ، يروحون حولها ويغدون
بأباريق الشيخ والقيصوم يحيط بها من كل النواحي المشفقين والمشفقات
والدامعين والدامعات وهي بين هذا كله كالجنة المحنطة لولا أصوات الانين
وترجيع الزفير والشهيق

ثم هاله نور قوى يشع في زاوية المكان ينبعث من خلف غلالة
رقيقة كما ينبعث نور القمر من خلف سحاب شفاف النسيج رقيق الهيولة
يفيض المكان بأشعته ويضفي على من فيه نورا وهاجا فتتظر اليه آمنة
الشابة وتبتسم كما يبتسم مخترع الكهرباء الي أضوائه كلما تكلمت بجوته
بالفوز وصادفت تجاربه التوفيق والنجاح وقد زادت ابتساماتها المشرقة
الى ضحك عند ما رأت عوامل الدهشة والحيرة تتردد على وجهه جد
المولود . دون أن تنفذ حيرته أو يرى حلا أو تفسيراً يخرجها مما هو فيه

ثم خرج عن صمته المعبود واتزانه المألوف وقال لآمنة :

— حدثيني يا بنتاه ما هذا الذي أرى ؟؟ . أفي يقظة أنا في منام ؟
آمنة — لقد فاتني أن أحدثك يا أبتاه أني حين حملت بولدى هذا هتفت بي
هاتف في منامي (بأنك قد حملت بسيد هذه الامة . فاذا وقع على الارض
فقلو : أعيدك بالواحد من شر كل شيطان مارد . وعين كل انسان حاسد ،
ثم سمي محمدًا) . ولقد حملته والله . فرأيت بعد ذلك في منامي ان نورا

خرج منى فرأيت به قصور بصرى بالشام وأضاء علينا ما بين المشرق
والمغرب . ثم وقع حين وضعته وانه لو اضع يديه بالارض ورافع رأسه
الى السماء وانى لأرجو لابنى هذا شأننا

عبد المطلب - وما هذه الاعراف الشذية والاناوار البهية والطين الذي
علأ الجو علينا بألحان لا يعرفها بنو الانسان

آمنة - لعلك لم تر بعد حفاوة السماء بهذا الذكاء ... خذيه يا عاتكة
واطلعيه علي ما حولنا من سهام الضياء . فنادته عاتكة الى فناء الدار فألقاه
في مثل ضحوة الشمس ثم قادته الى أعلاها وهو لا يدري ما يقول من
فيض السرور فشاهد نجوم السماء وقد تدلت في جبال من الضياء تهبط
في دورانها وتدليها حتى تكاد ان تلامس رؤوس الواقفين ثم ترتفع كرة أخرى
عن رؤوسهم حتى اذا شاققتهم رؤيتها في مثل حالتها عادت الى ما كانت عليه
كأن قبة السماء راحت تدور حول محور المنزل المعمور وتتأرجح في تيه
وخلاء وقد تدلت منها أحبال الثريات تنأى ثم تدنو حتى تشارف رؤوس
الجبال وشرفات المنازل ...

فصاح عبد المطلب من أعماق نفسه : الله أكبر الله أكبر ، ثم عاد
الى مهد الوليد محمد فأنحنى عليه يقبله من كل مكان تصل اليه شفتاه وعيناه
في إعشاء من وهج الضياء

تكشف الصبح عن واد من النساء . تحملهن رواحل هزيلة عجفاء
يسرن الى مكة في بطء السلخفاة وبينهن امرأة يحملها اثنان (١) ويقود
زوجها شارفا (٢) وكلهم ضامر الوجه غائر العين خفيت الصوت منقطع

(١) همار (٢) الناقة المسنة

الانفاس لا تسمع من حركاتهم الا بقدر ما تسمع من وسوسة الحوافر والخفاف كانه جيش من الموتى يسير الى الموقف في يوم الحشر أوقرية أصابها الاحمال الفاتك فراحت تدنى نفسها من أفواه القبور .. او جماعات ضرب السحر على حواسها وخلفها بهم هكذا بين الصحارى والقفار .. لا يدل علي وجودها الا صوت الغلام عبد الله لا يفتر يرفعه بالبكاء لشده ما يحس به من الجوع ، أمه لا تكاد تجد في نديها ما يبل رmqه او في شارفها نقطة واحدة من لبن

ثم طافت بمكة انباء هذا الجيش الجائع يطلب الرضعاء باجر يعيش منه ، ويواصلن حياتهن الشقية به . فتوافد عليهن جيش من الامهات نضم كل واحدة منهن ولدها الي صدرها في رفق وحنو وقد علقن في أذرعهن خرقات تحمل مقدم اجر الارضاع من تمر وشعير واقط (١) فأقبل جيش الرواضع عليهن يتعارفن ويتساومن ويتجاملن ويتحدثن بأفواه سدت بمنتهجات مكة وخيرات البيت الحرام فهذه تهدي أتاها المتضور من الجوع حفنة من الشعير وهذه تقدم لولدها الصغير عرة يجرى بها لعابه وتلك تقدم لطفلها قطعة من الاقط هدية ممتعة ، ورابعة تقبل رضيعها وتمزح معه بما أتاها على يده من الرزق الذي صن به عليها انقطاع المطر وجذب الارض . وجفاف الحوالب . ثم راحت كل امرأة تهنيء صاحبته برزقها وتباهى بحال رضيعها على رضيع اختها .

فعادت الحياة من جديد الى هذه الاشباح التي كانت منذ دقائق هياكل بشرية أو صوراً لبعض الأدميين . وعلا هذه الوجوه الممتعة الضامرة بصيص من الاحمر از والبشر . الا امرأتين احداهن تلك التي هي

(٣) اللبن الجفف ويشبه عندنا الكشك من بعض الوجوه . وقيل يشبه الزبادى

أحوج الجميع الى ما يسد رمقها وينقذ طفلها. وأحبهم الي ما يسعف شارفها
واتانها. وهما يغالبان الموت ويكافحان عوامل القضاء. وثانيتها تلك التي
وقفت بطفلها عن بعد ، بعد ان حال يتمه وفقره دون احتضانه وارضاعه
وان كان صمت الاولى وتزمتها لما توهمت من سوء طالعتها .. وصمت
الثانية لثقة في نفسها واطمئنان الى مستقبل ولدها وارتقاب لما تجرى به
المقادير ثم نظرت حليلة السعدية الى زوجها الحارث وقالت له
إني لا كره أن ارجع من بين صواحي ولم آخذ رضيعا . والله لا ذهبن
الى ذلك اليتيم فلا خذنه .

الحارث - افعلى .. فعسى أن يجعل الله لنا فيه بركة
فذهبت حليلة الى حيث وقفت آمنة أم رسول الله صلى الله عليه وسلم
وانحنى عليها ترفع الفراع عن وجه المولود وآمنة تسهل لها ذلك بينما
أخذت تنظر الى وجهه في بسمة وليلة لتطالع فيه ما سيقع في نفسها عند
رؤيته. وما يكاد يقع نظرها على وجه الكريم يشع منه فجر النبوة .
حتى شهقت شهقة تأثرت لها جميع اعضائها واستحال جسمها الى وضع
واحد يمثل الفرح والدهشة معا ثم صاحت في مكانها وقالت

- يا لله انه لملك كريم .. ما رأيت مثل هذا الوجه على جسم مولود قبل
اليوم .. ثم حملته فوق ذراعها وضمته الى صدرها وقبلته . ثم تراخت
يدها به لتعيده الى صدرها وعند متناول شفقتها . ثم أخذت تتيه به وتهتز
وتتأرجح ، ناسية ما هي عليه وزوجها من الجوع والضنا . ثم ذهبت به
الى حيث وقف زوجها الحارث بن عبد العزي . وبشرته خيرا فقال لها :
- ماذا ?? آجاء لنا أهل اليتيم بالكراء ؟ ..

حليلة - لقد جاء اليتيم نفسه يحمل أعظم ما في الوجود

الحرث - اعطنا شيئاً تنبثق به فقد انهكتني عوامل الجوع

حليمة - حتى أرضعه

كل هذا وآمنة تنظر اليها في فرح بما يقال عن وليدها يمازجها الحياء
خلو يدها من الكراء . ويزيد ايمانها بشأن ولدها وعظم مستقبله
وما كادت تلمس حليمة ثديها حتى راها ثقله فبهتت ثم رفعتة فدهشت
ثم ضغطت عليه قبض غزيرا وسال مدرارا فصاحت :

- يالخير العظيم !!

رفع زوجها عينيه اليها لمعرفة السر في هذه الضجة . فألقاها بمد
لرضيع بشدي بض عامر باللبن . ولكن هذا اللبن لم يكن ليسدر مقه أو
يطفىء ظمأه . فلم يحفل بالأمر الا بقدر ما يدر عليه من كراء زوجته ...
روي الرضيع المبارك حتي شبع ثم جىء بأخيه من الرضاع عبد الله
بن الحرث وقد جفت ماقيه من كثرة البكاء ونضب لعابه من حرارة
الجوع . فأسلمته ثديها الثاني . فراح يعب منها عبا حتي نام في حجرها .
ثم قنني الجوع على زوجها فنادها :

- ان اقدني لى بشيء مما في حرك من كراء الرضيع . فقالت له :

- اليك شارفك فاحلبها

الحرث - وما الذي جد في ضرثها ولما تلك طعاما قط . وهي على ماهي

عليه من اعياء وهرم

حليمة - قم اليها وطف بيدك على ضرثها فسوف ترزق ببركة هذا الرضيع
فقام الى شارفه ومسح على ضرثها بيده فاذا به يرفع يده فاغراقم مأخوذا .

ثم وضع يده على الضرة ثانية يتفحصها . فاذا بها صقيلة مكنتزة . وهي
تلك الى كانت منذ دقائق شحيح شولاء .. فصاح بدورته :

- يالخير العميم !!

ثم التهم حليمتها وراح يعب منها حي شبع . ثم قامت حليمة بدورها
وشربت حتى رويت . فقال لها زوجها :

- أتعلمين والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة

حليمة - والله اني لأرجو ذلك . ولكن أين نساء بني سعد . وقد خلا
المكان منهن . دون أن نشعر

الحرث - لقد رحلن برواضهن فرحات مأجورات . وقد شغلتنا حالتنا
عن مصاحبتهن بعد أن هتفن بنا كثيرا

حليمة - هيا لنلحق بهن

الحرث - واني لنا ذلك . وهذا أتاننا هزيل نحيل

حليمة - لعل الذي خلق في هذا الشارف لبنا غزيرا . وفي ثديي غذاء
وفيرا ، يخلق من هذا البطء سرعة ومن النحول قوة .

وما هي الا ساعات حتي كانت حليمة ومن معها في مقدمة ركب بني
سعد ضاحكة السن وخلفها زوجها . تسابق الجميع وتربع عليهن . وتثنى
عنان أتانها لئلا تدع الراكب متخلفا عنهما حتي أصبح أتانها هذا في مكان
العجب والدهشة من نساء الراكب ومضرب الامثال في السبق والسرعة وهو
الذي كان منذ ساعات ذابل الآذان . مطأطئ الرأس لا يتحرك الا تحت
وطأة الهراوة ولدغ الوخز متأرجحا في مشيته كأنه ألواح خشبية غير
متساندة ولا متماسكة .

* * *

هاهم بنو سعد زاحفون في خيلهم ورجلهم : في رجالهم ونسائهم
وأمامهم عبد الله بن الحرث طفلا صغيراً ممتقع اللون لاهث الانفاس

لا تدري أمن متابعة العدو . أو من وطأة حادث مفاجيء ، وامه حليمة خلقه تولول وتقول :

يايتباه . ياضعفاه . ياوحيداه . . والناس تسارع الى اللحاق بها من كل ناحية حتى وقفوا فجأة أمام محمد الصغير شاحب الوجه مرتجف الجسم . فهوت عليه ترضه الى صدرها في قوة وحنو . ثم تدعه عن صدرها لتقبله في جبينه وبين عينيه . بينما أهل الحي وقفوا يتهافتون على يده تقيلا وعلى رأسه مسحوا وترفقا ، وحليمة تماركهم عليه لا تريد أن يفارق صدرها صدره فترضه اليها وتبكي بدموع الحنان والفرح وتقول

لازلت حيا بعد كل هذا يا محمد . بابي أنت وامي وأبنائي جميعا حدثني مادهاك من هذا الرهط الذي اختطفك ؟ فاخذ يجمع هدوءه ويحزم أعصابه . ثم أطرق برأسه الصغيرة الى الارض اطراقة الملك ثم سمع بعضهم يقول :

لقد أصاب هذا الغلام لم أو طائف من الجن فاذهبوا به الى كاهننا حتى ينظر اليه ويداويه فنظر اليهم نظرة ألم واشتزاز وقال لهم

ليس بي شيء مما تذكرون ان ارادني سليمة . وفؤادي صحيح . وليس بي جرح أو ايلام .

الحرث - الا ترون كلامه صحيحا اني لارجو أن لا يكون بابني بأس . عبد الله بن الحرث - لقد جاء هذا الرهط من الرجال فاستلوه من بيننا ونحن نلعب الكرة . فهربنا . ثم تلاومنا فعدنا اليهم وقلت لهم ما اربتم من هذا الغلام . وليس له أب وما يرد عليكم قتله شيء . فلم يردوا علينا . فهربنا الى الحي نخبركم بما حدث : فقد توجست عليه سرا من هؤلاء الغطاريف فقال زعيم الحي اذهبوا به الى الكاهن فان لهذا الحادث شأنا . قبل أن يعمن الداء ويستعصي الدواء فذهبوا به الى الكاهن فتعالت

أصوات الرواة عنده واختلفت لديه . فقال دعوا الغلام يتحدث عن نفسه . فقال لهم رسول الله

يينا أنا منتبذ من أهلي مع أتراب من الصبيان إذ أتاني ثلاثة رهط معهم طست من ذهب مملوءة ثلجا فاخذوني من بين أصحابي ثم عمد أحدهم فاضجفني على الأرض اضجاعا لطيفا ثم شق ما بين مفرق صدري الى منتهي عاتى . وأنا أنظر اليهم لم أجِدْ لذلك مسا ثم أخرج احشاء بطنى . ففعلها بالثلج فانعم غسلها ثم أخرج قلبي فصدعه ثم أخرج منه مضغة سوداء فرمى بها بيده يمنة كأنه يتناول شيئا فاذا بخاتم في يده من نور يحار الناظرون دونه فحتم قلبي ثم أعاده مكانه ثم قال الثالث لصاحبه تنح فتتحني عني فر بيده على موضع الشق فالتأم ثم أخذ بيدي فاهضني انهاضا لطيفا

وما كاد ينتهي رسول الله من حديثه . حتى وثب الكاهن من مكانه في فورة المجنون وضم رسول الله الى صدره . ثم صاح باعلى صوته . يا لعرب . اقتلوا هذا الغلام واقتلوني معه . فواللات والعزى لئن تركتموه فادرك، ليدلن دينكم ويخلفن أمركم وليأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله قط .

فشق الحرث عليه الصفوف وهجم على الكاهن في موقفه وانزع من بين أحضانه رسول الله . وقال له

دع عنك الغلام . فانك أجن واعته منه واطلب لنفسك من يقتلك . فانا غير قاتليك . ثم احتمله وحليمة خلفه فرحة وذهب به الى منزله فاضجماه وودتراه حتى يزول مابه من رعدة وخوف وجلسا أمامه يسرحان النظر فيه وهو يسرح نظره فيهما بعيون صافية كزرقة السماء وجين مضيء

كوجه القمر ثم رفعوا ثيابه عنه فالتقوا في بطنه مكان الشق كخط الشراك
فهمس الحرث في أذن زوجته وقال
أني لأخشي أن يكون غلامنا قد أصيب
حليمة - وماذا ترى ؟ ؟
الحرث - أن تلحقه بأهله قبل أن يظهر ذلك عليه

- ٩ -

« إذا ولد غلام بتهامة بين كتفيه »
« شامة ، كانت له الامامة ، ولكم »
« به الزعامة الى يوم القيامة »

عن كتب الاولين في ظهور النبي

دخل عليه حاجبه يستأذن لوفد قريش وسيفه بين يديه في مثل جلسة
الاسد وفي مكان الواسطة من العقد تنتظم حباته من ملوك العرب وأقياها
تحمل اليه التهانى بالنصر وتقدم بين يديه تذكارات التقدير والاعجاب
وهو في برديه الأخضرين يحدث مهنئيه بلسان العزة والفخر ، وينظر
اليهم بعين حاملة من آثار موجات المسك والعنبر ، تفيض بها حجرة الملك
في قصر غمدان العظيم

فهز (سيف بن ذي يزن) رأسه ايماءا بالرضا واسارة السماح والقبول
فدخل عليه عبد المطلب جد محمد بن عبدالله على رأس وفد التهئة من
قريش . ثم دنى منه واستأذنه قائلا :

هل لقريش أن تتحدث بلساني بين يدي ملك اليمن الظافر
سيف - ان كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك . فقد أذنا لك

عبد المطلب - أيها الملك ان الله قد أحلك محلاً ربيعاً . صنعياً منيعاً . شامخاً
بأذخا . وأنبتك فينا منبتاً طابت أرومته . وعزت جرثومته . ونبل أصله .
وبسق فرعه . في أكرم موطن . وأطيب معدن . فأنت أبيت اللعن ملك
العرب وربيعةا الذي به تحصب . وأنت أيها الملك رأس العرب الذي له
تنقاد ، وعمودها الذي عليه العماد ، ومعقلها الذي يلجأ اليه العباد . فسلفك
لنا خير سلف . وأنت لنا منهم خير خلف . فلم يخلف من أنت خلقه ولن
يهلك من أنت سلفه . نحن أهل حرم الله وسدنة بيته ، أشخصنا اليك
الذي أنهجك لكشف الكرب الذي فدحنا . فنحن وفود التهئة
لاوفود الرزية .

سيف - من فيهم أنت أيها المتكلم

— عبد المطلب بن هاشم

سيف - ابن أختنا إذن

عبد المطلب - طبتم من أخوال

سيف - مرحباً وأهلاً . وناقة ورحلاً . ومستنأخاً سهلاً . وملكا
رجلاً . يعطى عطاء جزلاً . قد سمع الملك مقالكم وعرف قرابتكم وقبل
وسيلتكم فأهل النهار والليل أنتم . ولكم الكرامة ما أقم والحيا (١)
إذاظعنتم

ثم استأذنوا وخرجوا الى دار الضيافة وكلهم يفيض بالبشر ويحيط
عبد المطلب بنظرات الاعجاب والتقدير ويطوفون حوله طوفة العابد

مبيت الله الحرام . والوثى بيت الاصنام . فأشار عبدالمطلب الي من معه
يحدثهم قائلاً :

انظروا الى أعمدة هذا القصر الغلباء . وسماؤه السماء . ودرجاته الملساء
وأبهاءه الفسيحة الارعاء . وحداثته الغناء . إتنا والله في مهبط الغنى وينابيع
الثراء . ولعل هذا ما أطعم هؤلاء الاحباش المناكيد في هذه البلاد
أمية بن عبد شمس - وما الذي أطعمهم في بلادنا القاحلة الجرداء
لأنبت فيها ولا جذائق ولا ماء . اللهم إلا تلك المروج الهزيلة والحفنة
الأسنة من مياه الآبار والعيون

عبد المطلب - ان حملة الاحباش على مكة لم تكن إلا قصاصا وتره
لما أحدثه « بن فقيم » بكنيسة صنعاء فسلط الاله عليهم طير البلاء والوباء ،
فجعلهم حرصا في الارض ومثلا في العالمين

ثم قطع الحديث عليهم أحد الاحباش وبادرهم بالتحية وقال :

— نعم باسمكم

— اصوات سعد حالكم

ارباط - أنا مندوب المليك في خدمتكم مدة الضيافة

عبد المطلب - اهلا بك وسهلا . لعلك من رؤوس الاحباش

نعم - هو هذا

وكيف ذلك بعد الذى حدث من حرب بينكم وبين اليمانيين

— لقد كنت دائما في خدمة الحق ناقما على جرائم (مسروق) التى

اقترفها مع بنى أخوالكم . فلما اتقدت نيران الحرب بين اليمن والاحباش

كنت في صف الملك العادل سيف بن ذى يزن فاتخذنى من خصائه وقدمنى

في مجلسه واختارني نائبا عنه في خدمتكم

عبد المطلب - حسنا ما تقول . ولكن كيف تم لكم النصر مع
سواد الاحباش وبأسهم ومهارتهم في ضروب الزلا
يارط - الفضل كل الفضل لا ساور كسرى في هذا الفتح المبين
عبد المطلب - وكيف استنصرتم هذا الرجل العنيد على أعدائكم
مع بعد الشقة بينه وبينكم وعدم الجدوي من مساعدته اياكم
ارباط - خرج وفد من اليمن على رأسهم هذا الملك القاطح الي
القسطنطينية للقاء القيصر بوستيانيوس واستنصره على الاحباش فقال لهم:
الحبشة على ديني ودين أهل مملكتي وأنتم على اليهودية فكيف
أساعدكم ؟ !

فخرج الوفد من لدنه كسير النفس ضيق الذرع ولكن الرجاء
فتح أمامه ثمانية باب كسرى (أبرويز) فاستأذنوا عليه وقابلوه ووقف
الملك بين يديه وقال :

— غلبنا الاحباش على بلادنا - أدام الله كسرى - وانا لا اقرب اليك
منهم فهم سودان ونحن بيض فانصرنا عليهم يكن لك في اعناقنا
دين ويد . فاجاب أبرويز (علي لسان ترجمانه) إن بلادك بلاد مترامية
الاطراف فلا أغرر بحيشي حيث لا منفعة منه لبلادى

فأظلمت الدنيا في وجهه وضاق الفضاء امام عينيه وخرج من لدنه
كسيرا كئيبا فعرف من معه أمره ووقف الكل خلف باب كسرى سكوتا
كأنما هم على باب قبر يودعون عزيزاً لديهم في مقره الاخير ، ثم أرسل
الهم كسرى على يدي ترجمانه هدية من المال فأخذها الملك غاضب
وخرج بها الى أسوار القصر وأخذ ينثرها على الناس في حركة عصبية
فتهاقت الناس على التقاطها وانكفأ بعضهم على بعض من أجلها وقامت

سيدهم منازعات ومشادات أوصلت ضجيجهم الى اذان الحراس فخفوا
أرأعا اليهم يتعرفون خطيبتهم . ثم سارعوا الى إعلام كسرى
لـت اليه هديته . فاطرق قليلا ثم أمر باستدعاء الملك اليه فثقل بين يديه
وقال له :

لم فعلت هذا بهدية كسري؟؟ فقال له ان جبال وطني ذهب وفضة
وقد جئت الملك ليمعنى الظلم ولم آت ليعطيني الدراهم فسكت كسري وقال :
سأ نظـر في أمرك . . .

ثم خرج الملك يتنازع وجهه عاطفتان متعا كستان فأقبل عليه قومه
يستنطقونه سر صمته وتفكيره فابى إلا أن يشوقهم وأخذ
يفرك يداً بيد ويتمشي ذهبه وجيأة وهم حوله يتناهبونه ويتجاذبونه
بعيونهم ثم وقف وقال :

لقد وعد كسرى بالنظر في أمري وأرجو ألا نعود الا في ركاب
جيش عرمرم .

فوقف بعضهم يهنيء بعضا ووقف البعض الآخر بقلوب معلقة بين
الخوف والرجاء حتى جمع كسرى رؤساء عسكره ورجال دينه وقال لهم
ما رأيكم في قضية هذا العربي جاء يستنصرنا على الاحايش وقد رأيت
فيه رجلا جلد أفرد « الموبدان (١) » علي كسري وقال : سيأوله عندنا حق
قديم فقد مات أبوه علي باب كسري ينتظر البر بوعده في ذلك فقال
رئيس الجند ما ضرنا اذا أمر كسري بتجيش من في السجون واشخاصهم
الى الاحايش فاذا انتصروا كان لكسري فضل النصر والوفاء بوعده وان
هزموا فقد كفي كسرى على مملكته شرورهم .

(١) الرئيس الديني

فقال كسرى هذا هو رأى . ثم أمر بإعداد هذا الجيش وأمر عليه
(وهرز) أعظم رماة الفرس وجهزهم بكل ما يجهز به جيش مستعد للنزال
وحملهم في ثمان سفن ففرقت سفينتان وبحث اخواتها وجاء ملك اليمن
اليوم على رأس جيش عربي فوضع يده في يد وهرز وتحالفا على النصر
أو الموت ثم قامت الحرب على ساقها وتراشق الجيشان بالنبال حتى فر
جيش الاحباش بعد أن شبع الفرس والحيريون فيهم قتلا وتذبيحا.. وكان
أمر كسرى بعد ذلك بتولية هذا الملك عرش ابائه وأجداده .
عبد المطلب ياله من حق قد عاد الي أهله وقصاص شفي الله به صدور
العرب من أصحاب القيل

أمية - لقد عرفنا السر في هذا النصر الذي يفخر به أبناء العرب في
بطن الجزيرة . ومسح عار الهزائم الماضية وزاد في النكال بهم بعد اسراب
الطير الا بايل

ارباط - حمداً لله فقد كنت إذ ذاك في سن لا تشجع على أن
أكون بين أجناد هذه الحملة وإلا لذهبت مع من ذهب !!

عبد المطلب - ضاحكا - لقد كانوا وحقك يفرون فرار الخرق (١)
ثم يخرجون صرعى في إهاب خاق مهلهل وأكثر ظنى أنه لم ينج منهم أحد
ارباط - أظن أنه قد نجا واحد أو اثنان فحاءا بكتاب الهزيمة إلى
النجاشي وقد تسامعنا لك في ذاك شعرا أجيلا يرويه حفاظ الشعر كابر أعن كابر

أمية - لقد ذهبت في أفق الجزيرة حذاء وهزجا

ارباط - اسمعنيها وأبيك

فسكت عبد المطلب هنيئة غابت فيها عينه خلف محارجه ثم قال

(١) الارب

لاهم إن المرء عند ع رحله فامنع رحالك
 وانصر علي آل الصدايب وعابديه اليوم آلك
 لا يغلبن محالهم ومحالهم أبدا محالك
 ولئن فعلت فانه أمر تيم به فعالك
 أنت الذي إن جاءبا غ فرتجيك له فذلك
 لم أستمع يوما بأر جس منهمو يينغوا قتالك
 جروا جموع بلادهم والقليل كي يسبوا عيالك
 عمدوا حماك بكيدهم جهلا وما رقبوا جلالك
 إن كنت تاركهم وكعد بتنا فأمرما .. بدا لك

وقف عبد المطلب بن هاشم حول اطلال سد مأرب يعجب لجناد له
 الكبيرة وقطعه المتناثرة كأنها جبال صغيرة قد أطاح بها زلزال عنيف أو قذف
 بها بركان غاضب . ثم دنا ومن معه من بقايا الاحواض التي كان يستعملها
 اليابانيون قبل الميلاد لتخزين سيول المياه الجارفة تزحف عليهم من أعالي
 الجبال يتأملون رسومها البارعة ويعجبون لأشكالها وبنائها وهندستها
 التي لا يدرون ماذا يسمونها ويدهش لتلك الأعمدة الاسطوانية التي
 كانت تركز عليها قناطر شاهقة في العصور الخالية ليرتفع منسوب المياه
 خلقها الى درجة تساعد على الزحف الى المدن والقرى للشرب منها
 وسقي الاراضي العالية . . وبينما يتحدث عبد المطلب عن هذا البناء
 وعظمته قاطعهم (ارباط) القائد الحبشى قائلا :

وهذا هو سر ما كانت عليه هذه البلاد من ثروة ومجد فهنا وفوق

هذه الارض الزرقاء كانت تنبت أعشاب العطور التي لا بد منها
لحياة المعابد والعبادة في الهيكل المصرية فتحملها قوافل التجار
الى مصر وسوريا وبابل وتعود محملة بذهبها النضار وهذه الاخرى
أشجار المر بما فيها من خصائص التطيب تنقل الى مصر وفلسطين وقلب
الجزيره . ويعود تجارها بخيرات هذه البلاد

عبد المطلب .. لقد حسبنا أن الهيكل الستين ومدهشات مأرب
وأعمدة الرخام وأطلال الابنية الفخمة المقامة هناك بالقرب من «بحران
والغراب» آخر ما وصل اليه مجد اليمن في الازمنة الغابرة وما بلغت من
التقدم والرفعة فجاءت بقايا سد مأرب وأطلال الاحواض القريبة منه مزرية
بكل ما تقدمها

ارياط - ليت هذا السد لم تتصدع جدراناه ولم يهدم بنيانه لتظل
مملكة سبأ ودولة الحميريين تاج الجزيرة الذهبى ولكن هكذا الشأن في
كل أمة تفيض ثروتها عن حاجتها فتطيح بأخلاقيها وتقطع الاسباب
والروابط بين أبناء البطون والانخاذ .

لقد خلق هذا السد من مملكة سبأ جنات ورياض وبساتين وغياض
وحياة هنأ وسعادة وارفة ففرقوا في بحر شهواتهم وراح الزمن ينخر
بظافره في هذا السد حتي تحرق وتداعى فاغرق السيل البلاد وطمى على
أخضرها ويابسها وإن كانت لا يزال بها من هذه الثروة مقدار الذماء (١)

عبد المطلب - كآني بك يا ارياط تعلمت عن أحبار يهود وراهبان
لنصاري تاريخ الاولين ..

(١) القشرة الرقيقة التي تلتصق بالعظم

أرياط - ليس هذا فقط، فقد رحلت إلى القسطنطينية واختلفت إلى
مجامع علمائها وأخذت عنهم الكثير مما يعلمون
عبد المطلب - لله أبوك لقد أصاب بك الملك كنزاً ثميناً ووقع
علي صديق حبر ومخلص عارف بتاريخ بلاده

أمية - وما هي سبأ هذه التي ذكرتها، أمي امرأة أم مدينة؟
أرياط - هذه هي الملكة المعروفة في التوراة .. حكمتها الملكة
بلقيس التي أرسلت بهديتها الثمينة إلى سليمان بن داود لتعجم عوده
وتسبر غوره وكان له رده القوى القاطع .

وقد كان لملكة سبأ في عهد بلقيس فلاك يمحز عباب البحر بتجارة
البلاد كما كانت لها سلسلة من القوافل المنظمة لتحمل المتاجر بطريق
الصحراء إلى الشام ومصر وفلسطين .

* * *

قضى عبد المطلب ومن معه في ضيافة ملك اليمن شهراً وكلما استأذنوه
في الانصراف إلى بلادهم استبقاهم في ضيافته يبالغ في إكرامهم
ويضفي عليهم من ضروب الحفاوة ما أثقل كواهلهم وهم لا يدرون سر
كل هذا التكريم ..

ثم استدعى الملك عبد المطلب يوماً وقد أدخل مجلسه من كل خلصائه
وبطانته ثم أدناه منه حتى قارب وجهه وجهه وقال له :

يا عبد المطلب اني مفوض اليك من سر علمي أمراً لو يكون غيرك
لم أجب به . ولكني رأيتك موضعه . فاطلعتك مطلعته . فليكن عندك مطوي
حتى يأذن الله فيه . فان الله بالغ أمره . اني أجد في الكتاب المسكنون

العالم المحزون. الذي اخترناه لانفسنا واحتجبناه دون غيرنا خبرا عظيما وخطرا
جسيما . فيه شرف الحياه وفضيلة الوفاء للناس عامة ولرهطك كافة
والك خاصة ..

عبد المطلب — مثلك أيها الملك من سر وبر فا هو فداك أهل الوبر
والخضر زمرا بعد زمر

سيف — اذا ولد غلام بهامة . بين كتفيه شامة . كانت له الامامة .
ولسكم به الزعامة إلى يوم القيامة

عبد المطلب — أيها الملك لقد أبت بخير ما آب بمثله وافد . ولو لا
هبة الملك واكرامه واعظامه . لسألته أن يزيدني في البشارة فأزداد سرورا
سيف — هذا حينه الذي يولد فيه أو قد ولد . يموت أبوه وأمه .
ويكفله جده وعمه . وقد وجدناه مرارا والله باعته جهارا . وجاعل له
منا أنصارا يعز بهم أوليائه . ويذل بهم أعداءه . يضرب بهم الناس عن
عرض . ويستبيح بهم كرائم الارض . يحمد النيران . ويدحر الشيطان ،
ويكسر الاوتان ، ويعبد الرحمن ، قوله فصل ، وحكمه عدل ، يأمر بالمعروف
ويفعله . وينهى عن المنكر ويبطله

عبد المطلب — أيها الملك عز جدك وعلا كعبك ودام ملكك ، وطال
عمرك . فهل يخبرني الملك بافصاح بعد أن أوضح لي بعض الايضاح
سيف — والبيت ذى الحجب . والعلامات والنصب . انك يا عبد المطلب
لجده من غير كذب

نفر عبد المطلب ساجدا .. فقال الملك :

— ارفع رأسك تلج صدرك ، وعلا أمرك ، فهل أحسست
شئ مما ذكرته لك ؟

عبد المطلب - أيها الملك . كان لي ابن وكنت به معجبا وعليه مشقة
حدا . زوجته كريمة من كرائم قومه اسمها آمنة بنت وهب بن عبد مناف
فجأت بغلام بين كتفيه شامة . وفيه كل ما ذكرت من علامة . وسميته
محمدا . مات أبوه وأمه (١) وكفلته أنا وعمه

سيف - الامر ما قلت لك فاحفظ بابنك . واحذر عليه من اليهود
فانهم له أعداء . ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا . فاطو ما ذكرت عن هذا
الرهط الذي معك . فاني لا آمن من أن تدخلهم النفاسة من أن تكون
لهم الرياسة . فينصبون له الجبال ، ويطلبون له الغوائل . ولولا إني
أعلم أن الموت محتاج قبل مبعثه لسرت بخيلي ورجلي حتى أصير يثرب
دار مهاجرة . ولولا أني أقيه الآفات وأحذر عليه الغاهات . لاعلنت أمره
على حداثة سنه . وأوطأت أقدام العرب عقبه

ثم أمر الملك لكل واحد ممن معه بعشرة أعبد وعشرة اماء سود
 وخمسة أرطال فضة ، وحلتين من حلل اليمن وكروش مملوء غنبرا . وأمر
لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك

ثم عاد وفد قريش الى مكة وقال عبد المطلب لاصحابه قبل أن يفادهم
لا يغبطني رجل منكم بجزيل عطاء الملك وإن كثرفانه الى نقاد ولكن
ليغبطني بمن سيبقي لي ذكره ويسود بين الناس أمره

أمية - وما هذا يا عبد المطلب

عبد المطلب - سيظهر وستعرفونه بعد حين

(١) ماتت وهي في طريقها الى مكة بعد ان زارت قبر زوجها عبد الله بالمدينة ودفنت
« بالايواء »

ولدت في زمن

العادل كسرى

« حديث »

وقف الجزاة (١) خلف باب كسرى حيارى مشدوهين يفلون في رءوسهم أفانين الروايات ويقلبون وجوه الصور التي يمكن أن تقع من نفس كسرى موقع الرضاء والارتياح وينتظرون الساعة التي يمكن أن تطمئن فيها نفسه وتهدأ . للدخول عليه لأن مرزبانة (٢) حدثهم أنه يحتاج النفس نائر الاعصاب . يتمشى في العرش ذهبة وجياة يقرأ ويعيد في كتب جاءت من عمال الأقاليم بانطفاء النار في كل معايدتها مع وفرة الوقود ومعالجة قطنها (٣) لها للاشتعال دون جدوى أو فائدة .

وكما أطلوا من ثقب بابها اطمئنا للدخول عليه ألقوه يحدث نفسه ويضرب الأرض بقدمه ويلوح في الفضاء بسيفه .. حتى إذا أتعبته هذه الحركات وأتعبته هذه الانفعالات . جلس على حافة العرش . مستوفزا مأخوذاً ، يعيد النظر في وريقات بيده ثم يلقي بها الى ناحية من المكان ثم يعود الى مثل هذه الحركات والى تحديث نفسه فيسرى الرعب في أجسامهم سريان الكهرباء . وتتخاذل سيقانهم حتى كأن بهم نوبة من الرضاء (٤) فيسأل بعضهم بعضاً عن طريق للخلاص وحيلة للنجاة من مخالب الشر الذي ينتظر الجميع .

(١) السحرة والمنجمون والكهنة (٢) رئيس حرسه
(٣) خدامها الخصوصيون (٤) الارتعاد مع شيء من العرق

ولكن واحدا منهم لم يكن يملك رأسا يهيء فيها فكرة . أو لعبا
يساعده على تحريك لسانه . فلا تري الا عيوننا زائغة . ووجوها ساهمة .
ورءوسا مطرقة كأنهم واد من البكم تعوزهم الاشارة . أو شريط صامت
ينقصه الصوت والعبارة .

وبينما هم على هذه الحال لا يستطيعون الانصراف لأن كسرى قد
أرسل في طلبهم، ولا يستطيعون الدخول عليه . لأنه حائق مهتاج . استدعى
مرزباناه اليه وسأله . هل تكامل عدد الجزاة ؟

فكان الجواب بالاجاب

فصاح في وجهه . وقال :

- على بهم . . . صيحة رددتها جوانب القصر وهرع لها كبار الحرس
من كل جهاته .

فخرج المرزبان ممتقع اللون ودعى الجزاة للدخول على كسرى . وكانوا
قد سمعوا صيحته في وجه مرزباناه . فدارت بهم الارض . وبلغت القلوب
الحناجر . وسقط بعضهم من البهر (١) على المقاعد وتشاغل البعض بتنظيم
ردائه وتسويته وأخذ بعض آخر يستند إلي ذراع جاره من الاعياء .
وراح فريق ثالث يتظاهر بتثاقل الهرم . فدفعهم الحرس الى الداخل دفعا
فمنهم من تعثر في ازاره وسقط . ومنهم من هرول الي حيث وقف كسرى
بحركة لاشعورية ومنهم من اصطدم بالباب لما ران علي عينيه من شدة
الخوف . وكسرى بين هذا كله كالتقاء الصنديد تتساقط الضحايا حول
أقدامه وهو في مكانه يضبط أعصابه ويحزمها . . أو كالتمثال الاشم صامتا
متجهما للجميع وهم حوله خاشعون صامتون

(١) سرعة التنفس

ثم تحرك التمثال ودار حول نفسه والسيف في يده هدفا للعيون ورعبا للقلوب التي في الصدور ثم انفرجت شفتاه عن أسنان يعرك بعضها بعضاً ثم هبط صدره المرتفع عن زفرة كأنها زفرة بركان نائر وشرع سيفه مع لسانه وراح يهدر كالغدير قائلاً :

بالأمس تشقق ايوان كسرى . فرحتم تستقسمون الازلام وتستحضرون الجن وتحسبون النجوم ثم جئتم الي بقصة بناء القصر علي النهجوس وأنه يجب أن يبنى علي السعود حتى سقطت منه اليوم أربع عشرة شرفة رغم بنائه علي سعودكم التي اقترحتموها ! وبالامس جاءت الانباء من عمال الاقاليم تروي انطفاء النار في جميع معابد المملكة وفيضان وادي السماوة حتى أهلك الحرث والنسل بينما غاضت بحيرة ساوة المقدسة التي كانت معينا للطب وموردا للشفاء فاجتماع ذلك كله في ظروف متقاربة لا يدل الا علي حدث عظيم في الارض . ترفضون البوح به رغم ما أفيضه عليكم من نعم . وأجري حولكم من خيرات . فاما أن تكونوا عصابة من الدجاجلة المهرة وأما أن تكونوا علي علم بهذا الحدث الهائل ، وضنتم علي بنبئه وجدتم آلائي ونعمائي . وفي الحاليتين لا تستحقون عندي إلا أن تموتوا علي شفرة هذا السيف

لقد انطفأت أنوار الالهة المعبودة في مملكة الممالك وخبث نيرانها الدافئة المطهرة فلم يعد لكسرى ولا لشعبه معبود يعبد وغاضت بحيرة البركة والخير والنعيم فلم يعد في المملكة طب أو دواء ولا خير ولا بر وتشقق ايوان المملكة مرتين بعد هذا الجهد المتواصل والزمن الطويل . والذهب الوفير . فلم تعد لنا عزة ولا كرامة ولم يعد لما أثق عليكم من لدوي ولا لوجودكم من فائدة

ماذا يقول الناس .. يأجراء السوء وسيلالة الافاعي .. عن عظمة
كسرى وتسكن جزاته وما آلت اليه حالتهم وانتهى اليه عجزهم عن
اشعال نار الالهة المعبودة . ثم صاح فيهم :

خبروني .. نبؤوني .. حدثوني .. لقد طاش عقلى وجن جنونى
فاراد الساحر العربى « نوفل » أن يتحدث معذرا له عما فرط .
فصرخ في وجهه وهجم عليه وضربه على يافوخه بسيفه فخر على الارض .
وأهاجت رؤية الدم شراسة كسرى . فراح يرتفع بسيفه ويهوى بمنته ويسره حتى
أعياء التقتيل فجلس على سريره منتفش الشعر . محلول الرداء مزبد القم .
مبهور الانقاس وحراسه حوله مرهقو الاحساس مستعدون لاثوبة
مشرعون كالسيوف صامتون كالتماثيل فوق نافورات من الدم السخين
ثم عادت انسانية كسرى اليه وفاءت عاطفة الانسانية عليه وغدت
الرحمة الي فؤاده وآوت الشفقة الي جنبيه . فامر بنقل القتلي والعناية
بالمصابين وعاد يتحدث الي من كتب لهم أجل جديد ولم يكن قد بقى
منهم الا أشباح صفراء وهياكل هزيلة . التصق بعضها ببعض ، كتلة لحم
واحدة وزاغت أبصارهم كأنهم في يوم الحشر

أطرق كسرى طويلا ، ثم أخذ يتحدث الى نفسه في صوت حزين ويقول :
خطب مد لهم . خرب ايوانى ، وطفى على أرضى ومزارعى ، وذهب
بوجود ربى ومولاتى ، الامر الذى لم يحدث منذ ألف عام . وأخيرا
أطاح برعوس علماء المملكة . وأرواح البطانة .

بدأ كلامه كذلك في صوت متهدج ثم أخذ في الضعف والخفوت حتى كادت
تخنقه عبراته ويجهش بالبكاء . لولا أن أخذته العزة بالاثم . فامتنع عليه
الدمع واستعصم ثم استحال الي بخار يزفره كلب الاتون

ثم حلقت سحابة من الصمت على المكان وسادت فترة لم يكن في الوجود من هو أشقى من هؤلاء الجزاة المسكدين في زاوية من الحجرة ينتظرون الموت بين طرفة وأخري وليته يسمى عاجلا اليهم فيستريحون من شبحه الخيف . أو تهبط على قلب السفاح سحابة الرحمة والحنان فيهبهم حياتهم . ويرد الي صدورهم الطمأنينة والهدوء... وكان الله قد استجاب الى نداء قلوب لا تعرفه ورحم عزة دانت لسواه . وأنقذ نفوسا تتأوه وتستغيث بقوة خفية لا يجيدون التعبير عنها . ولا يعرفون طريق الوصول اليها . وان دقت أحاسيسهم ها . . وأحس شعورهم بوميضها حيناً بعد حين .

ثم التفت كسرى الى الجزاة وقال لهم . . سأعفو عنكم مؤقتاً على أن تنظروا في أمرى وأمركم . وشأنى وشأنكم . وحذار أن ينطلق غفريت الكذب من عقاله مرة ثالثة والا أطحت برءوس الجميع فليراجع الحذاء (١) نجومه وليناقش الكاهن أزالامه وأوثانه . وليتحرر الساحر أخبار تابعه والا فالمصير المحتوم ينتظركم . وهو المآل الذي سار اليه اخوانكم

وبينما كان كسرى يتحدث اليهم بلهجة يمازجها شعور بالاسى ونبرات الحزن . كان برد الاطمئنان يسرى في أجسام الجزاة فخفف ضغط بعضهم على بعض . . وعادت كتلتهم تتحلل إلى وحدات مستقلة تسعى . كما يتحلل الجليد تحت وطأة الحرارة او كما تنتفش أوراق الكأئم تحت قطرات الندى أو حرارة الشمس . . ثم أذن لهم في الانصراف فخرجوا احياء بعد أن دخلوا أمواتا بل انصرفوا يحملون حياتهم بعد أن كادت تماع وتبخر

* * *

دخل (رستم) على الجزاة وهم مجتمعون في حجرة الموزان يتذكرون

(١) النجم

أمرهم : ويستعرضون رؤاهم وحسابهم . أشبه ما يكونون بالهرر المجتمعة حول بقايا المائدة تفزع لأي صوت . وتشخص من أية حركة ولا تكاد تسمع لهم صوتاً . أو تحس لهم بوجود . حتى دخل عليهم رستم وابتدروهم التحية فردوا بأحسن منها ولرستم مكانة كبيرة في الدولة ومنزلة ممتازة فأنسوا بوجوده . واطمأنوا لحضرته . وراحوا يحيطون به احاطة الابناء بأبيهم والتلاميذ بأستاذهم ليسمعوا منه آخر أنباء المملكة وأخبار كسرى فقال لهم :

لقد صدر اليوم أمر كسرى بتطهير البلاد من المزدكية (١) ما بين (جازر) إلى « النهران » ثم (المدائن)
الحرث — يا للفظائع الدامية !

سابور — يتظاهر بالربت على كتف « السائب » ثم يضغط عليه إشارة له بعدم التدخل في أوامر كسرى أو الهجوم على تصرفاته . ولكن هذه الحركة لم تزد « السائب » الذي شهد مذبحه الامس إلتهاوراً وسخطاً على تصرفات كسرى وأوامره الدامية وقال :

لقد قتل كسرى من اخواننا بالامس مائة نسمة في جلسة واحدة . ثم يصدر اليوم أمره بذبح المزدكية في جميع أنحاء المملكة كأنما يريد أن يبقى وحده ولو خرب العالم بعد ذلك

سابور — أما مجزرة الامس ياسائب فنحن شاحذوا مديتها ومقدموا ضحاياها والافانما كان ضرنا لو أصدقنا كسرى وكاشفناه أسرارنا . وأنبأناه بما علمناه عن أسباب انشقاق الايوان وخمود النيران
الحرث — وكيف نكاشفه الحقيقة وتنعى اليه ملكه وعزه وعرشه ..

(١) نسبة الى مزدك الاباحي المعروف في التاريخ الفارسي

فلا يجد ما يرد به علينا إلا أن يعرض رءوسنا على شفرة سيفه
سابور - وهل فرش بالامس تحت اقدامنا الورد والريحان. حين ايهما
عليه الحقيقة - أم طاح برءوس مائة ؟

السائب - واذا كان هذا ذنبنا فما ذنب هؤلاء الذين أمر بذبحهم
من جازر الي النهروان ومنهما الى المدائن

سابور - لك معاذيرك فأنت رجل غريب عن هذه للديار ، ولو أنك
علمت ما تقتطفه هذه الطائفة وما ارتكبه رئيسها من زندقة وتخريب
لحمت سيفك وذهبت مع حملة التطهير التي ستقوم بهذا العمل الجليل

لو علمت أن هذا الكلب يدعى أنه تلميذ زرادشت . وانه يشرع
بدين ابراهيم . ثم فى الوقت نفسه يحرم ذبح الحيوان ا كتقاء بما
تنبتة الارض من بقول وخضر وما يتولد من الحيوان كالبيض واللبن
والسمن والجبن . وليت هذا فقط بل كان يدعو الي توزيع الثروات
بين الناس بالسوية . حتي تموت الفوارق . وتختفي نعمة التفاخر بالفضل .
وليس هذا فقط بل كان يدعو الي اباحية الاعراض فللرجل ماشاء من
نساء . وللمرأة ماشاءت من رجال قرضا او اباحية أو ماتشاء من تسمية حتي
اصبح الولد لا يعرف اباه والوالد لا يعرف ولده فعمت الفوضى وساء
الفساد في المملكة وتحكم الرعاع والسوقة ويبيع الاعراض وتقه
الشرف ورخص ماء الحياء

ثم ضحك ساربو وتابع حديثه قائلاً :

- على أن لكسرى فوق ذلك كله ثأراً خاصاً عند (مزدك) فقد
حدث في عهد كسرى « قباذ » ان دخل عليه مزدك ولديه زوجته أم كسرى

أنو شروان فاستملحها وسال عليها لها فقال (لقباذ) اليوم نوبتي في امرأتك . فقال له :
- اليك خذها

فقام اليه ولدها أنوشروان وأخذ يستعطفه ويتوسل اليه أن يعفي أمه من ذلك . واللئيم ينظر اليها ويبتسم . ثم خر أنوشروان على قدمه فقبلها ليترك أمه دون ارتكاب الجريمة المنكرة فرضى في نهاية الأمر . وأسرهما كسرى أنوشروان في نفسه له .

فلما تولى كسرى ملك أبيه (قباذ) أباح للناس الدخول عليه للشكوى والتقاضى ودخل عليه (مردك) والمندر بن ماء السماء فيمن دخلوا فتوحه أنوشروان بالخطاب اليهما وقال لهما :

- كنت تمنيت أمنيتين أرجو أن يكون الله عز وجل قد جمعهما الي ، فقال له مردك :

- وما هما أيها الملك ؟ . فقال له كسرى :

- أن أملك ملك أبي لاستعمل هذا الرجل الشريف (يقصد المندر) عاملا على الحيرة كما كان ، جزاء وفائه لدينه ورفضه لدينك مما سبب له عزله من امارته بسبب دسائسك له عند والدي . أما الثانية فهي أن أقتل جميع المزدكية . فقال له مردك :

- كان الملك يريد أن يقتل جميع الناس . فقال أنوشروان :

- وانك برغم هذا تتحدث ههنا يا بن الزانية . والله ماذهب من معطسي رائحة جوربك منذ قبلت قدمك لاغفاء أمي الي الآن . ثم قال في حدة صارخة :
- خذوا هذا الكلب فاقتلوه . فقتل .. وها هو كسرى قد أصدر أمره اليوم لتطهير البلاد من أتباعه

وهران - لقد حولتم المجلس الى مدرسة للتاريخ وفوتم علينا الاستماع الى الانباء التى يهتمنا شأنها

فبرز من المجلس (زاده) أحد خلاء الملك . وكان مختبئا بينهم يستمع الى حديثهم ويتلمس انباءهم ليحملها الى كسرى وأراد أن يفاجأهم ويضبطهم متلبسين بجرعهم

فلما رأوه صعقوا في اماكنهم وجحظت عيونهم وفزعوا افواههم كالبله وكان أشدهم ارتباكا (رستم) الذى سمح بأن يحمل في مجلسه على كسرى وان كان قد قام بواجب الدفاع عن تصرفاته

ثم وقف (زاده) محتدا وتوجه بالحديث الى الجزاة وقال

وهل بعد هذه الاكاذيب تغررون بها مولاي وبعد أن عفي عنكم دون الذاهبين ومنحكم حق الحياة — لا يزال بينكم من ينتقد تصرفاته العادلة حقانه للؤم ودناؤه .. ثم انصرف غاضبا وترك الجميع تدور الارض بهم حيارى لا يدرون ماذا يفعلون .. ثم حلفت سحابة الرعب والاحزان على السكان . وراحوا يسبحون في بحر من الاوهام وينتظرون الموت بين ساعة واخرى حتي استطاع (وهران) أن يجمع شجاعته وان يشق هذا السكون ويقول :

لا تطيلوا التفكير فما قدر يكون .. ولا بد لنا ان نسمع من رستم بقية الانباء فأطرق رستم قليلا كأنه يستقي قلبه الواجب ويستمع الى حى معين وقال في رنة حزن عميق .

— (للسائب) العذر في مثل هذه الاسئلة فانه غريب عن هذه

الديار على انه لا يفوتني ان اذكر لكم ان الموبزان الاكبر قد رأى رؤيا غريبة لم يستطع أحد تأويلها وقد تحدث الى كسرى عنها فأخبره الامر وكتب الى عامله النعمان بن المنذر ان يرسل اليه رجلا عالما بما يريد أن يسأله فيه . فوجه النعمان الى كسرى من يدعى « عبد المسيح » ولكن حتي عبد المسيح لم يستطع تأويل رؤيا الموبزان . واستأذن من كسرى في عرض هذا الامر على خال له بالشام يقال له « سطيج » يزعم انه استاذ الرهبان وأمام المحدثين عن علوم بني اسرائيل

سابور — لقد سقطت ثقة الملك بكم !! والا لما ارسل الى سطيج ابن اخته عبد المسيح .

وهران — وكم تكون المصيبة أعظم لو تشقق الايوان بعد دسكرته واصلاحه وبعد أن الصقنا أمر تشققه أولا الى النحوس . وثانيا الى الخطأ الذي لا يسلم معه أحد !! ولا أدري ماذا نقول وقد تشقق للمرة الثالثة ?? الذي لا شك فيه انه سوف لا ينجو منا أحد ..

سابور — واذا لم يكن من الموت بد . فمن العجز أن لا نقول الحقيقة ..

رستم — ولماذا تقدرון كل هذا الهول ما دامت هناك حقيقة منجية ان هذا الرجل لا يخنقه شيء بقدر ما يحقنه الكذب

تشقق الايوان للمرة الثالثة . وهبطت حجرة العرش هبوطا اخل بتوازنها . وعلم الجراة بذلك فراحوا يأتَمرون (١) على ما يقولون وقد

(١) يتشاورون في شكل مؤتمر

طار صوابهم . واضطربت أعصابهم . ويئست نفوسهم . ولكن هيهات
أن يجدى الاضطراب . أو يثمر اليأس . ومالبثوا وهم هكذا حيارى حيرة
البعوض في سحب الدخان . والنحل حول السنة النيران ، حتى صاح بهم
الحراس لمقابلة كسرى . ولم يدعوا الدهول والارتباك أو الاتزان والتثبت
يأخذ طريقه اليهم بل دفعوهم الى بابہ دفعا عنيفا . . وما صافح وجوهم
وجهه . حتى صاح فيهم وقال

والله لاقتلنكم أو لتصدقوني أمرى فأرى رأيي بعد ذلك

السائب — يرتجف — والله لقد بت ليلة على ربوة عالية . فرأيت
برقا من قبل الحجاز وقد استدار حتى بلغ المشرق ولما أصبحت رأيت
الارض تحت قدمي قد اخضرت وما أرى الا أن سيخرج من الحجاز سلطان
يلعب المشرق . وتخصب عليه الارض كأفضل ما أخضبت على ملك

سابور — يرتعد — وما رأيت أيها الملك منذ ليال الا انجها تتدلي
في مثل جبال من النور جهة الحجاز . حتى كادت تلامس المنازل ولا أرى
فيما اعتاف (١) الا ما رأى السائب
ثم دخل (مرزبان) الحرس وأخبر بحضور عبدالمسيح من بلاد الشام
فأذن بدخوله ثم قال له

ما وراءك يا عبدالمسيح

عبدالمسيح — حدثني سطيح وهو على فراش الموت وقال (بعثك
ملك ساسان ، لا ارتجاس الايوان ، وخمود النيران ، ورؤيا السويزان ،
رأى ابلا صعبا . تقود خيلا عربا ، قطعت دجلة وانتشرت في بلادها

(١) انفسر

يا عبدالمسيح . اذا كثرت التلاوة . وبعث صاحب الهراوة (١) وفاض وادي
الساوة . وغازت بحيرة ساوه . وخذت نيران فارس . فليست الشام شأما
يملك فيهم ملوك وملكات . على عدد الشرفات (٢) وكل ماهوآت آت

فأطرق كسري حزينا مغتما ثم قال في صوت متهدج
الى ان يملك منا اربعة عشر ملكا . تأتي أمور وتذهب أمور

(١) العصا — ويقصد الرسول صلى الله عليه وسلم

(٢) عدد الشرفات التي سقطت من الايوان ١٤

انسداد الحاج للمخبر

يجمع هذا الباب بين رحلته عليه السلام
الى الشام بتجارة عمه ابي طالب ثم رعايته
الغنم وحضوره سوق عكاظ ثم رحيته الى الشام
بتجارة خديجة فزوجه بها ثم حضوره مع
أخواله حلف الفضول في دار عبد الله بن جدعان.

« فلو قد جاء البرقليطس (١) هذا الذي »
« يرسله الله اليكم من عند الرب خرج، فهو »
« شهيد على، وأنتم أيضا، لانكم قدما كنتم »
« معي في هذا، قلت لكم لكيما تشكو »
عن السيد المسيح

جلس الراهب (بحيرا) قبالة الهيكل وبسط الانجيل في يده يقرأ فيه على ضوء كوة في صومعته المعتمة تملأها دوائر البخور انشدية تنبعث من موقدة في شكل حلقات متصلة ثم تستحيل في سماء الصومعة سحبا متكاثفة فتزيدها ظلمة، والراهب لا يفر عن القراءة جاهدا والكون حوله في هدأة وسكون لا يعكر صفاءه عليه الارغاء ابل مسافرة فلم يابه لها كثيرا ظنا منه أنها سحابة صيف لا تلبث أن تمر ثم يعود الجو الي هدوئه وصفائه. لكن الرغاء لم يخفت ولم ينتقل بل زادته أصوات الحدأة جلبة وضجيجا حتى استحال على الراهب أن يتابع تلاوته أو يواصل اطلاعه وقراءته. فأطل من كوته على مبعث الضحيج والجلبة. وراح يسرح نظره في الركب فاذا بتقاسيم وجهه تستيقظ فجأة واذا بحاجة يرتفع. وعينه تجحظ واذا بيديه تحازي منكبيه كأنه مسلم ينوي للصلاة لولا ما عليه الراهب من دهشة وعجب ثم راح بعد ذلك يشير بسبابته ويحدث نفسه ويقول :

هو بعينه ! ازهر اللون . واسع العينين . متصل الحاجبين . مبسوط

(١) كلمة يونانية معناها احمد . وما ذلك الا لتطابق الآية الكريمة ، وهي قوله تعالى حكاية عن نبيه عيسى (ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه احمد)

الجبين . عريض الصدر على حدائته . شثن (١) الكف . وهاهي الغمامة
تظله أينما غدا أو راح . والشجر يحنو عليه وينحني اذا أسند ظهره الي
ساقه نظراته الى الاشياء مبعث تأمل وتفكير . وأمره في الركب انجيل
وشريعة رغم وجود من هو أسن منه

ياله من يوم سعيد أن أرى نبي هذه الامة في اهاب هذا الحدث
انها لتطابق أوصافه وانها لتطابق ما جاء في الانجيل

ثم وضع يده تحت ابطه وسكت هنيهة . وان كانت عوامل التفكير
لا تزال تتناهيه وتثقل رأسه . وتشعب وجهه ثم عاد فوضع سبابته عند
صدغه . كأنه يتذكر شيئا وقال

ولكن بقيت علامتان لو تفقدتها فوجدتها لكان هو سيد هذه
الامة بعينه وما الحيلة الي ذلك الا ان أدعو الركب الي طعام . قد
يكون خشنا في نظرهم أو دسا . ولكنه على أي حال هو وحده الوسيلة
الي تعرف ذلك وهو الطريق الي ما حدثنا عنه كتاب بن مريم العذراء
سيما وقد حطوا رحالهم وحلوا متاعهم . وأخذوا من جوارى مستظلا
ومستناخا فلا ضرب بن عصفورين بحجر واحد ولا جمع بين التعلم والتكريم

ثم نزل من صومعته واستقبل سيد الركب أبا طالب وتعرف اليه ثم سلم
على محمد الصغير ورؤساء القافلة ثم أخذ يتحدث مع أبي طالب عن اتجاه
الركب ومهمته

وبينما كانت شفته مشغولة بالحديث معه كانت عينه تغدو وتروح في
حركات رسول الله وسكناته وملاحه وتأملاته .

فقبل النبيل أبو طائب دعوته ثم استأذنه الراهب في الانصراف.

ليعد عدته

ثم أخذ أبو طالب يفكر في سر هذه الدعوة وما الداعي إليها وما عرف الكرم طريقه إلى هذه البلاد من قبل وما عرفت منازل الرهبان قبل ذلك بأنها مواعد للضعيفان . وهم هؤلاء الزاهدون في الدنيا وأهلها البعيدون عن زخارفها ومترفاتها . اللائذون بركن العبادة عن غمار الناس وأخطاها . ولكن ليس غريبا أن يوجد في بلاد الشح كريم . وإن يحل بين الرهبان عظيم يدرك أن الزهادة ليست في التجاهل بما يجري في الميدان وإن الورع ليس في التخلص من مبعث الشهوات في الإنسان ولكنه مجالدة وجهاد واختلاط وامتزاج ودراسة وتأمل . ثم تغف وعصمة وحرمان ولعل لتأملاته — وهو خبر هذه البلاد — في ابن أخى علاقة بذلك وسرا فاحل محمد بمكان إلا كان له فيه نبوءة . وما وقعت عينه على شيء إلا اضفى عليه سرا فلعلها حلقة من هذه السلسلة التي لا تنقطع . وتفحة جديدة من تفحاته التي لا تنفذ . أنها والله لاحدى حسنات عبد المطلب على ولده . ان يعهد الى بكفالة محمد . وأنها لاحدى المكرمات أن يتشبت محمد بمصاحبتى . وكنت لا أرى ذلك اشفاقا عليه من وعشاء السفر وهاجرته فأحسن الله إلينا به بالرغم منا . وتتابع بركاته من كل ناحية علينا وعما قريب سينكشف كل شيء حولنا .

ثم جاء وقت الغداء ومدت الموائد حافلة بهدايا النصارى الى عالمهم وامامهم ودعى (بحيرا) الصغير والكبير والاحرار والعبيد فجاءوا جميعا وتحلف رسول الله حياءا في الرجال لحدائنه سنه فلما أجال (بحيرا) نظره في القوم لم يجد بينهم محمدا الذى أوم الوليمة من أجله فخشي أن

دعوه بشخصه أو اسمه فيدرك القوم مأربه وقد يوفوتون عليه غرضه
بمال :

يامعشر قریش لا يتخلفن منكم عن طعامي احد
فقال له أحدہم .

ما تخلف أحدینبغی له أن یأتیک الاغلاما هو أحدث القوم سنا فقد
تخلف حیاء من الرجال .

فاغمض بحیرا عينه وعلا وجهه بعض السکدر وقال :
لا تفعلوا . أدعوه فيحضر هذا الطعام معکم .
ثم انتصر لرأیه آخر وقال :

انه للؤم بنا أن يتخلف عن طعامنا بن عبد المطلب بن هاشم
ثم لا ندعوه اليه . ثم انتصب واقفا وذهب الي الرجال واحتضن رسول الله
ثم حمله الي حيث الطعام وأجلسه عن عین (بحیرا) بينما اخذ یحدثهم عن
سماعة المسيحية وأخبار المسيح .

ولم يقصد هذا النوع من الحديث الا لمجرد انه يستظهره . فلا یحتاج
معه الى تفكير أو انتباه لیستطیع أن یضع رسول الله موضع دراساته
وتأملاته . ویزن حديثه وبوادره وكما بدرت من رسول الله بادرة أو آتی
حركة أو تحدث حديثا ازداد الراهب اقتناعا بأن هذا الشاب لا بد أن
یکون محمدا وان كانت هناك علامتان لا یزالان يشغلان حیزا من ذهنه
یرى فیهما مسك الختام ، وان كانت احداها رهينة سؤال لابی طالب
النوی النفس النبیل الشائل ، أما الثانية فتلك التي أخذ یقلی من أجلها
سبله ویستعرض لها أحابله

ثم توجه الى أبي طالب وقال :

١ - يا أبا طالب أسألك بحق اللات والعزى (١) ألا ما أخبرني عن
علاقة هذا الغلام بك فغضب رسول الله غضبة ظهر أثرها على وجه الزاهد ،
وقال ابجيرا :

- بحقك لا تقسم أُمّمي باللات والعزى فوالله ما أبغضت شيئا بغضي لها
ثم كان أقل الجميع طعاما . وأسرعهم قياما . لا ندرى أمن تأثير الغضب
أو الشعور بالشبع ... فرد عليه وقال :
- انه ابني ..

فقطب (بجيرا) جبينه وراعه دهشته كمثل التي تروع الباحث حين
يرى ان النتائج جاءت على عكس المقدمات ومغايرة لما كان ينتظر . ثم تماسكت
نفسه وقال في استغراب :

- ابنك ؟ ؟ !! وكيف ذلك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا
ابو طالب - انه ابن أخي وقد مات أبوه وأمه حبل فـكفلته بعد
جده الذي احتضنه منذ صباه

فاستقرت نفس بجيرا في صدره وزالت من جبينه خطوط الاستغراب
والدهشة التي كانت . وقد ارتسمت عليه عوامل الاطمئنان والهدوء .

وان كان ما برح مشغولا بالعلامة الطبيعية الاخيرة في رسول الله
ثم أخذ يحدث أبا طالب في هذه المرة عن التجارة وأصنافها وأرباحها
وما تتعرض له . ثم عن أقشة الشام وحريرها . ثم قال :

- ولعل لباس ابن أخيك من نسيج (اورشليم) أو (عالية) ونخيل
لي أن صنفه متين الشعر قوي النسيج ثم انتصب واقفا متظاهرا بأنه يريد
أن يسبره .

(١) ان (بجيرا) قد أقسم باللات والعزى لضيوفه ومجاراة لهم فيما يقسمون

فجاء من خلف رسول الله وفيما يلي قفاه وأخذ بطرفه يعرّكه في يده
ويطيل فيه . ولم يكن ذلك الا حيلة لرؤية خاتم النبوة بين كتفي النبي
صلى الله عليه وسلم ، وما وقع نظره عليه حتى شفق شهقة دفيئة وراح يكبره
ويحمله وأيقن ان هذا سيد هذه الامة . ورسولها من لدن رب العالمين .

ثم نادى الى حيث جلس ابو طالب وفي نفسه غبطة يمازجها الاسى
بتحقق زعمه وقرب تقلص سلطانه بظهور صاحب الدين الجديد .

ثم قال لأبي طالب :

- لقد صدقت يا أبا طالب وأرى أن لا توغل في بلاد الشام به
واحذر على ابن أخيك من شر اليهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه
ما أعرف . لبغوا عليه شرا فانه كائن له شأن عظيم . وقد جاء فيما أثبت
(يحنس) الحوارى حين نسخ الانجيل عن عهد يسوع الحى في صفة ابن
أخيك (من أبغضني فقد أبغض الرب . ولو لا انى صنعت لحضرتهم
صنائع لم يصنعها أحد قبلى ما كانت لهم خطيئة . ولكنهم من الآن بطروا
وظنوا انهم يعزوني . وأيضا للرب . ولكن لا بد أن تتم الكلمة التى فى
الناموس انهم ابغضوني باطلا .. فلو قد جاء البرقليطس (١) هذا الذى
يرسله الله اليكم من عند الرب خرج ، فهو شهيد على وأنتم أيضا لانكم
قدما كنتم معى فى هذا .. قلت لكم لكيلا لا تشكو)

(١) كلمة يونانية . معناها أحمد ويرادفها فى السريانية (المنعم)

« ما بعث الله نبيا الا رعي الغنم فقال
« أصحابه وأنت .. فقال نعم كنت
« أرهاها على قراريط لاهل مكة »
حديث شريف

هذه سحابة من التراب تنعقد في الفضاء عند مطلع الشمس لا ندري
ما وراءها أهو جيش قريش جاء يزحف نحو الطائف أم آثار قطيع من
الغنم يسعى نحو هذه الاعشاب المترامية في بطن هذا الوادي السحيق ؟
أكثر الظن يا عبد شمس أنه قطيع من الغنم وهذه أرجلها الصغيرة
تلمع في هذه الظلمة وتغاؤها المتقطع تردده أجواز الفضاء خلف حجاب
هذا التراب المتطاير من وقع الحوافر وهذا صوت راعيها ينبعث عن بعد
يهيب بصاحبه ويهتف به الى الانتباه واليقظة عند اجتيازهم للمضييق المحاذي
للجبل لما اشتهر به من ايواء الذئاب خشية أن تذهب واحدة من غنمائه
ضحية ضباب الصباح تحت تلك السحابة التي لا تفارق القطيع في سيره
غدوا ورواحا

وهاهي ذى الساعة تدنو نحونا يسوقها شباب أنت تعرفه ولعله ابن
جارك الذي حدثتني في شأنه بالامس مليا وذكرتك لي حسبه ونسبه ونباهة
ذكره ونباله شمائله وحسن الاحدوثة عنه غير أن ذا كرتي قد خانتني في
اسمه فاصبحت لا اذكره .

عبد شمس - ويبك ياسعد !! هو بعينه محمد بن عبد الله .
سعد - ابن عبد الله ؟ ! لقد حدثتني بالامس ان أباه أبو طالب .

عبد شمس - هو أبوه وعمه مادام أبوه قدم مات وله في بطن أمه
شهران فكفله جده. ثم عمه. حتى بلغ هذا السن وأصبح قادراً على رعاية
الغنم يذود عنها عوادي الجبال ويوردها موارد الخير والبركة وما استاق
غنائماً لا حد الا تضاعف نسلها وكثر نتاجها ودر درها ونمت البركة فيها
حتى أصبح محل التنازع عليه ما بين مكة والطائف.. انظر اليه يستبق عوده
سنه. ويغالب نموه عمره. ثابت الخطو تبدو على ملامحه سيما التفكير
والتأمل، في نظراته سلطان الأمر الحازم المطاع. فهل تظن أن مثل هذا
في سن الخامسة عشر انه ليسعدك مجلسه ويهنئك مأنسره. قليل الكلام
دائم النظر في مطلع الشمس كأنه مفتون بها. معن التفكير في التقاء حمرة
الصحراء بزرقة السماء كأنه يبحث عن شيء بينها. كثير التأمل في وجه
النجوم كأنه مو كل بعدها

ثم انظر اليه بين اغنامه كالملك العادل أو رب الاسرة الرحيم مسح على كبارها
ويحنو على صغارها ويذود القرناء عن عجافها ويتمهل عليها حتى تتناول
العشب وترد الماء وهاهو قد جلس ليستريح في ظل شجيرة السعدان القريبة
منا ثم أخذ يتامس طعاماً يحمله معه أغلب الظن أنه من قديد الشعير وجاف
الادم، وإنه يجاهد في اقتضامه ويقاسى في تجزئته ومضغه دون أن تمتد يده
على شاة حلوب يلين بألبانها قسوة الخبز لانه لا يملك كهاولا سلطان له عليها
ثم هاهي عجوز شطاء تيعم نحوه ولعلها ذاهبة في طلب الحاجة فلتنظر
ماذا هو فاعل.. يا لله!! لقد منحها كل ما كان في يده ولعله وجبة اليوم
بأسره لقد جن جنونها من الفرح وارتفعت يداها المرتعشتان له بالشكر
والدعاء وانها لتكاد تقع على الارض من هزة السرور ورعدة الجزل
وتتلفت عن يمين وشمال لئلا تكون على مقربة منها من تسول له نفسه باقتسامها

الطعام ثم راحت تهوي بفمها على لقمائها فيرتد لصلابتها ويبسها فعادت اليه تطلب منه ماءً لتلين بها طعامها ففتحها راوئته فشربت حتى علت ثم أراقت الباقي فوق كسيرات الخبز لتلين من خشونته . ياله من حلیم إنه رغم هذا لم يغضب ، ولا أدري كيف يقضي سحابة يومه طاوياً ظامئاً

ثم هاهو يعود الي غنياته يمسح عليها بيده فتبدله عطفاً بعطف . وحبا بحب وتمسح رؤوسها وأعناقها به وتذوده بقرونها دعاة له ومزاحا . إنه يجمع أخطايا ويضم بعضها الي بعض لعله يريد أن يتوسدها ليسترىح قليلاً من وعناء السير وقيلولة الهاجرة فتشد حملة اغنامه عليه برؤوسها كأنها لا تريد منه ذلك . فيبتسم ثم يجلس ليزودها عنده فلا تلبث أن تعود ثم لا تلبث تحت رغبته الملحة أن تهادنه وتحيط به كأنها تقوم على حراسته سعد — لا عجب .. فأهل هذا الحرم تد كل يوم شاذاً وتأتى كل ساعة بغريب . ولعل جده هو ذاك الذي نذر للآلهة أن يقدم أحد أولاده ذبيحاً بين يديها اذا تسكامل عددهم عشراً كما روى لنا الرواة في المدينه والذي جعل من أسيافه الذهبية باباً للكعبة وهي كل حظه من ثروة (جرم) (١) كما حدثنا بذلك حداة القوافل .

عبد شمس — لقد هيجت يأسعد اشجاني .. واثرت حولي اطياف الذكريات وأشباح الالم بذكرك عبد المطلب ، وحق هذا البيت والحرم . ما رأيت قريش عهداً كعهده ولا شركة كأيامه منذ قضي عبد المطلب نحبه واختلفت بنوه من بعده ، وقريش كالعود اللين يصهره كل قبيل ويثنيه كل عاد .

(١) القبائل التي طمرت بشر زمزم وأودعتها ثروة عظيمة تتكون من غزالين وأسياف وأدرع من ذهب .

سعد — غير أن لآل عبد مناف شهرة تجارية مترامية فيما بين بلاد العرب والشام فلعل من شذوذ هذا الغلام، صدوده عن العمل في التجارة وانصرافه إلى رعاية الغنم

عبد شمس — أنه قد صاحب عمه في تجارة إلى الشام ولكن عمه لم يصب منها ربحه المنتظر، فلم يعاودها ككرة أخرى ولم يرحل بعد ذلك فراح الغلام يعمل في رعاية الغنم على قراريط وفي الحق أنه عمل راجح سعد — اذن فسوف لا يشهد غدا عكاظ (١) ما دام مكث ودأ في عمله مشغولاً بغيره عزوفاً عن مطارح الهوى ومنتدئ الشعر والتناظر عبد شمس — لا أعتقد أنه من الزهد في لقاء الناس إلى حد الحرمان من مشهد عكاظ .

* * *

بين أحضان (عرفات) وفي ظلال قمم الشامخة ، فضاء شاسع ومهيبة فسيح ، قد امتلأ بالشيوخ والشبان . والنساء والصبيان . بين مشاة وركبان . لا تزال تقف إليه الناس من كل جذب وصوب كأنه يوم الحشر قد فرغ الناس إليه من كل ناحية وسار عواجنه من كل فج لولا ضجيج يسم الآذان وقباب متناثرة كالأعلام . وحلقات متجاورة كأنها سلسلة من جمان (٢) لا يشوه نظامها إلا بعض قطارات الابل تغادر عكاظاً بعد قضاء حاجتها بقودها رجال كأنهم في ثيابهم البيض غائبين من العاج قد وقفت على قدمين من مادة المسك وركبت عند مناكبها وجوه من الابنوس قد تدلت شعورهم الكثيفة الجعدة حتى غطت أقميتهم ولا مست المناكب . يتبعها بعض الحمر

(١) سوق يجتمع لها العرب من جميع أنحاء الجزيرة للتجارة والبحث والمناظرة
(٢) ذهب

لهزيمة تعاون في حمل الجلود والحبال والأقشعة كالزوارق الملحقة بالسفن
لماخرة عباب المحيط .

فاذا شققت هذه الحميلة البشرية الفيتها مروجاً تساقط عليك جنيا من
الادب وغضا من البحث والتناظر .

وهذا قس بن ساعدة يقف خطيباً يقول :

أما بعد فيا أيها الناس . اسمعوا وعوا . واذا وعيتم فانتفعوا . انه من
عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، مطر ونبات ،
وأرزاق وأقوات ، وآباء وأمهات ، وأحياء وأموات ، وجمع وأشتات ،
وآيات بعد آيات ، ان في السماء لخبراً ، وان في الارض لعبرا ، ليل داج
وسماء ذات أبراج ، وأرض ذات تجاج ، وبحار ذات أمواج ، مالي أرى
الناس يذهبون . فلا يرجعون

وهنا مال سعد على اذن صاحبه وقال :

— من أى القبائل هذا الخطيب المفلق

عبد شمس — من « إياد ... حى في معد »

سعد — لم أسمع والله من قبل خطيباً يهدر كبحره . ويعظ كحكيمته .

ويطيل كبعائه

عبد شمس — دعنا اذن لنسمع بنية مقولته

سعد — جادك الغيث . . هذا محمد بن عبد الله الصغير في طيلسانه

الايض وهراوته المديدة قادم

عبد شمس — دعنا منه وأبيك . لنسمع هذا الرجل وهو يقول :

— أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تركوا هناك فناموا . أقسم قس قسماً

حاتماً لا حاقد فيه ولا آثماً . ان لله ديناً هو أحسن من دينكم الذي أنتم

عليه . ونبيا قد حان حينه . وأظلمكم أوانه . فطوبى لمن آمن به فهده .
وويل لمن خالفه وعصاه ، تبارك الرباب الغفلة من الامم الخالية والقرون
الماضية ، يامعشر اباد ، أين الآباء والاجداد ، وأين المريض والعواد ،
وأين الفراعنة الشداد . وأين من شيد وزخرف ونجد ، وغره المال والولد ،
أين من تجبر وطغي ، وجمع فأوعى ، وقال أنا ربكم الاعلى ، ألم يكونوا
أكثر منكم أموالا وأطول منكم أجالا . وأبعد منكم آمالا . طعنهم الثرى
بكلا كله . ومزقهم بتطاوله ، فتلك عظامهم بالية ، وبيوتهم خاوية ،
عمرتها الذئاب العاوية .. كلاب بل هو الله احد المعبود ، ليس بالدولامولود
- ألا تري ياسعد انه قد انبسطت أسارى ردضاء محياه لهذا الكلام؟ .

ثم هاهو ذا ينتقل الى حلقة أمية بن أبي الصلت ، فلنتقل خطاه فاني
شغوف بكل ما يبدر منه ... ويح أمية ان إشادته بالخر وتمدحه باللات
لم ترق في نظر الفتى محمد ، حتى لقد سم كلامه وانتقل الى حلقة حسان
ابن ثابت فلنتابعه . . انظر اليه وقد اطلق برأسه الى الارض يصيخ
اليه وقد سرت حمرة البشر في جبينه ولعل ذلك لتفاخر (حسان) بقريش على
بقية القبائل غير أنه قد عاد الى طبيعته ككرة أخرى دون أن تظهر عليه
آثار الفرح أو الامتعاض وأكثر الظن أن ذلك لان شاعرنا المجيد راح
يضع شراكه في طريق الغانيات ويعمن في النغزل . ثم هاهو يفارق حلقة
حسان الى دائرة شامول اليهودى يدعو الى ما اسماه دين ابراهيم وما سمعنا
بهذا في آبائنا الاولين ولعل ذلك مما سيسره فهو بطباعه قلة في الناس شأنه
شأن من قصد اليه مع زميله زيد بن عمرو بن نفيل يجمعهما الخروج على
الجماعة والشذوذ عما تواطأت عليه العرب وقد كان بالامس بيننا سيدا فلما
صبأ نبذناه وراءنا ظهريا ألم أقل لك ياسعد أنه سيسره هذه وهذا هو

يشب علي مقدمة قدمه ليقرأ آثار الكلام على وجه الناس، ووجهه يطفح
بالبشر دون أكثرية الحاضرين الذين علت وجوههم غيرة الغضب ثم هاهو ذا
بعد ذلك تراه لا يحفل بغضب الناس وشعورهم ويذهب الي حلقة النصراني
ورقة بن نوفل وصديقيه (العاقب والابهم) وكلهم يدعون الي دين عيسى بن
مريم ويناقشون قريشا في دينها ويعرضون بالهتها معتصمين في هذا بجلال
الاشهر الحرم .

وتراه بعد هذا، على شيء من الغبطة والجلول . كأنه يسعد أكثر
ما يسعد من عشكلان الحميري ولعلها نعمة صادفت في نفسه شأننا مريحا
والشودته في جده ابراهيم وأدركت من فؤاده مكانا فسيحا
سعد - ولكن ألا تري أن كلام عشكلان الحميري علي مقربة من
القل ؟ وإلا فما الذي يدعو به الي احتمال هذا العنت من أهله وبني قومه
وقد كان بالامس سيدا فيكم الا أن يكون مؤمنا بدعوته مضحيا من
أجلها بكل سيادته ومكانته .
عبد شمس - ويحك ياسعد كأنك تريد أن تصبأ بدورك وان تعود
بغير دينك الي أهلك

سعد - اقسم برب هذا البيت أن لهذا الغلام لشأنا وستعلمن نبأه
بعد حين . .

هذه قريش وكنانة جاءت بخيلها ورجلها ونسائها ورجالها تسبقها
الي مكة سحب من التراب كثيفة تكاد تحجب ماوراءها . لولا صهيل
الخيل ورغاء الابل . وسرعة الزحف يتقدمها حرب بن أمية في ثوب
لقائد يطوف حول سوادها فوق جواده الاشهب وتفقد وحداتها عن

شمال وجنوب ويهيب بها الي الاسراع في الدخول الي الحرم قبل فوات الوقت . والقوم ينظرون خلفهم كأن عدوا يطاردهم . ام جيشا من الكواسر يهددهم ولما تنته أيام عكاظ !! وما هذه بالعودة المألوفة والرجفة المعروفة لاحادى يحدو بينهما ولا عازف يعرف أمامها . ولا طائفة تملو وجهها ولا هدوء يشق طريقها ولا بضائع قد تفق سوقها أو نقد مجموعها . فليت شعري ما السبب . ولعمر أبيك ما هذا العجب . أي لحظة نحن أم في منام؟ الصامت - والا عجب من هذا أن النساء والشيوخ والصبيان بم عزل عن الكهول والشبان ؟ كأنها على استعداد للنزال واسكنهم عادوا فوقموا يتشاورون . ولعل ذلك لتوديع النساء والاطفال

سيف - رويدك فعما قريب ينكشف الخطب وها هو عبد شمس بن لحي مع ضيفه سعد قد وافا مسرعا الي أهله . فلنعترض طريقه حتى نعلم منه هذا السر العجيب ..

ما هذا يا ابن لحي ؟ وما الذي جاء بقريش على هذا الحال عبد شمس - دعني مؤقتا حتى أحمل كل سهامي قبل هجوم العدو . ثم تركه مع ضيفه « سعد » وانصرف الي أهله يسابق الريح

سيف - عدو؟ أي عدو هذا ولأي سبب تقوم الحرب في الاشهر الحرم ؟ سعد - فيما انتهى البنا أثناء الطريق أن النعمان بن المنذر أراد أن يؤمر علي رواحله الذاهبة بالتجارة الي « عكاظ » رجلا قوى الشكيمة شديد البأس فتقدم له البراض السكناني وعروة الهوازني . فوقع اختياره علي عروة فحقق البراض عليه وتابعه في السفر ينتظر منه غنمته . حتى ظفر به ، وعدا عليه وقتله فشالت نعمة قريش وكنانة الي مكة قبل أن يصل الخبر الي (هوازن) فتدور بينهما رحي القتال وتذهب قريش

وما معها أدراج الرياح . قبل أن تتمكن من الدفاع عن نفسها وأموالها
ازاء هوازن وهذه الاشهر الحرم تنام فيها الاحقاد ويغمد فيها السلاح
وتحقن فيها الدماء ولكن يظهر أن « البراض » ذلك الشقي التعس ابى
الا أن يعكس صقو عكاظ وان ينتهك حرمة الاشهر المقدسة في آبائنا
الاولين وان يثيرها فتنة شعواء تأكل الاخضر واليابس ولعل قريشا
تتلافى هذا الخطر باللجوء الى الحرم حتى تضيق الى حرمة الشهر حرمة
البيت فيحقق ذلك عصمة الدماء ولكن . الويل للشقي . هذه هوازن قد
جاءت في ثورة الليوث وغضب الكرامس ولا مناص من الحرب فانها لا محالة
مدركة قريشا وكنانة قبل أن تتمكن من الوصول الى الحرم (يالها من
حرب الفجار ! قد التحم الفريقان . ولكن شبان قريش علي دراية بأعاط
الحرب ، وهام اولاء يتقهغرون صوب الحرم في حيلة موفقة وعلم بضروب النزال
ثم باتت قريش وحليفاتها على حرب مع هوازن وبدأت دورة القتال
في الصباح :

وبكرت ضيوف مكة ورواد « عكاظ » الى شهودها من فوق الربا
والآكام وكان من بينهم « سعد » ضيف عبد شمس بن لحي وصديقه .
ثم انتبه رفاقه علي صيحة منه وهو يقول .

ياله من شاب قوي العود . لذن العضلات موفق التسميد . مصيب
الرمية . فهو في السلم تاجر وراع . وفي الحرب رائس لذاع وكمي شجاع .
وائل — من هذا الذي تصف ؟

سعد — ذلك الشاب الحدث محمد بن عبد الله بن عبد المطالب سيد
قريش . ثم اشار بيده صوبه وقال هو هذا . الامرء الذي يحيد النزال
ويجمع النبال ويرد على عدوه النصال في مهارة لا يعمل اليها كبار الابطال

« ما أحب أن لي بحلف حضرته في »
 « دار عبد الله بن جدعان حمر النعم »
 « ولو دعيت به في الاسلام لاجبت »
 حديث شريف

جلس الزبير بن عبد المطلب على مصطبة (١) عند الغروب حاملا رأسه على راحته . تأنى في محيط من التصورات الالهية . مستعرضا مجد قریش وعزتها وشوكتها ومنعتها . مستذكرا بأس أبيه عبد المطلب وصلابته ونفوذه ومهابته . ثم ما حل بقریش بعده من الانحلال والتفكك . والتفرق والتنازع . مما أدى الى الاستهانة بها . ووطء كنفها . واقتحام حماها وتزريق شملها ، وكان كلما تكتبت عليه أشباح الذكريات . ودنت منه طيوف الهزيمة اتسعت محاجره وغارت عينه وتجمدت جبهته وشالت حواجبه فتراجع الى الوراء كأنها تهيب به وتهاجمه وتغالبه فتغلبيه . حتى أفاقه من غشيته وأيقظه من سهرته . صوت حرب بن أمية يلقي عليه تحية المساء فاستدعاه لمجالسته في لهجة الموحش ولغة النضال في بيداء الظلام ولهفة الخائف المرتعد قد وضع يده على جبل الأمان ورمق بصره جادة السلام .

ثم ابتدر حرب ابن أمية صاحبه وقال :

— مالك يا ابن عبد المطلب كأنك في مأثم .

الزبير — لا شيء .. انها ذكريات وطيوف حملت الى نفسي مجد

(١) بفتح الطاء وتشديد الباء — المعروفة بين الناس بالمصطبة بفتح الطاء والباء معا

قريش التليد وعزتها التي اصبحت مهلبة حتى طمع فيها الطامعون . وهاجمتها
مثل هوان !! بعد أن كانت حصنا منيعا وطودا رفيعا لا يعطى صهوتها
ولا تنال قمتها ولا تقتمح عريستها (١)

حرب - قد كان هذا يوم كنتم وبني أمية متنافرين . ويوم كنا على
غير أمل في لقاء . أو اجتماع في وفاق أو رقاء . ولكها الشدة تؤلف
القلوب المتنافرة . وتجمع الاعضاء المتشعبة وتنظم الصفوف المضطربة
المتدايرة حتى أصبح بنو هاشم وأمية يؤلفون معسكرا واحدا ضد
هوازن وأمثالها بعد أن انتهكت جلال الاشهر الحرم وتداعت للحرب
أمام الحرم . وان كان الامر كما قال ابن أخيك محمد الصغير - نعمة خيثة أن
تشن الحرب بين قبيلتين من أجل حقد حاد أو بلغة أجير . أو لبانة وسيط
اكار فتتقد رهوس وتزهق نفوس . من أجل بغية راعى غم أو حادي
أبل - كذلك الشقى الفاجر البراض بن قيس الكنانى .

لو أن الحرب على مرعي أو ماء أو نخيل أو سائمة للجميع أو شرف
أو ديانة للحدود والآباء . لهانت الانفس ورخصت الدماء . فبذالو وضعت
لمثل هذه الخطوب حدود . وقام على حماية بيضتها عيون شهود . تأمن
الخائن وتطمئن الالهيف . وتعين الضعيف . وترد المظالم وتضع الحق في نصابه
فشعت على فم الزبير ابتسامة في الظلام ثم اتكا على وسادة خلفه .
وانغمض جفنه في دعة وقال :

يا لها من خاطرة صادفت مكلها . ووافقت محزها . وكأنا ونحن في مكة
نتحدث بما في رأسك غداة اليوم وأنت بالطائف
حرب - مبيتها - وكيف ذلك ؟

(١) بيت الاسد .

لقد داوت هذه الحرب الفاجرة فينا داء التفريق فاصبح بنو عبد مناف
وبنو أمية بفضلها إخواناً . وشقت منا داء التشيع بالحق وبالباطل .
فدعوت بني هاشم وبني عبد المطلب . وأسد بن عبد العزي وزهرة بن
كلاب وعميم بن مرة وأرسلت في طلبك فأنهت إيلينا انك في الطائف .
وعلى ذكرك محمد الصغير بن أخى عبدالله . أقول لك - قد كان بين المجتمعين
مع عمه أبى طالب وتعاهد الكل على صيانة حلف الفضول وحراسته
وانقاذه حتى يأمن الضعيف شر القوى وتطمئن نفس الـهيف الى ما يخاف .
وترد المظالم الى أصحابها ويسود الحق والعدل بين الجميع (١)

حرب - لقد أسعدتني بجديتك وأهنأتني بروايتك ونشرت السلام
علي ربوع الحرم بهذا الحلف وأزكيت في نفسي المحبة للفضل والمفضل
والفضالة والفضيل الذين وضعوا هذا الحلف من قديم ولا أنس شاعرهم
وهو يقول :

ان الفضول تحالفوا وتعاقدوا ان لا يقر ببطن مكة ظالم
أمر عليه تعاهدوا وتوافقوا فالجار والمعبر فيهم سالم
واذا كان الامر كما ذكرت فاماذا أنت مهموم مغتم، سبوا قد انتصرنا
علي هوازن نصرنا مؤزرا
الزبير - هذا صحيح ولكننا قد دفعنا الثمن وما كان لقريش أن تدفع
نمن نصرتها في غير الميدان ، فبالامس سامنا واد من الابل لهوازن دية
لعشرين رجلا منها زادوا علي قتلانا في حرب الفجار

(١) ولرسول في هذا الحلف حديثا يقول فيه : (ما أحب انى لى بحلف حضر
في دار عبد الله بن جدعان حر النعم . ولو دعيت به في الاسلام لاجبت)

فزفر حرب زفرة حارة وقال: تبا للبراض الكناي ذلك الشقى المجرم،
وري نارها، وأشعل شررها، وزج بنا إلى هذه المفاوز الوعة والمضايق
الملتوية، ولكن هيهات أن تعود هذه الحرب من جديد بعد أن وضعتم
حلف الفضول ذلك الذى أثاره فى رأسى ابن أخيك محمد الصغير فى
حديث مع عمه وما كنت لاعتقد أن تحمل رأسه كل هذه الحكم، ويفيض
لسانه بمثل هذا البيان، وتنتهي إليه مثل هذه الاساطير على حدائته
وقد حدثتني انه حضر هذا الميثاق في دار عبد الله بن جدعان فهل
دلي بدلوه بين الدلاء أم اكتفي بالصمت والشهود

الزبير - إن ابن أخى قليل الكلام وقلته اغلته، فما تحدث فى مجلس
الا وانصت السكل لحديثه، رغم كراهية البعض ونفورهم من ان يتحدث
فى مجلس الشيوخ حدث، ولكنهم كانوا وحقك فى حيرة من أمره،
لم يتصل بمعلم، ولم يدرس فى كتاب، ولم يسافر الى الشام أو فارس
ليجلس الى أخبار أو رهبان، ولكنه مع هذا مترن الحديث عذبه، رصين
العبارة، يفكر قبل أن يتكلم ويتكلم حتى يحسن السكوت من بعده
فتتحدث عيون سامعيه بالدهشة وتشع فى جباههم معالم الحيرة فلا يكاد
أحد منهم يمين

« ما غرت على أحد من نساء النبي صلى
 « الله عليه وسلم ما غرت على خديجة وما رأيتهما »
 « ولكن كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر
 « ذكرها وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء »
 « ثم يبعثها في صدائق خديجة. فربما قلت له »
 « كأنه لم يكن في الدنيا الا خديجة فيقول »
 « انها كانت وكانت . وكان لي منها ولد »
 عائشة زوج النبي

هذه خديجة تطل من نافذتها وبجوارها صديقتها نفيسة علي مستنخ
 الابل السكثيرة يقوم خولانها وعبيدها بتحميلها الجلود والحبال والاقشة
 الخمينية وشد الحبال عليها حتى لا تتصرم البضائع أثناء الطريق من هزات
 السير وتأرجحه ثم يبدو لها بعض الاخطاء في طريقة التأهل أو في تقدير
 ما ينبغي أن يوضع على بعير لم يكتمل نموه أو في طريقة توزيع الميرة
 والماء فتدعو صديقتها نفيسة الي مشاركتها الرأي فيما ارتأت فاذا وافقتهما
 رأيتها أخذت تبحث عن أمينها « ميسرة » لتبلغه رغبتهما . ولكنها قبل
 أن يقع نظرها عليه وتهم بمناداته يكون محمد بن عبد الله قد أشار بالهام
 نفسه ووحى إحساسه الي تعديل ما رأت خديجة أن يعدل وتكررت اخطاء
 الحداة وتكررت ملاحظات خديجة وتكرر بتكررها مداواة رسول الله
 لها . دون إشارة من جهة أو سانحة من أحد ، فلقت ذلك نظر
 خديجة وصاحبتهما الي محمد . . لفت نظرها أولا ما رأت من سداد رأيه

وحزم ارادته . ونفاذ سلطانه بين من اختلط به وعرفه ثم لفت نظرها ثانية وسامة خلقه . واعتدال قامته واتساع صدره ورحابة ساحته ودعج عينيه . وطول أهدابه . وتسطح جبهته . وتبلج أسنانه وازهار لونه وكثافة لحيته . ولم تكن تنظر اليه قبل ذلك الا كما تنظر الي أجير نابه أو أمين عف اليد طاهر السيرة . فعدت تنظر اليه كما تنظر الي مهبط أملها وأفق مشاعرها ولكنها أخذت تكافح نفسها . وتكافح تقاعلاتها وتحدث صديقتها وتقول لها .

اتعامين من هذا القتي ؟؟ انه محمد بن عبد الله

نفيسة — وهي بين لابتها (١) من يجهل هذا الامين . . . ولكن من جاء به يعمل في تجارة بنت خويلد . وكيف توفين أجر حفيد سيد قریش خديجة — لقد جاءني عمه ابو طالب وراودني في أمر الانتفاع به في قوافل التجارة علي أن يزاد أجره من بكرين الي أربعة أبكار فقلت له لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا . فكيف وقد سألته لحبيب قريب فعدا يحمل له رضا في ما طلب ثم جاء به الي ميسرة وقدمه له

نفيسة — اربعة أبكار !! ؟؟ وحقك لو ملأت حجره ذهباً لما كان لهذه القتي بكفء

كانت خديجة تحدث صديقتها بشفاهاها ولكن عينها ما فارقت ظل محمد يأمر وينهى ويزيد وينقص ويضيف أو يعدل ويروح ويغدو بين أفراد القافلة وقطاراتها والكل يدين لرأيه ويعمل بمشورته كأنه رب التجارة وصاحب العير

(١) جيلان يكتنفان مكة

وما هتف ميسرة للركب بالمسير حتى خفق قلب خديجة خفقة بهرت لها انفاسها وتهافتت معها أوصالها حتى خشيت أن تحونها قدماها فاستندت إلى زاوية النافذة لتلقى نظرة اوداع المزوجة بالخوف لا على أموالها وعيها من عاديات النصوص ومخاطر الجو وعقبات الطريق ولا على خادمها وأمينها ميسره - ولكن على ذلك الذي نزل منها منزلة الابن العزيز حبيبته إليها تصرفاته المستقيمة وأعماله الحكيمة ونشاطه المزن وحزمه السديد وسيرته العطرية . وجماله القاتن

ثم سارت القافلة كأنها سلسلة من صغار الجبال تربطها حبال من مسد (١) أو سرب من النعام الجافل من وجه مطارد عنيد أو قطع من السحب المتشابكة في ذيل السماء في يوم صحو ندى ثم غابت القافلة بين شعاب الطريق وهضابه وعين خديجة ما زالت تقتنى آثارها وتودع أشباحها وتبين معالمها حتى ابتلعها جوف الطريق ولم يبق لها أمامها من وجود.

* * *

ثلاثة أشهر كوامل مرت على خديجة مرور القرون الطوال تستبطن الليالي وتستثقل الأيام وتتجسس الاخبار . وتتمني أن تعود القافلة ولو بشيء واحد هو ولدها وحبيبها محمد . ولو فقدت بعد ذلك كل شيء . لقد أنساها الخوف على محمد أحزانها في فقد زوجها وأغفلها عن التفكير في تجارتها ورواجها وأرباحها ولم يكن يشغلها . إلا أن يعود إليها سالما . ويا طالما أفاقنها صديقتها من تيه التفكير . حين كانت تقف عند النافذة التي الفت عليه منها نظراتها مشبوبة بملقاة فتعاودها ذكرياته وهو

(١) ليف

يهيئ للسفر ويعد للرحيل . ويتردد على مسمعا صوته المليء بالرجولة
وتتخيل خطوه ونشاطه فيقتدي به الجميع رضا . ويحاكيه حبة ثم تسبح
بنظرها الي حيث سارت القافلة والى حيث اتجهت ثم تخلق بروحها فوقه
حيث تظن انه يوجد كأن القافلة بمن فيها قد ذابت في نفسه . وتلخصت
في شخصه .. لا بل أصبح كل ما حولها من مال وعتاد يتلاشى عند ذكره
ويتبخّر في سماء حبه .

وكم صعدت الى عليّة بيّنها الكبير ترمق الطريق . وتطالع الافق
لعل عينها تقع على قافلة آتية تضم ولدها وحبيبها . أو تحمل عنه نبأ سارا
وخبرا مفرحا .. ولكنها كانت اذا تفحصها وكل بصرها وجف لعابها
واحترقت أنفاسها . عادت الى مخدعها كما يعود القائد المهزوم من ساحة القتال
كئيبا حزينا حتى تنفس لها السعد يوما . وشامت عن بعد قافلة تدنو
كأنها سلاسل السراب في بطن الصحراء تغري بالامل وتشجع على
الاطمئنان ، أو قمم الجبال تشافها سحاب الصيف وتطوف بها في دغابة
ورفقا أو حرجة (١) فارقتها زينة الربيع تميل بها النسمات الفاترة شمالا وجنوبا
فاستتطال عنق خديجة وجحظت عيناها تتيبن ما تري وتتفقد . وكما
انفصلت القافلة عن أحضان الافق . وفارقت اكناف الجبال زاد اعتقادها
في صحة ما زعمت وترددت انفاسها لهفة الى قرب اللقاء . وما كاد يقع
نظرها على محمد يتقدم الركب فوق بعيره حتى غابت عيونها تحت محاجرها
وعز اللعاب على تراقبها . وأضحت في شبه حلم لكثرة ما شاع فيها من
جذل وسرور .

ثم جاهدت نفسها وحزمت أعصابها ونزلت تتلقى التهانى بقدم غيرها .

(١) مجموعة أشجار

فألفت خادمها ميسرة يعدم نحوها في حركة لاشعورية . فظنت أنه قد أصاب مؤخر الركب خطب . ولكن وجهه الباش وسنه الضاحك وعيونه اللامعة تحت طيلسانه الأبيض . ووثباته السابحة لا تدل الا على نبأ سار . وبشرى جلية . . وقف بين يدي سيدته لاهت الانفاس فأدركته نظرة سيدته المتجلدة فأطرق إلى الارض حتى حاذت جبهته طرف عصاه . غير أن عوامل الفرح قد غالبتة على وقار سيدته واحترامها . فأخذ يفرك يدا بيد ويرفع رجلا ويضع أخرى . فقالت له سيدته :

— ما بك يا ميسرة ؟؟ تحدث

ظنت انه سيحدثها كعادته عن البيع والشراء وقد اعترمت أن لا تعترض تياره وأن لا تنفي اتجاهه حتى ينتهي من قصة التجارة ويأخذ في سيرة محمد الحبيب معه . . ولكن لشد ما راعها أن تراه ناسيا لعادته تاركا لأسباب مهنته متحدثا بدوره عن صاحبه محمد فقال :

— بماذا أحدث؟؟ والله ما هذا بشر وما رأيت العجائب والمدهشات في رحلة . مثل ما رأيت في هذه الرحلة .

خديجة — ما ذا رأيت تحدث يا ميسرة ولا تطل في شقائي

ميسرة — ما كدنا نغادر مكة اعز الله سيدتي ونفارق جبالها الحمراء حتى أطلت الشمس من خلف القمم تنذر الكون بحر لافح . وشواظ من اللهب . . ولكن كم كانت دهشتنا عند ما بدأنا نسير في ظلال غمامة رحيمة تظلل الركب بأسره ، حتى كأننا نتقيأ الحماثل ونسير في ظلال الجنان . . وكم نفدت مزاولنا فلا يكون لها من معوض في صحراء قاحلة ولا نبع ، إلا أن يضع أصابعه في صباية ضئيلة ثم يسمى الله فإذا بها تقور كأنها عين فوارة ،

فتزاحم الحداة . وتتدافع الاقداح علي أفواه الراويات حتى يعمل الجميع
ويحملوا معهم ما يكفي لبلوغ الماء .

ثم أرأيت يا سيدتي ظباء محوم حول انسان ؟ . وتتمسح رؤوسها بثيابه
فيمسح على ظهرها بدوره ثم تطوف حوله وترفع رؤوسها نحوه حتى
ليخيل إلى أنها ضارعة اليه باكية . ثم تطأ على رأسها وتنصرف؟؟ ثم أسمعت
من قبل أن للاشجار والاحجار السنة تتحدث بها ؟ .

لقد كنا والله نسمع أصوات السلام عليه . ثم نتلفت فلا نري أحدا
فما نزلنا دوحه الا حنت علينا أغصانها . وتساقط علينا جنديها . كأنها الام
الرؤوم تحن على ولدها . وما وقع عليه نظر راهب الا أخذ فجأة وقال :
هذا سيد البشر . وما تحدث اليه حتى استحال وجهه الى قسمة بارزة من الدهشة
والحيرة وقال : لا بد أن يكون هذا هو النبي المنتظر

وبينما كان ميسرة يحدثها في ذلك . كان قلب خديجة يكاد يطير من صدرها
فرحا . وجوانحها تشق السحاب طربا وجدلا ، لولا وقار السيدة أمام خادمها
واناة العرافة ازاء تابعها

ثم راح ميسرة في نهاية كلامه يحدثها عن التجارة ونقادها ونعوها
وأرباحها . ولكنها لم تكن تملك بعد ذلك أذنا تسمع بها أو عقلا يتسع
لما كان يقول .. حتى اذا أثقل عليها بأنبيائه . وتمادى في حديثه قالت له :

— صهن (١) ياميسرة ، فقد سبقتك هذه الأنبياء الي

ثم قامت الى حجرتها الخالية واعتمدت رأسها براحتها وغابت في عالم

(١) لا يتكلم

التفكير العميق .. حتى دخلت عليها صديقتها نفيسة فلم تشعر بوجودها ولم تحفل بدخولها . فصاحت في وجهها :

— ما خطب بنت خويلد في يوم كهذا إلا أن تكون تجارة خاسرة أو بعير فارق الحياة أو عبد آبق لا يسد فراغه سواء

خديجة — لا شيء من كل هذا فالتجارة رابحة والركب كله بسلام نفيسة — اذن ما لك مشدوهة الفكر مأخوذة الفؤاد ؟ حدثيني يا أختاه . ألسنت محل ثقتك ومكمن بشك . فكيف بك اليوم لا تفعلين ؟؟

خديجة — لقد استحال عطفى على هذا القنى مقعة (١) له ، وشغنا إسمائله نفيسة — ولكن أطلبين يد هذا الفقير وقد رفضت بالامس يد السراة (٢) الثراء من قريش .

خديجة — هذا اذان قلبي يناديني ولا بد أن الي النداء . نفيسة — لا تريب عليك ولا ضير بمن اخترت !! ولكني أخشى أن يرفض يدك

خديجة — ان صاحب كل هذه المزايا وتلك الخلال لن يحطم قلبي أو يطفئ نور رجائي

ثم ذهبت نفيسة الى رسول الله محمد تتامس رغبته وتستشف رأيه محاولة أن لا يدرك منها غرضا أو يلمس لها إربة . حتى اذا رفض يد صاحبها تكون صوانة لكرامتها . محتفظة بسمعها . فابتدرت رسول الله تقول له ما يمنعك أن تزوج يا محمد ؟

رسول الله — ما بيدي ما اتزوج به

(١) حبة (٢) الاشراف

نقيسة - فان كفيت ذلك ودعيت الى الجمال والمال والشرف والكفاءة.
.. ألا تحيب؟

رسول الله - فمن هي

نقيسة - خديجة بنت خويلد

فاطرق اطراقة الفرح وقال

— وكيف لي بذلك

نقيسة - على ذلك

رسول الله - قبلت يا أختاه

وبينما كانت نقيسة تفاوض رسول الله محمدًا في شأن الزواج . كانت خديجة في حجرتها الكبيرة المشرفة على الساحة الواسعة تذرعها غدوا ورواحا فلقمة فزعة خشية أن تصاب بتحطيم أملها في ذلك الملاك الذي لا يفارق رأسها ولا يغادر ناظرها فتارة تعتمد رأسها وتسلم خياها إلى مختلف التصورات وتارة أخرى تثور على هذه الهواجس وتطل من شرفتها لتستقبل وجه صاحبها نقيسة وتطالع فيه عن بعد سطور المستقبل فتسعد بالقبول أو تشقى بالرفض . وما أطول سويبات الانتظار . وما اشقى ذا الحاجة الواقف لها على قدم الرغبة الملحة

وها هي نقيسة قد وافت منزل خديجة وعينها تشع بالبشر . ووجهها يفيض بالسرور فادركت خديجة منها ما تحب . ونزلت تستقبلها في خطفة البرق بالعناق والقبلات

ثم سارعت باخطار عمها عمر بن أسد (١) بأمر زواجها كما سارع رسول الله صلى الله عليه وسلم باخطار اعمامه جذلان فرحا ولم يكن فرح

(١) لوفاة والدها قبل حرب الفجار

عمه ابى طالب بأقل من فرحه فاستاق الي بيت خديجه - رغم ماتم بين نفيسه
ورسول الله من عدم استعدادده لدفع صداق - عشرين من الابكار .
وما تم الايجاب والقبول حتي دعت خديجة عمها ورسول الله مع عميه
حمزة وابي طالب ورؤساء مضر . الي وليمة فاخرة كانت قد أعدتها
لهم وبعد أن أكلوا هنيئاً وشرّبوا مريثاً خطب ابو طالب يقول :

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسماعيل وضئىء (٢)
معد . وعنصر مضر . وجعلنا حضنة بيته . وسدنة حرماً . وجعل لنا بيتاً
محجوجاً وحرماً آمناً . وجعلنا الحكم على الناس ثم ان ابن أخي هذا
محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل الارجح . وان كان في المال اقل
فالمال ظل زائل وأمر حائل . ومحمد ممن قد عرفتم قرابته وقد خطب
خديجة بنت خويلد وبذل ما آجله وعاجله عشرون بكرة من مالي وهو
والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل جسيم .

ثم قام ورقة بن نوفل ابن عم خديجة وقال :

الحمد لله الذي جعلنا كما ذكر ابو طالب وفضلنا على كثير من خلقه
فنحن سادة العرب وقادتها وانتم اهل ذلك كله لا تنكر العشيرة فضلكم
ولا يرد احد من الناس نخركم وشرفكم . وقد رغبنا في الاتصال بحبلكم
وشرفكم فاشهدوا علينا معاشر قريش باننا قد زوجنا خديجة بنت خويلد
من محمد بن عبد الله علي صداقها المذكور .

ثم تحدث عمها عمر وقال :

يشهد علي معشر قريش اني قد انكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت
خويلد وشهد علي ذلك صناديد قريش .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« يضم هذا الباب مساهمة النبي صلى الله عليه »
« وسلم في بناء الكعبة واحتكام الفبا إلى »
« في وضع الحجر الأسود وتبشير الجن »
« والكهان والاحبار بمبعثه صلى الله عليه وسلم ».

« يا عائشة .. لولا ان قومك حديثو عهد »

« بكفر ابنيت الكعبة على قواعد ابراهيم »

حديث شريف

رجل قوست السنون ظهره . وجعدت اهابه . وغارت بعينه واستخفت
اعصابه ، قد وافي تحمله عصاه . ويقوده قبس من الاريحية والغيرة . حتى
وقف دون الكعبة وراح بهتف بصوت أجش مرتعش وان كان قويا
كالرعد ، صار ما كز محجرة الميث ثم قال :

- يا قريش ... يا بني عبد مناف ... يا زهرة ... يا بني مخزوم ... يا بني

جمح .. يا بني عبد الدار ..

صيححات رددتها جوانب الحرم وتداعت لها مكة وما حولها . وساروا
حتى وقفوا أمام هذا الشيخ الثائر . كأنه البركان الزافر . ثم التفت اليهم وقال :
- أرضيتم لبیت الله هذه الرضيمة (١) وتلك الوحشة . وهذا الخراب
والدمار .. لقد هوي بعرشه كراسنين وملائته العواصف بالرماد فتوا كلمتم
وتناهبت كنوزه اللصوص فتقاعستم . وصدعت جدرانها السيول فوجتم
وتحيرتم . فوالله انكم لسوف تدمغون بغار الابد . وسوف تروحون بذلة
الانباء والاحفاد . وان بطن الارض خير لكم من ظهرها ، اذا لم يجد الجد
وتنفذون عن هامتكم غبار التقاعس والركود . والاف كيف تدعون حضنة
بيته . وشوكة حرمة . وسدنة كعبته ان لم تقسحوا راحبها . وتقيموا أركانها
وتجددوا شبابها وتردوا عليها ما كان منها قد سلب من كنوز

(١) الاثرية المتراكمة داخله وحوله

قال أبو أمية بن المغيرة هذا ، ثم عاد فانحنى على نفسه لاهثا بعد أن كانت روح الحماسة والغضب قد عدلت من قامته ووسعت من محاجره وقوت من ذراعيه . وأرجعت اليه روح الشباب يبعثها حارة ملتتهبة ويسكبها منسابة دافقة في نفوس السدنة من قريش وما حولها فغلت في شرايينهم الدماء . حتى سرت فيهم سريان الكهرباء . ثم انبرى له الوليد بن المغيرة وقال :
 - لقد سمعت العرب مقاتلتك . وقرعتها رسالتك . وهزتها أريحيتك
 وما موقفهم أمام البيت المحجوج والحرم الآمن في مثل حالاته . موقوف
 إعياء وعجز ، وتقاعد وجمود ، ولسكنه موقف الخائف أمام أمر مرهوب
 الجانب ، مهاب الحمى . وأغلب ظنى أن ربه قد رضي اعتزامنا واذن في عملنا فبعث
 ذلك العقاب الجارح . فاختطف الحية الرقطاء التي طالما تشرقت على
 جدران السكبة تنشر الرعب وتشير الفرع وتغرفاها لكل من يدنو
 منها . وتهدد بأنيابها من تحس منه رائحة الهجوم عليها . فخلا بيت الله من
 ذلك الضيف الثقيل . واطمأن الناس الى رفع هذا البلاء واعتبروه نبوة
 الرضا وتيمنا بحسن القبول ، وقد قذف البحر منذ أيام سفينة هائلة على شاطئ
 جدة فابتعنا حظا منها من صاحبها « باقوم » البائس ولحسن الجدة بناء وأنه
 لا يجد ما يسافر به الى بلاد الروم فحل بيننا ضيفا وسيكون على يده بناء
 البيت . أما نجر (١) أخشابه فذلك ما سيتعده « حنا » النجار المصري .
 أما كنوز (٢) البيت فقد عثرنا عليها في بيت « دويك » اليهودي ونالت يده
 جزاء سرقة ورد الكنز الى نصابه ومأمته الذي كان
 أبو وهب بن عمرو — ليس فيما ذكرت يا ابن المغيرة أمر ذو بال لأن

(١) صناعة النجارة المعروفة

(٢) غزالان من ذهب عمر عليهما عهد المطلب في بئر زمزم وأهداهما للسكبة

ابتداءً الاخشاب ووجود البناء والنجار ليس بالشأن الخطير . وانما الخطير
الذى لا يستطيع الاقدام عليه . هو هدم هذا البيت ورفع رضيمته ومثلي
كان لعربي من الشجاعة ما يستطيع معها أن يحمل معوله ليهوي بها على
جدار هذا البيت الامين . على أن هدمه وبناءه مما يغض من مكانته
ويضعف من قيمته . ويقلل من هيئته . ويذيل من رهبته فكيف يكون
الهدم وكيف يصح البناء ؟ ؟

اوليد - ايس بيت الله هو هذا البناء المتصدع الخاوى على عرشه .
وانما هذه البقعة من الارض يقوم عليها هذا البناء شاهدا ودليلا . حتي
لا تدمج في سواها . ولا تغيب رقعتها في هذا الفضاء
واذا كان لا بد من أن يكون البيت فضاء وبناء . فان هدمه بنية
بنائه لا يقصد تقويضه وغناؤه

أما الطيرة (١) من خوف المغيبة في الهدم . فاني سأريك أن لا طيرة
ولا مغيبة وسأغادين (٢) البيت بمعولى . ثم انظروا بعد ذلك عم تنفرج .

* * *

طافت بمكة وما حوالها أنباء هذا البيت الحرام فجاءت قريش بقضها
وقضيتها تشهد ماسيحل بالوليد بن المغيرة حينما يهوى بفأسه
على جدار البيت أيهوى معها الى الارض فتدك عنقه ؟ وتهشم
رأسه . أم يرسل الله عليه ما أرسله على أصحاب القيل يرمونه
بحجارة من سجيل . فتجعله كالعصف المأكول . أم يخطفه عتاق كذلك
الذى خطف الحية التي كانت تسكن الكعبة وتمزع الناس . وقد نسوا جميعا

(١) التشاؤم

(٢) ساحض ندا

الفرق بين اصحاب القيل وقد جاءوا يقوضون اركانها . ويهدمون بنيانه
إلى حيث لا قيامة له ولا عمران، وبين المغيرة وقد اعزم أن يخرّب البيت
ليعمره وأن يهدمه ليبنيه . فيظل مثابة للناس وأمانا . مضت فترة تتبعها
فترة والجموع تزحف والحشود تزايد . حتى ضاق فضاء الحل والحرم
بالناس فراحوا يمتطون صهوات الجبال ويشرفون من فوق الربا
والآكام . حتى كأن الناس قد نبئت في السهل والجبل . أو استحال
ما حول الكعبة الى ساحة الحشر في يوم القيامة . فضاء غفها شدة الزحام من
مضض الانتظار وأضاف تلاحم الناس سأمًا جديدًا الى سوء الموقف . حتى
ظن بعضهم أن الوليد لا بد أن يكون قد أصيب بما أقعده في داره قبل
أن يظهر للناس بفأسه يعزم تقويض البيت وطيّه . أو اختطفته أعوان
هبل وأساف ونائلة (١) ولم يكن الامر كما زعم الناس بل هو حتى يرزق .
وهو في طريقه الى الكعبة لولا بعض أقاربه وبنو عمومته يتوسلون اليه
في العدول عن خطته حتى لا تحل عليه غصبة رب البيت وصاحبه . ولكنه

كان يحاول عبثًا افهامهم حسن نيته ونبالة قصده ونباهة عمله
ثم زاد الضغط . واشتد الزحام . وكادت تبلغ القلوب الحناجر ثم ظهر
خجاة بين الناس كهل عملاق عريض المنكبين . مسنم العنق . يشق طريقه في
الزحام صوب الكعبة حاملاً فأسه على كتفه تخففت ضوضاؤهم . وحبت
أنفاسهم وراحوا ينظرون اليه كما ينظرون الى الذهاب الى ساحة القتال
يحمل رأسه على راحته . أو المحكوم عليه بالاعدام لا يملكون له الا نظرات
الاشفاق والعطف . أو دموع البكاء والحنين ، ثم صعد فوق جدار الكعبة
فيما يلي الركن اليماني . والكل يتوقع له السقوط قبل أن يرفع يده بالفأس

(١) أسماء بعض الاصنام

ولكنه لم يقع شيء فقاؤا في نفوسهم لعله لا يقع الا عند بدء الهدم وهولما
يبدأ به ، ثم وقت الوليد والقي نظرة على هذه الآف يفيض بها السهل
والجبل وتنظر اليه نظرات الوداع الاخير . فهااته جموعهم . وأضعفته
أحزانهم . واوهنته نظراتهم . فأطرق برأسه . وتراخت ذراعيه بفأسه
فزعموا أن قد سقط عليه حجر من سجيل . أو أصيب بشال في ساعده
ولم يكن شيء من ذلك قد أدركه . وانما كان يستجمع شجاعته .
ويستذكر مهمته ويستجم قوته . فإلبث أن ثارت في نفسه عوامل
الاقدام وفار الدم في عروقه . فحمل فأسه . فظنوها مكابرة . ثم رفعها فخالوها
ظفرة العجز . ثم هوى بها فتخلوها سكرة الاحتضار . ثم رفعها في قوة
فشهقوا ، ثم هوى بها فسهموا ، ثم رفعها فشدهوا ، ثم هوى بها فذهلوا ، ثم
غابت عيون البعض في المحاجر وأيقن البعض انه اختبار وامهال يمنحه
المجترىء فرصة للتفكير والعود . وفترة للمثوبة والانابة . حي اذا عاد
وعدل عن الهدم . عفي عنه رب البيت والا أحل به سوء النكال . ثم غدا
أكثر الناس الى منازلهم ومتاجرهم ونواديهم في احساس حاد وشعور
مرهف . يتوقعون بين الآونة والاخرى احداثا جساما وخطوبا جليلة .
ومر النهار بشمس المحرقة وجاء الليل بنسيماته النديه . ولم يسمعوا ان
حادثا غير عادى قد وقع . ثم مر الليل بعجبه ودهشته . وانبلج الفجر
بسديعه وضياؤه ، ولم يتناقل الناس ما من شأنه أن يكون حادثا وطلعت
الشمس . والكل يعتقد أن عملية القصاص قد دارت على رأس الوليد
ليلا . ولم يعد هناك أمل في لقائه . ولكن ما أشد دهشتهم وأعظم عجبهم
حينما القود قبل الضحى يشق طريقه الى الكعبة ليواصل عمله من جديد
عند ذلك أيقنوا أن رب البيت قد بارك نيته ورضى عمله . وقبل جهده

فتصدت له القبائل والبطون لا يمضى في عمله حتى يشار كوه شرفه
ويقاسموه فضله ونفخه ، فرضي رغبتهم . وقبل بغيتهم . وأعطى « شق الباب »
لبنى عبد مناف وزهرة ، وأعطى ما بين الركن الاسود واليماني لبنى
مخزوم وقبائل من قريش . وأعطى ظهر الكعبة لبنى جح وسهم ابني عمرو
وأعطى شق الحجر لبنى عبد الدار ثم راح الكل يركعون بالمعاول
وينتصبون بالمكانات (١) ترفع مبيثة وتهبط خالية حتى شق على ضوضاء
العاملين صوت من قبل الركن اليماني يقول :

يا لله !! نمط (٢) يمينه عليها سطور أعجمية .

أصوات - أعجمية !! وكيف تكون أعجمية في بلاد عربية
صوت - لعلها لغة أبيك ابراهيم بناء الاسس القوية .

ثم سمع صوت آخر من قبل المقام يقول يا طلعة هذا اليوم المبارك !
وهذا نمط عتيد فيه مقول تليد .

صوت - ياله من يوم سعيد .

ثم سمع صوت ثالث يقول :

لقد تبدلت الانماط بخندل (٣) وما أنا عن قراءته بحول

أصوات - اذن هو عربي مفصل

المكتشف - غير انه متعرج كجدول .

أصوات - اسمعنا ما عليه حتى يأتي « دويك » اليهودي ليقرأ علينا

هذا الاعجمي المهلهل .

(١) المقاطف

(٢) قطعة من قاش أو ورق أو نحوه

(٣) صخرة

المكتشف - انه يقول

من يزرع خيرا يحصد غبطة . ومن يزرع شرا يحصد شر امه . وكلا لا يجتنى من الشوك العنب . لا تحزون بالحسنة السيئة .

ثم جاء « دويك » اليهودي وأخذ يقاب النميطين في يده ثم يمن النظر اليهما فلا تسعفه عيناه فيتدحى بهما بعيدا لاستطلاعهما وتصفحهما على الضياء ثم يستوضح بعض الكلمات ثم يضمها الى اصحابها ويترأ بصوت غير مسموع ثم يعيد ما يترأ وهو يقول :

انا الله ذوبكة (١) خلقتها يوم خلقت السموات والارض . وصورت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أملاك خفاء لا تزول حتى يزول أخشباها (٢) مبارك لاهلها في الماء واللبن .

هذه ترجمة النمط الاول أما ترجمة الثاني فانها هكذا .
مكة الله الحرام . يأتيها رزقها من ثلاثة سبل . لا يحلها أول من أهلكها

* * *

وراحت القبائل تتداعى الى نقل حجارة الجرانيت الازرق من الجبال المجاورة للبناء هذا ينقل على جماله وذاك ينقل على حماره . وثالث يحملها علي كتفه . وكان من بين هؤلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه عمه أبو طالب والعباس وبينهما هم كذلك . واذا يابى وهب بين عمرو يقف بين الجميع على صخرة عالية ويقول :

يامعشر قريش :

لقد رأيت من العلامات الروحية ما يجعلنى اهيب بكم ان لا تجعلوا

(١) لغة في مكة والمعنى انا الله صاحب مكة

(٢) جبالها

في نفقة هذا البيت مالا اصبتموه غضبا . ولا قطعتم فيه رحما . ولا انهكتم فيه ذمة أحد بينكم وبين أحد من الناس .

يامعشر قريش لا يدخل في بناءه من كسبكم الا طيبا . لا يدخل فيه مهر بغي . ولا يسع ربا . ولا مظلمة احد من الخلق .

ثم نزل ورسول الله اكثر الحاضرين فرحا بما يقول . وأشد هم احساسا بالجذل والسرور . ثم جاء (باقوم) الرومي البناء وخلفه مساعده (حنا) المصري وراح الاول يسير الاسس التي بنى عليها ابراهيم بعتلة (٣) في يده ، فاذا بها كما قيل له ، لا يمكن زحزحها ولو تزحزح جبلا مكة من مكانهما فبدأ يبنى عليها واشراف القبائل تتزاحم في خدمته سبقا وراء شرف الخدمة في البناء ، وجريا خلف جمال السمعة وحسن الاحدوثة . وبغية التقرب والرفق الي رب البيت

ولفت نظر البناء (باقوم) قطعة من الحجارة قائمة لا تآثر في نظره عن بقية الاحجار الزرقاء الملقاة هنا وهناك يتبركون بها ويتمسحون ويتناوون حراستها قبيل بعد قبيل . ويوصون بها فريقا أثر فريق وهو لم يفهم من أمرها شيئا . بل لم يشأ أن يفهم مادام قد عرف أن هؤلاء جميعا سادة وعبيدا يقدسون الاصنام ويعبدون الاوثان . فقد لا تكون أكثر من قطعة في هذه الديانة المغلقة المعتمة . وقد تكون رأس آله أو قطعة منه وكل هذا لا يعنى الرجل الرومي المؤمن (بالآب والابن والروح القدس والكل اله واحد) ولكن الفضول الملح يأبى الا أن يعرف سر هذا الحجر القائم فطلبه من أحد مساعديه ليضعه في الجدار ككل حجر مستعد لذلك . ولكنه استقبل بعاصفة من الغضب . كادت تطيح لها

(٣) المعروفة عند الناس (بالاجنة) وهو تمثيل من الخدم مسجود من مؤثراته

رأسه . فحمد الله على النجاة والسلامة ! وسكت عن تتبع البحث مؤقتا
وان كانت عوامل الفضول قد زادت في خلد ثوره والحاحا
وما ارتفع البناء الى مثل قامة الرجل . والى حيث ينبغي أن يوضع
الحجر الاسود في مكانه الطبيعي من الجانب الشرقى ، حتى كان المار
حول الكعبة يلمح شرارة الحرب وميضه لا تلبث أن تشتعل . وخف -
أثناء التلاحى والتفاخر . بالانساب والتنايد باللقاب - فتيا بنى
عبد الذار ونى عدي واحضروا جفنة (١) مليئة بالدم وغمسوا أيديهم فيها
تحالفا وتعاهدا على أن يستमितوا دون أن يرفع الحجر الاسود المقدس
الا بأيديهم ليكون لهم وحدهم هذا الشرف والفضل على كره الدهور ومر
الايام . بينما كان الآخرون يعدون العدة لمنازلتهم عليه . وحر بهم من أجله
حتى يظفروا به ويرفعوه أو يهلكوا دونه

ثم تقام الخطب واشتد البلاء . وعلا الضجيج وارتفع الصياح
والصخب وارتفعت اللسنة واعدت السهام وشرعت السيوف فانتفضت
شيخوخة أبو أمية بن المغيرة بدم الشباب من جديد . وثار ثورته التى
ثارها يوم دعا القبائل جميعا لبناء الكعبة . فكانما هو هزبر فى اهاب
انسان . أو زلزال يمزق الارض تحت أقدام المتنازعين . نخت الضجيج فى
زئيره . واختفى الصخب تحت قوارع صوته . وسكت الكل ودماء
الغضب تغلى فى وجوههم . واحمرار الشر يتألق من عيونهم . ثم أهاب بهم وقال
- يا معشر قريش اجعلوا بينكم حكما فيما تختلفون وليكن أول من
يدخل عليكم من هذا الباب (٢)

(١) المعروفة بالقصة وسمى هذا الحلف فيما بعد بلعة الدم

(٢) يشير الى جانب السلام

وما ان صمتوا قليلا لمعرفوا من هذا الذى ستسوقه الظروف الى منصب الحكم بينهم فاذا كان أحق بها وأهلها رضوا به . والا عادوا الى حيصتهم وثورهم وتلاحيهم ، حتى كان الداخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فصاحوا جميعا في صوت واحد :
- هذا هو الامين .. رضينا به ..

فهدأت تائرة نفوسهم . واستقرت زفرائهم في صدورهم . وعاد ماء الرضا والارتياح الى وجوههم . وساد بعض الوفاق والامحاء بين صفوفهم ثم وقفوا بين يديه وفيهم من هو في سن أبيه وجده وراحوا يدفعون اليه بحججهم ويتقدمون اليه بسلسلة أنسابهم . ومقاييس بعدهم من ابراهيم وقربهم ، حتى خلت جمعيتهم وأفرغوا كنانتهم .. ثم أطرق قليلا وفكر هنية ثم قال :

— هلم الى ثوب

فأتى له به . فنشره وأخذ الحجر فوضعه بيده فيه .. ثم قال :

— ليأخذ كل كبير قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب . فأتلج

صدرهم جميعا ذلك الحكم

ثم حملوه إلى ما يحاذى موضع الحجر من البناء . ثم تناوله من الثوب بيده فوضعه في موضعه فانحسم الخلاف ورضى الكل بذلك وهم فرحون مسرورون بهذا الحل الذى حقن دماءهم ، وحفظ أرواحهم ، وأبقى عليهم نعمة السلام ، وشرفهم جميعا في رفع الحجر الأسود إلى مكانه ..

« انما قدمت هذه البلدة اتو كف خروج »
 « نبي قد اظلنا زمانه وهذه بلدته ومهاجره »
 « فكنت أرجو أن يبعث فاتبعه . فلا تسبقن »
 « اليه يامعشر يهود ولا تحملوا خصومته »
 « والاسفك دمكم وسي ذرارىكم ونساءكم »
 « وليس هذا مما يزهّد فيه وانه لعزيز »
 « رؤوف رحيم » ابن الهيثبان اليهودى

جلس الكل حول المريض الممتد على فراش الالم وقد شغلته أوجاعه
 عن كل ما حوله وراحت أطيايف الماضي تتوارد أمام عينيه فاتنة خلافة
 ينظر اليها بعين الاسي ويزفر عند رؤيتها بأنفاس الوداع . فيخيم الحزن
 أمام عينيه . وترتسم على وجهه صورة حزينة كلما أحس بدنو الاجل .
 ونأيه عن مطارح الهوى ومغانى الامل . ولم يك حديث من حوله على
 مسمعه إلا كهمس الرؤى . وهجس الأحلام . ووسوسة الحلى

غير أن عواده أدركوا منه صحوة يقظة . وانتباهة حادة . ورغبة في
 الاستماع إلى ما يتحدثون فشالت حواجبه واتسعت عيناه وتجددت جبهته
 حينما أخذ عامر بن ربيعة يجيب على أسئلة ضيف له وافاه من المدينة قبيل
 الأشهر الحرم وقد أخذ يسأله عن شاب من بنى عبدمناف اشتهر بين العرب
 بالامانة والحكمة واصالة الرأي والبركة في التجارة ورعاية الغنم وقد كان
 لهذا الضيف المدني قطعان من الغنم في حاجة إلى من يتعهدا ويرعاها سيما
 إذا كان الراعى على مثل ما عليه محمد بن عبد الله من خلال ووفاء وبر ونماء

فأجابه عامر بن ربيعة قائلا :

— وييك لم يعد محمد بن عبد الله في حاجة الى رعاية الغنم أو ارتياد أسواق التجارة وركوب متن السفر ، على الرغم من أن والده لم يترك له إلا خمسة من الابل وقطيع متواضع من الغنم وجارية واحدة . وأن رعيه وتجارته زهاء عشر سنوات لم تدر عليه من أخلاف الرزق ما يجمعه في مثل ما هو فيه من نعمة وثراء .

سيف — أكاد لا أفهم ما تقول يا أخاه فمحمد لم يرث عن أبيه ثروة تذكر ولم يتجمع لديه من كده وثقاه ما يغنيه عن التجارة والرعى فكيف بعد هذا تصفه بالنعمة وتنعمته بالثراء ؟ ! أدخل إلى صفوف السكهان وامتهن صناعتهم فسالت الأرزاق بين يديه سيل العرم ، أم دخل في سدانة الكعبة وخدمة الآلهة فتساقطت حوله ديم الثراء ؟

فضحك لهذا عامر بن ربيعة حتى بدت نواجزه ثم قال :

-- إنك يا ابن العم طيب القلب بلاريب . . . وإنك لو علمت ما بين محمد وبين السكهانة والسدانة والآلهة من عدااء وجفاء لما حملت نفسك مشقة السؤال . أنه يبغض السكهانة بفطرته وينفر الناس منها وإن أذنه لتسمع الوقر ولا تسمع عبارات تعظيمها وآيات تقديسها . ولقد روى عنه أنه سمع (بحيرا) الراهب يقسم بها لعمه أبي طاب أثناء استضافته لها فاستل نفسه من بين الجميع غاضبا وهو يقول :

— والله ما كرهت أذناي شيئا كرهى لسماع هذا القسم

سيف — اذن لا بد أن يكون قد هبط على محمد رزق من السماء أو فاض له من الارض .

عامر — هو أشبه أن يكون قد هبط من السماء وذلك لأنه قد تزوج

بخدمته خويلد بن أسد بن عبد العزي . . . سيدة ذات جمال ومال
وشرف وكفاية . . . وعراقة ونسب ، فخل منها مكانا رفيعا . ونزل منها
مستوي منيعا . وساكنها قصرها ذا الشرفات الشاخنة انقيص الارعاء
يقع في الساحة الكبرى بالقرب من الحرم بعد أن رفضت كل من تقدم
يطلب يدها من مكة وما حولها

وقد أعقبت منه الطيب والطاهر وعبد الله وزينب ورقية وأم كلثوم
وفاطمة . ولقد رأيت أ كثرهم وحقق كحبات الجمان حول عنق الحسناء .
أو كالأنجم الزهر في الليلة الظلماء . وكم يسعدك ان ترى « الطاهر »
يداعبه « ميسرة » خادم خديجة فتتمتد يد الطفل الصغير اليه كأنها وميض
النجم - يصك بها وجه خادمه ويعبت بذؤابة لحيته فيضحك ميسرة فيحيا كيه
الطاهر في ضحكته . وكما آمن الخادم في مزاحه شع وجه الطاهر بسنا
سروره وبهيجته . وكم يهنئك أن ترى فاطمة كحام الحرم وداعة . وكركة
النسيم شفافية . وحفيف الغصون حنوا وعطفا . ولكن الدنيا هكذا لا
يطول صفوها ولا يستمر غفوها . فقد فج قلبه في أ كثر من واحد من
أولاده الذكور . فخرج كبده وشقت مرائره ولكنه رغم هذا جلد
قوي صبور .

سعد - لعله يا عامر وقد جلس مجالس الاثرياء وأحس براحة النعيم
والرفاء . قد أخذ منه الغرور مأخذه وامتلا بالعنجهية والكبرياء .
عامر - لا وأبيك إن محمدا هذا لا تزيد الايام إلا إتزاناً وحكمة .
ولا يزيد الغنى إلا تواضعا وعطفا على الفقراء واليتامي والمساكين
واعتاق الرقاب .

أجل لم يكن هذا الحديث حول شخصية محمد الامين علي مسمع من

المريض زيد بن عمرو بن نفيل الا نقاهة للمريض تدفق في عروقه بقاء الحياة والنشاط والقوة، فجلس بعد رقاد طويل. ثم عاد فاستند الى حائط مبالغ في الراحة والتحفظ. ثم أشار الى المتحدثين بالصمت لياخذ مكانه بينهم وليدلي بدلوه بين دلائهم. ويعلن رأيه وعقيدته في النبي محمد قبل أن يفارق الحياة ثم قال :

— انا لمنتظر نبيا من ولد اسماعيل ثم من بنى عبد المطلب ولا أراني أدركه وأنا أو من به وأصدقه وأشهد أنه نبي فان طالت بكم الحياة ورأيتموه فاقراؤه منى السلام . انه ذلك الرجل الذى ليس بالطويل ولا بالقصير ولا بالكث الشعر أو قليله لا تفارق عينه شائبة حمرة يتربع خاتم النبوة بين كتفيه واسمه أحمد ، وهذا البلد مولده ومبعثه وسوف يخرج به قومه إلي يثرب ويكرهون ما جاء به فيظهر أمره فاياكم أن تنخدعوا عنه فاني طفت البلاد أطلب دين ابراهيم فكل من أسأله من اليهود والنصارى والمجوس يقولون هذا الذى وراءك وينعمتوه بكل مانعته لكم به ويقولون لم يبق نبي غيره ولا إخاله الا هذا الامين محمد

* * *

هذا - حى - من ثقيف يهرع في هجوم السيل وتزاحم الجراد ، الى منزل داهية العرب عمرو بن أمية أحد بنى علاج وهذا كاهنهم يدق باهم ممتقع اللون مرتجف الاعصاب. والكل حوله مطرق الرأس كأنما هم على باب قبر يودعون عزيزا عليهم كريما . وما لبث الباب أن فتح ودخلت ثقيف ومن تابعها الي فناء الدار ثم حضر عمرو بعد هزيمة فوققوا لمقدمه قي صمت البكم ووجوم الحزاني

ثم ابتدرهم قائلا ما خطب ثقيف ؟

فاطروا قليلاً ثم رفع (سواد بن قارب) رأسه وقال .

لقد حجب تابعونا (١) عن منازلهم وطردوا من مقاعدهم ورموا
بشبه واحدة جائحة حتى تعطلت كهاتنا وتضاربت صناعتنا واختلطت
الأمور علينا لقد كنت بين النائم واليقظان إذ أتاني ربي (٢) فوكزني
بقدمه وقال قم ياسواد بن قارب واسمع مقالتي واعقل إن كنت تعقل إنه
قد بعث رسول من لؤي بن غالب يدعو إلى الله عز وجل وإلى عبادته
ثم أنشد يقول :

عجبت للجن ونظلابها وشدها العيس بأقتابها
تهوى إلى مكة تبغي الهدى ما صادق الجن ككذابها
فادخل إلى الصفوة من هاشم ليس قدامها كاذنابها

فقلت له دعني أتم فاني أمسيت ناعسا فلما كانت الليلة الثانية أتاني
فركلني برجله وقال :

قم ياسواد بن قارب فاسمع مقالتي واعقلها إن كنت تعقل إنه قد بعث
رسول من بني عبد مناف يدعو إلى عبادة الله وترك ما عداه ثم أنشد يقول :

عجبت للجن وتخبارها وشدها العيس بأكوارها
تهوى إلى مكة تبغي الهدى مامؤن الجن ككفارها
فارحل إلى الصفوة من هاشم بين روايبها وأحجارها

فأشحت بوجهي عنه وقلت دعني أتم فاني أبيت ناعسا فلما كانت
الليلة الثالثة أتاني فضر بني بقدمه وقال قم ياسواد واسمع مقالتي إنه قد

(١) يقصد بذلك الجن الذين كانوا يسترقون السمع من السماء ليعرفوا به أخبار
الدنيا ثم يخطر عليهم أصحابهم من الكهان
(٢) تابعي من الجن

بعث نبي من تهامة يدعو الى الله والى عبادته ثم أنشد يقول

عجبت للعن وتجسأسها وشدها العيس بأجلأسها
تهوي الى مكة تبغي الهدي ماخير الجن كأنجأسها
فادخل الى الصفوة من هاشم وارم بعينك الى رأسها

ذكر هذا سواد بن قارب بين الجميع وهم مستوفزون غاضبون متقززون .
واجون كأنهم جماعة من الاشقياء يستمعون الى تدنوة الحكم عليهم .
بالاعدام أو واد من القردة كثير الحركات . سريع السمحات . مرهفي .
الاعصاب معقولي اللسان ثم تحدث بعده (جبير بن مطعم) وقال كنا
جلوسا عند صنم (سوانه) وقد قرب له احدنا عجلا فسمعنا صوتا ماسمعنا
مثله قوة وفصاحة وهو يقول .

اسمعوا الى العجب . جاء اشراق الوحي وأمسينا نرmi بالشهب لنبي
بمكة أسمه أحمد . ومهاجر دالي يثرب . فأمسكنا عن الطعام لمثل هذا الكلام
فنظر الحاضرون بعضهم الى بعض وزاد احتقان الدماء في وجوههم وتصيب
العرق في جباههم ولم يبق الا أن تنفرج برأي الداهية . عمرو بن أمية
والكل ينظر اليه نظرة الملاح الى الافق يبحث عن رسل الشواطيء
وحوائها والفضال في البيداء يتطلع الى نجوم السماء وكواكبها
ويرتقبون ما تنبجس عنه شفتا عمرو في لهفة ومضض كما يتلهف الغريق
على زورق النجاة

أخذ عمرو يسمع اليهم في عمق ينظر اليهم ويطيل النظر تارة ثم ينظر
في الفضاء اخرى كأنما يوازن بين رأيين ويقارن بين فكرتين ثم قال .

بلى . ان كان ما يرمي به الجن من الشهب (١) هى معالم النجوم التى يهتدى بها فى البر والبحر وتعرف بها الانوار فى الصيف والشتاء وما يصلح الناس فى معاشهم فهو والله طى الدنيا وهلاك هذا الخلق الذى فيها وان كانت نجومها غيرها وهى ثابتة على حالها فهذا الامر اراد به هذا النبى ينبثق نوره من هذه الناحية « وأشار الى مكة »

* * *

اقتتل الفريقان حول عين عذبة على مقربة من سهل خصب وظلت الحرب أياما وليالي طاحت فيها رؤوس وذهبت ضحيتها نفوس ووضعت الحرب أوزارها بعد أن كتب النصر لبني قتاده على اليهود بدماء ابنائها ثم تداعوا الى الصلح بعد ذلك لاقرار اوائام مكان الخصام واحلال السلام محل التنابد والشقاق . وأتفقوا على أن تكون العين لبني قتادة وحدهم وان يتبرعوا بجزء من عشرة اجزاء . وفاء لواجب الجوار والبيعة ولكن ذلك لم يكن كافيا لغسل صدور شبان اليهود أو مضمدا لجراح الحرب فى نفوسهم ولم يستطع كتمان ذلك عليهم شالوم بن شريح حتى ابتدرهم بقوله :

(١) لعل فى هذه الالية شرح لقضية الجن وما رميت به من شهب وما اتصلت به من أنس اذ ذلك . قال تعالى أمرا لنبية :

(قل اوحى الى انه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا يهذى الى الرشدا فامنا به وان نترك ربنا أحدا وانه تعالى جدر بنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا وانه كان يقول سفيها على الله شططا وأنا ظننا ان لن نقول الانس والجن على الله كذبا وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا الى قوله تعالى :

وانا كسنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجده شاهبا رصدنا وانا الاندري اشر اريد بمن فى الارض أم اراد بهم ربهم رشدا)

يأذريح. لقد أمر أمر (١) بنحيج وجاء زمان نبي يبعث الآن وسنجاهدكم معه ونقاتلكم في صفه حتى اذا لم يبق الا الذر جاهدناكم به (٢)

* * *

نضب الماء في الاودية والحفر أو كاد وحرص الناس على ما عندهم من أقذاح، حرص البخيل على درهمه . والجبان على دمه حتى تنفجر السماء بوابل المطر . وينزل الغيث مدرارا منهمرا .. ثم زاد قلق الجميع وعم اليأس بينهم وأجهشت الاطفال بالبكاء وتدلت اللسان من العطش وجفت الخلاقيم لندرة الماء ثم سمعوا أن بينهم خبرا من أخبار يهود تافيا صالحا ومباركا فطلب اليه أحدهم أن يستسقيهم فقال :

- لا والله .. حتى تقدموا بين يدي ضيفكم صدقة

عبد شمس - وما مقدارها ؟

ابن الهيبان اليهودي - صاع من تمر أو مدان من شعير . ثم وقف بعد أن أخذ ميرته وتوجه إلى السماء وطلب من الله الرحمة لبني قريظة في نسائها البواكي وشيوخها الضوارع . وأطفالها الرواضع ، فما فارق الرجل مكانه حتى سالت الوديان والأباطح بالماء . فلا تدرى مقدار الفرح الذي حل ببني قريظة . أيتمثل في تفاهتهم علي يدى ابن الهيبان الخبر اليهودى يقبلونها ويتبركون بها ويتمسحون .. أم في المسارعة الى تناول الماء وحمله الى داخل الحى وقلب المنازل .

ثم طاف بالحى يوما نبأ اشتداد المرض على ابن الهيبان فتقاطر علي

(١) الاولى بفتح فكسر والثانية بفتح فسكون والمعنى ظاهر

(٢) هذا ما كان يقول يهود العرب قبل بعثة رسول الله بنحو شهر ولستهم بعد

ذلك نكصوا على أعقابهم خسران

محلته كل من في الحي ومن حوله من شبان ركحول وشيوخ . حتى سدت
المنافذ اليه وأضحى مركز الدائرة محيطها هذا الموج الزاخر من البشر
كأنه خلية تطوف بها وفود النجل وتلجأ الى ظلها . أو الكعبة موسم
الحجيج يقصدها الناس رجالا وعلي كل ضامر يأتين من كل فج عميق .

فاذا نادى الرجل لبي نداءه الف مجيب واذا زفر أو سعل جزعت له
الف نفس واذا تأوه شقت له الف كبدة ودمى له الف قلب

فلما احس الحبر بدنو الاجل لوح بيده في القضاء وأشار عليهم بالصمت
نيسمعووا كلماته الاخيرة وقال :

يامعشر يهود ما ترونه اخرجنى من أرض الحمر والخبير الى أرض
الجوع والبؤس ؟

أصوات - انك أعلم .

ابن الهيبان - انما قدمت هذه البلدة أتوكف خروج نبى قد أظلمنا
زمانه وهذه بلدته ومهاجره . فكنت أرجوا أن يبعث فاتبعه فلا تسبقن
اليه يامعشر يهود ولا تحملوا خصومته والاسفك دمكم وسبى ذرارىكم
ونساءكم وليس هذا مما يزهده فيه وانه لعزیز رؤوف رحيم

ثم زفر زفرة عميقة وأسبل عينيه وأسلم روحه الى بارئها وذهب الى
لقاء ربه مأسوفا عليه بين النحيب والبكاء

عُرَّةُ الضُّحَى

يضم هذا القسم - خلوته بغار حراء - نزول
جبريل عليه - انقطاع الوحي - عودة الوحي -
اسلام علي وأبي بكر - ولحمة النبي لأهله
ودعوتهم الي الاسلام - جهر النبي بالدعوة -
مؤتمر قريش الأول للنظر في الدعوة الجديدة -
ارسال وفد منهم إلى أبي طالب - رجاء عمر
له بالتنازل عن دعوته - رفض النبي لذلك -
مؤتمر قريش الثاني - وفد قريش الى عمه رجاء
تسليمه لهم على أن يعطوه عمارة بن الوليد
بدله - مكافأة قريش الدعوة في موسم الحج

« اقرأ بسم ربك الذي خلق ، خلق »
« الانسان من علق، اقرأ وربك الاكرم »
« الذى علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم »
قرآن كريم

وكان السائر بجوار منزل خديجة في هذا الوقت يسمع صدى صوتها ينبعث من الداخل ويسرى بين جنبات الكون الهادي . فيوظف العبيد ويهيب بالخدم الي إعداد ما يلزم لزوجها وحبيبها محمد من فراش وطعام وماء يكفى لفترة التحنث (١) ويسد حاجة الفقراء والمساكين الذين يقصدونه في غار حراء (٢) في شهر رمضان من كل سنة وقد ازي الحركة والنشاط بين الجميع . رغاء بعير على باب المنزل ينتظر دوره في حمل الامتعة والزاد الى باب الغار . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتجهز للخروج قليل الحركة . دائم الصمت . مطرق الرأس غريق التفكير . يخرج من حجرته ليطلع صفحة الافق ويرى مقدار ما تنفس عنه النهار من الضوء ثم يعود فيقف قبالة أولاده الصغار ليلقي عليهم نظرة فراق حانية . ويطوف بروحه حول مغناجعهم الساجية . فتستيقظ في رأسه نوادرهم ونسبج في خياله طرائفهم . وتدرج أمامه حركاتهم فيمش لها ويتسم . ولكن ابتسامته لا تلبث أن تحجب حين يذكر انه سيحرم من هذا الامتناع فترة من الزمن . وسيغادر مكانه الى الغار بعد قليل . وما كان ينسيه أو يسليه الا تذكره انه وان حرم مطالع أولاده . واشراق زوجته . وهناء منزله . فاذلك إلا

(١) الاقطاع للعبادة (٢) الغار الذى نزل فيه الوحي على رسول الله ويعرف الآن بجبل النور وهو على بعد فرسخين شمال مكة

إلى مطالع الفيض . واشراق النفس . وهناءة الروح . وسعادة الابد يلمح
علاماتها كل يوم . ويشم (٣) بريقها في كل مناسبة ويستطلع رؤاها في
رائعة النهار . ويسمع سجعها على أنسنة الاشجار والاحجار تقرئه كلما
مر بها السلام . وتبشره بالرسالة من وحي أو إلهام

ثم وافته خديجة رضي الله عنها . وهو في مثل حالته . تتنازعه
حالتان حالة العطف على أولاده والحزن الى كهف عبادته وقبلة خلوته .
ومشرق سعادته . فحدثت في وجهه ولعلها أدركت ما به ولكن أزمانها
وحكمها وانانيتها وكياستها . لم تدع للفضول طريقا الى نفسها أو منفذا
الى لسانها . فاكثفت من المرقف بنظرات الخوف تدرع جسمه واجنحة
الشفقة ترف عليه حتى بادرها حديثه وبثها نجواه وشكا اليها بثه وأسرها
مخاوفه من دسائس الجن ونزع الشياطين للاحساسا منه بضعف ولا زعزعة
بثقتة بنفسه ولكنه حرص الابي على اداء الواجب وقوة السكي على
الوفاء بما أعدله . فاجابته الزوج الكريمة الزينة بما هدا روعه وأزال
أوهامه .

وهناك فوق جبل حراء كان يري محمد صلى الله عليه وسلم يسير حاني
الرأس كأنه يبحث عن مفقود . متبدا الخطا كأنه يسير تحت جامود . ثم
يعود فيسرح نظره في الفضاء يتلقى فيه سديم السماء بصفرة الصحراء
ثم لا يلبث السديم طويلا حتى تستحيل فضته ذهبيا وبياضه صفرة . تتخذ
شكل التاج على رأس ملك مهاب . تتقدمه سنانة . وتسبقه السننة
وسهامه . يطارد الغلس ويلاحق الظلام . حتى اذا انقشع حجابيه وتمزق

(٣) يرى

أهابه . اشرق جبين الغزالة يملا الافق دواء ويحيل الوحشة بهجة وسرورا
وفيفض على الكون حياة وانعاشا ونشورا ،

هذا راع يسوق أغنامه الى موارد العشب . في مثل السحابة الزاخرة
يسبقها بعض الزوابع العابرة .. وذاك قطار من الابل يتجه صوب اشجار
السعدان كأنه سلسلة من الجبال أو صفوف من الاشجار سقطت عنها زينة
الربيع وهذه أسراب من الطير حائمة في الفضاء . رائحة غادية بين الحب
والماء وتلك سواد الحمائل في أغصانها المتشابكة وأفنانها المتعاقبة تبعث
بالغبطة . وترف بالظل والرحمة . حتى اذا انتهى رسول الله من طوفته .
ورجعت عينه من رحلتها وسارعت الشمس في مدارها واشتدت زهومتها
عاد رسول الله الى الغار في لجة من التفكير . ويحيط من العظات والعبر
حتى اذا أخذت الشمس تجمع ذيولها وتتواري اعياء خلف حجابها .
وخلفت وراءها عيون الكون دامعة وعرائس الشفق جازعة لم يفق رسول
الله من موقعه الا وحشة الليل وتوسلات الفقراء . وبعض رغبته في
الافطار بعد صوم طويل . يذكره كيف نبئت حياته ونمت ذراته . وكيف
استحالت الى طعام شهى يطارد الجوع ويبعث بالحياة والماء وكيف زال
الماء الذي سقاه وتعهده وأماه بعد أن أزجاه الله سحابا ثم يؤلف بينه ثم
يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها
من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب
بالابصار .

فاذا جن عليه الليل وهجعت الخليقة . وخيم السكون . واشرفت
السماء على الارض بعيون النجوم . ووقف القمر بينها كملك حوله وزراؤه
أو قائد وسط جنده يشير بالتقدم أو يأمر بالتريث والانتظار . أو يغير

بين المواقع . أو يقول بالتواري والاختفاء !! حركة دأمة !! ونظام محكم !! وتقدير بحسبان ! فيعود رسول الله الى نفسه أكثر ما تكون حقوة الايمان . وكأني به يريد أن يردد ما قاله الله بعد ذلك في كتابه .

« إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل من السماء من ماء فأحيي به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة . وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون » ستة أشهر قضاها رسول الله صلى عليه وسلم على هذه الحال كانت خاتمتها شهر رمضان الذي اتصل فيه بجبريل ونزل فيه القرآن . هدي للناس وبينات من الهدى والفرقان .

ستة أشهر قضاها رسول الله في صيام وعبادة وتفكير وبر وصلة حتى جمعت مادته نورا . وضربت بشريته ملائكية واشتعلت بروحه بنور الحق والحقيقة . وصفت نفسه وتأهلت لاستقبال الفيوضات الالهية . والنفحات الربانية .

* * *

دخل (ميسرة) منزل سيدته خديجة فالتقى به حركة غير عادية بين العبيد والخدم هذا يحمل ماء وذاك يحمل غطاء . وتلك تحمل الاطفال لتتأني بهم بعيدا عن حجرة معينة . ورابع يشير باستدعاء طبيب . وخديجة بين كل هؤلاء كقطب الرحي يأخذون عنها ويدورون حولها ويأمرون بأوامرها أو كالتقائد الهادىء الأعصاب يدير المعركة في قوة وحزم وسكون فراع (ميسرة) هذه الحركات من ندل المنزل وخوله (١) وهذا الوجوه من سيدته ومخدومته فدنا منها على قدمين من رجاء في معرفة السر في ذلك

(١) الندل والخول بمعنى الخدم

وخوف من أن يناله رشاش الغضب ولكنه كان الي الرجاء أقرب منه الي الغضب لما يحس به ويشعر من منزلة له في نفس سيده .

وما أن دنا منها وسألها عن أسباب ألمها ووجومها وسر كدرها حتى أشارت الي حجرة كان فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن كدر خديجة خوفا علي رسول الله . أو وجومها تشككا في قداسة ما اتصل به ونزل عليه ولكنها عين الحب والاشفاق وعاطفة الزوجة الوفية النبيلة وما وقع نظر ميسرة علي سيده حتى الفاه ممتقع اللون . مرتعد الاعصاب كأن به نوبة من الحمي فتحركت في نفسه عوامل الفضول وثارت فيه عاطفة الحب والحنان فاستمهلته الاجابة حتى تعود

ثم قامت تجمع ثيابها وانطلقت الي الخارج . ثم اطل ميسرة في وجه رسول الله . فالفاه لاتزال به وسامة الشحوب وإن كانت عينيه قد اغفت قليلا فأحكى عليه طرف غطاءه . وراح يذرع الردهة الكبرى ذهبية وجيأة . وهو علي أشد ما يكون من القلق انتظارا لمقدم سيده وتوصلا الي معرفة ما أصاب صاحبه بالامس وسيده اليوم .

ثم لم تلبث السيدة خديجة ان عادت . وقد تبدل وجومها بشرا وصمتها حذلا . فوجد ميسرة في هذه الحالة ما يشجعه علي اعادة السؤال عن سيده ومعرفة ما حل به فقالت له

فيما هو نائم بالغار جاءه ملك وفي يده صحيفة فقال اقرأ . . فقال له ما أنا بقاريء (١) فضمه الي صدره ضمة قوية . . ثم قال له اقرأ فقال ما أنا بقاريء . فضمه الي صدره ضمة قوية أخرى . . ثم قال له اقرأ . . فقال ماذا أقرأ ؟ ؟ فقال له (اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من

(١) لا أعرف القراء

علق. اقرأ وربك الاكرم. الذي علم بالقلم. علم الانسان ما لم يعلم) فقرأها كما حفظ ثم انصرف عنه واسكنه ما لبث أن استيقظ فزعاً ثم زایل مكانه في الغار وخرج من الجبل هائماً وانطلق مدعوراً يتلفت يمنة ويسرة وجسمه يرتعد كأن به الرضاء (١)

وبينما هو علي مثل حاله من الفزع والرعدة التفت واذا بصوت يناديه ويقول يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل فاشتد فزعه لجهسه على سمعه . ووقعه في نفسه . فرفع بصره الى السماء . فاذا الملك الذي جاءه مناما في صورة رجل ساج في افاق القضااء فتضاعف الرعب وزاد الفزع فوضع يده علي عينيه وحول وجهه الى جهة أخرى . وبالشدة الدهشة حينما راه هو بعينه في الناحية الاخرى فوضع يده علي عينيه مرة أخرى وأشاح بوجهه الى جهة ثالثة فالفاه مرة أخرى صافاً رجليه في القضااء . سابحاً في أمواجه فادار وجهه الى الجهة الرابعة فوجده كذلك في مثل وضعه فلم يستطع بعد ذلك أن يقدم رجلاً او يؤخر أخرى حتى انصرف عنه الملك فعساده الى بيته ودخل وهو في شدة الهلع ونهاية الاضطراب وغاية الشحوب ، وقال زملوني .. زملوني (٢) فزملته وهو يرتعد كأن به الحمى حتى ذهب عنه الروح ثم نظر الي نظرة العائذ اللائذ وأخذ يحدثني ما وقع له . . .

فقلت :

أبشر يا بن العم واثبت فوالذي نفسي بيده اني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ووالله لا يخزيك الله أبداً . انك لتصل الرحم وتصدق

(١) نوع من الحمى

(٢) غطوني بفراشي

الحديث وتحمل الكل - وتفري الضيف . وتعين على نوائب الحق
فاطمأن روعه قليلا . وكان قد أخذ منه التعب مأخذه فراح في سنة
من النوم فغافلته وذهبت الى ابن عمى ورقة بن نوفل وأخبرته الخبر
فاطرق مليا ثم قال : -

(قدوس .. قدوس . والذي نفس ورقة بيده . لئن كنت صدقتني
يا خديجة لقد جاء الناموس الاكبر الذي كان يأتي موسى وانه لنبى هدم
الامة فقولى له فأيثبت) .

ثم عدت فرحة بهذه البشرى الجليلة التي اكدت ما وقر في نفسي وما
قلته له احساسا منى وايمانا . فالفيته ثامنا ما يزال وكلما أمعن في النوم
امعنت في الطمانينة عليه ولسكنى ما لبثت بعد ذلك أن رأته قد ثقل
تنفسه واهتز جسده وتقصد عرقه وتبلل به جبينه . فعادت الى العاطفة
الالمية . والاشفاق الحزين من أجله ولكن الحال لم يطل به فاستيقظ
وأخبرني أن الملك قد جاء مرة أخرى وأمره أن يقول « يا أيها المدثر .
قم فانذر . وربك فكبر وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر .
ولربك فاصبر »

ثم أشرت عليه أن يستريح كما كان عسى أن تعود الراحة من جديد فقال :
انقضي يا خديجة عهد النوم والراحة فقد أمرني جبريل أن أنذر وأن
أدعوا الناس الى الله والى عبادته فقلت له :
أشهد انك رسول الله صدقا وانه واحد لا شريك له حقا

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما يطوف بالكعبة . فلقيه
ورقة بن نوفل فسأل رسول الله عما رأى محاورته خديجة بنت عمه فقص

عليه رسول الله قصته فقال له ورقة (والذي نفسى بيده انك لنبي هذه
الامة . ولقد جاءك الناموس الاكبر الذى جاء موسى ولتكذبين ولتؤذين
ولتخرجين ولتقاتلين ولئن أدركتك لآنصرنك نصرا مؤزرا) ثم مال
علي رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبلها اجلالا

- ٢ -

« والضحى والليل إذا سجي »

« ما ودعك ربك وما قلى »

قرآن كريم

وكان المترددون بين مكة وشعابها يشهدون رسول الله محمدا غاديا إلى
غار حراء رائحا إلى مكة متنقلا بين قمم الجبال في خطوات وئيدة مطرقا
إلى الارض كأننا يبحث عن ضالة مفقودة . أو مطالعا وجه الأفق كأنه
موكل برصد السحب وتعداد النجوم أو متلفعا عن عيوش شمال في لهفة الشواق.
وشغف المرتقب وقد أزوى الحزن بنضرتة وخط سطورده فوق جبهته .
وغار عمق الألم بعينيه . وأذبل منه مقلتيه . وأضمر التفكير عوده . وأرهف
طول الاسي احساسه . . ولم يكن ذلك الا لانتقطاع جبريل الأمين عنه
بعد أن اتصل قلبه بنور الوحي الالهى وذاقت نفسه جمال العزة الروحية .
وأضحى فؤاده كوكبا دريا يوقد من معين الفيض الربانى مما أنساه كل
ما حوله . حتى لا يكاد يحس بوجود أبنائه بجواره وزوجه . لولادعابات
الاطفال وجبوههم . وتسلقهم ظهره وعشيمهم وتخفيف خديجة من أحزانه .
ومحاولة ترفيها عن أشجانه . . . يمر كل ذلك كالطبول حوله والهمس
تحت آذانه .

أربعون يوماً ورسول الله على هذا الحال يعد سويعتها ويحتسب أوقاتها ويستقل سيرها . ويستبطيء دورتها . قد جاني جنبه المضجع وفارق جسمه الخدع . وحالفه فيها الصيام . وآخا ذرها القيام . وخاصمه الاطمئنان . وعاداه الهدوء والاستقرار . ولازمه القلق والاضطراب . واستبدل منزله بالغار . وايناس أطفاله بأوحشة . وليونة الفراش بالخشونة عساه يكفر عما زعم أن قد فرط منه وبدر عنه أو عساه يعود الي ما هو أعلى شأوا من* أوجه الذي استحق عليه فيض الوحي ولقيا الامين جبريل . ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم الا في أوج التأهيل للرسالة . وشأو البعث . كما لم يبدر منه ما زعمه موجبا لفترة الوحي وانقطاعه من كراهة الله تعالى وتوديعه إياه

وفي لحظة راضية . وفترة رحيمة امتلأ الفضاء بجسم عجيب وتجاوبت الآفاق بصوت رهيب . فوقف رسول الله حيث كان مغمض الجفون سيال العرق . شاحب اللون ثم لم يلبث ان استفاق من حالته . يفيض وجهه بالبشر وتشع عينه بالسرور . وتتحدث كل بادرة منه بالغبطة والجدل ، ثم هروا الي خديجة يزف اليها البشري . وأسعد الاماني . وابتلوا عليها ما نزل عليه اطمئنانا لثقتها . وترويحاً عن احزانها . وردا على مزاعم الزاعمين لها . . قال تعالى :

« والضحى . والليل اذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى . والآخرة خير لك من الاولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى . ألم يجدك يتيماً فاوى . ووجدك ضالاً فهدى . ووجدك عائلاً فأغنى . فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدث »

كان رسول الله يتلو على زوجته خديجة هذه الآيات وهي في نشوة

من الفرح تسكاد تحملها من مكانها الى طبقات الطير . ومسبح الافلاك وتهتز لوقعها اهتزاز المترنج من وقع الدف (١) ولحن الموسيقى ، لولا رغبته في المزيد وشغفها بالتقصي . وما أتم رسول الله تلاوته حتى فزعت اليه تعانقه في فورة الطروب ومرح الدعوب . وهي تقول والله لا يخزيك الله أبدا . إنك لنبيه وحبيبه ثم هتفت بأمينها وخدامها ان أعدوا طعاما وكساء ثم تنادوا في الافنية (٢) وادعوا الفقراء والمساكين . ليأخذوا حظهم مما آفأ الله به علينا شكرا لله وتبجيلا لما من على رسول هذه الأمة به

وفي ساعات معدودة كان بيت خديجة زوج الرسول الامين كعبة القصاد وبيع اليتامى والارامل والبالسين والمعدمين يمتلئ بأمواج من البشر زاخرة ثم تنحسر عنه لتعود اليه أمواج أخرى وان كانوا لا يعرفون سر هذا الاحتفاء الكريم . ولم يمن أكثرهم بالسؤال عنه لكثرة ما تقدم لهم ربة المنزل من احسان وصدقات وما عودتهم إياه في فترات متقاربة الحلقات وحسبهم أن يفرحوا لفرح أهل المنزل وخدمه . ولما يزف الي بطونهم وأجسامهم من طعام وأكسية

كل هذا يجري حول رسول الله يسمع ضوضاءه . ويرى آثاره ويفيض بالبشر له ولأسبابه . ولكنه ما لبث أن أحس بوطأة الواجب وثقل المهمة التي تنتظره فعاد الى صمته . وراح يعد الخطة لمهمته ويضع البرامج لتنفيذ رسالته

دخل علي بن أبي طالب على مربوبه (٣) في بيت خديجة وهو يصلي

(١) الطال : (٢) جمع فناء وهو المسكان الواسع
(٣) رسول الله وذلك أن أبا طالب كان رجلاً فقيراً كثير الأولاد فترحم رسول الله على عمه العباس أن يكفل أحد أبناء أخيه فقبل وكان من حظه جعفر ومن حظ رسول الله على رضى الله عنه

بها اماما . ولم يكن قد وقعت عين الصبي على مثل هذه الحركات . فوقف دونها مشدوها مبهوتا وحالت رهبة الصلاة دون التحدث مع رسول الله أو غيره رغم صغر سنه (١) وما أن أتم رسول الله صلاته حتى وقف (على) الصغير قبالة رسول الله تدفعه غريزة التعلم وحب المعرفة ويمنعه استحياءه من السؤال ولكنه هذا الاله اب (٢) الصغير كان يسكن فيه بطل مغوار سيكون له شأن عظيم في تاريخ الاسلام . ونفس قوية لانهاب المواقف . فتقدم وتشجع وسأل رسول الله وزوجه قائلا . لمن تسجدان .

فقال رسول الله مامعناه : انما نسجد لله الذى بعثنى نبيا وأمرنى أن أدعو الناس اليه . وأن أنذر عشيرتي الاقربين وأنت منهم يا على . فأدعوك بدعاية الاسلام . وانكر عليك وعلى الجميع عبادة الاصنام ثم تلا عليه آيات من القرآن . أذاب جماها قلبه . وعقدت لسحرها لسانه . وراح يرنوا الى رسول الله بعين غير تلك العين التى كان ينظر له بها ككفيل وعائل . ولا كوالد ومرب . ولكنه كلاك سماوى يشع بالنور ويفيض بالهداية وينطق بالحكمة وفصل الخطاب . ولكنه هذه النظرة . وتلك الشرارة الاولى لم تكن كفيلة في تغيير ما فطر وشب عليه . وأقره في نفسه اجماع البيئة . وقدوة الآباء والجدود . فبات مؤرق الجفن مليئا بالوساوس والشكوك معزما مشورة أبيه أبى طالب فيما يخالج نفسه من ايمان ويمض في قلبه من نور . وما يهبط على قلبه من الراحة والريحان ولكنه عاد الى نفسه يسألها ويقول :

« لقد خلقنى الله دون أن استشير أبأ طالب فمالى أستشيريه حين أريد

(١) كان عمره اذ ذاك عشر سنوات

(٢) الجلد

عبادته «وما أن أصبح الصباح حتى استأذن على رسول الله فأذن له ومثل بين يديه وأطلقها شهادة كريمة ناطقة بتوحيد الله ورسالة محمد ، تالية لشهادة خديجة واسلامها رضي الله عنهما

- ٣ -

«وأندر عشيرتك الاقربين، واخفض جناحك»
«لمن اتبعك من المؤمنين وقل إني إنما النذير المبين»
قرآن كريم

جلسوا مستخفين في شعاب حراء مستترين بهضابه البعيدة العالية حتى لا تقع عين قريش عليهم في اجتماعهم وصلاتهم وعبادتهم وراح أبو بكر الصديق يحدثهم عن أمانة محمد وصدقه ورسالته . وأنه لا ينتغي من وراء ذلك جاهاً أو مالا وإلا فإن له من أموال خديجة الطائلة ما يغنيه عن ذلك قروناً . وله من أمانة قريش مكافئ الذروة والسمام على أن دعوته إلى التحرر المطلق من عبودية هذه الاحجار الصماء إلى عبادة خالق هذه السماء الصافية . والصحراء المترامية . والنجوم اللامعة . والشمس الساطعة . والماء والرياح . والهواء والغياض .

وأن هذه الدعوة التي لا تفرق بين السادة والعبيد أمام الله إلا بقدر العقيدة والعمل . والتي تحل الطريق بين العبد وربّه يدخل إليه بغير واسطة . ويتقرب إليه بغير زلفي . وتدعو إلى التراحم والتوادد والبر والتقوى . وتنفر من الوأد والقطيعة والترشق — لهى هناة الدنيا وسعادة الأبد .

هذا بعض ما كان يتحدث به أبو بكر وإذا تحدث أبو بكر أنصت .

الكل وأحبوا منه المزيد لانه رضى الله عنه كان (مألفا لقومه محببا سهلا ، وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر وكان رجلا تاجرا ذا خلق معرف ، وكان رجال قومه يآلقونه لغير واحد من الامر لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته) فاستطاب القوم الحديث وتغنوا أن يطول أو يقطع بما هو خير منه . . . فآلبثوا أن صاح بينهم عبد الرحمن بن عوف قائلا

هذا رسول الله قد وافانا للصلاة فاستعدوا ثم أقبل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاموا له . فهاهم عن ذلك وقال (لا تقوموا لى إذا قدمت عليكم فان هذه عادات الرهبان) ثم قاموا إلى الصلاة يؤدونها فوق الرمال الصفراء ككواكب السماء . أو صفوف الملائكة خلف الامين يعلوهم الخشوع ويحدوهم الضراعة ويشع منهم الهدى والنور . . . ثم جلس رسول الله بعد الصلاة يدارس قومه القرآن ويحدثهم عن آدابه وعلومه

ولم يكن أمر المسلمين بخاف علي قريش فكانت عيونها تلاحق أعمالهم وتتابع سيرهم وتمتصى أخبارهم خلف صخرة عالية كان يجلس أبو جهل وجماعة من قريش يستمعون ما يقول رسول الله في آلهتهم . فكان يحز ذلك في نفسه ويحنقه على محمد وأصحابه . ويحفزه إلى الاعتداء لولا شبح أبو طالب وخلفه بنو عبد مناف

ثم قام سعد بن أبي وقاص مع بعض أصحابه لبعض حاجتهم . فاستخف بهم جواسيس قريش وحملوا عليهم بعيدن عن مجلس الرسول فتشادوا وتلاحموا . فأصيب من الصحابة سعد بن أبي وقاص بشج أذنه وكان هذا أول دم أهرق في الاسلام ثم جاء الي رسول الله فضمده جراحه بيده وهو يقول في سبيل الله دمك يا سعد

وكان المار بجوار منزل نخديجة في الضحى يرى آثار حركة ونشاط بين
الخدم والعبيد هذه تنقل الى المنزل ماء . وهذا يرفع فاكهة وذلك يحمل
بقع الدماء من آثار الذبح والاجهاز ، وذلك ينقل الاحطاب وقطع
الاشجار . وقود الانضاج طعام الوليمة التى دعي اليها رسول الله أهله
وعشيرته ليستطيع اعداد الجو المناسب للمتحدث في أمر الدعوة الجديدة
وليبلى ما أمره به في قوله (وانذر عشيرتك الاقربين . واخفض جناحك
لمن اتبعك من المؤمنين . وقل اني أنا النذير المبين)

وفي فترة شاعت فيها روح المحبة والوئام . وحلقت في مفاها سحب
العزة بالعصبية . والشعور بلذة العائلية وترايط الاسرة . أخذ رسول الله
يتحدث عن رسالته ودعوته فأنصت الكل بين كابت لشعوره . وغير
مكثرت لحديثه . ومتصام عنه . ولم يشق هذا الصمت عليه الا جراءة
أبي لهب الذي ظهرت بوادر الغضب في وجهه . فتجعدت جبهته وتلاقت
أسنانه في أزيز المغيظ وحدقت عينه تقدح بالشرر . وتواثبت في رأسه
شياطين الاستخفاف بابن أمية الصغير يدعي أنه رسول رب هذه العوالم
وأنه الهادي النذير البشير . كان ربه لم يجد بين العرب من هو أسن منه
وأكثر نفوذا ومهابة . حتى ينزل وحيه عليه . ويبعثه رسولا الى هذه
الخلائق يسفه أحلامها . ويهاجم آلهتها ويقبح معتقدها ويقوض ما كان
عليه أبائوها وجدودها ولولا بدانة فيه غليظة لكان أسرع الحاضرين الى
القيام . ولكن الى أن تحرك جسمه الغليظ . وشالت أعصابه لجهل المتكدرين
أخذ يتحدث الى رسول الله في غضب من يرى ميزان شرفه يميل نحو
الهاوية . وتاج كرامته يهوي صوب السقوط . ثم صرخ في الجميع صرخة
عانية قال :

أرضيتم بهذا الهزير السقيم يدعو اليه ابن أخيك هذا !! فواللات
والعزى لولا صلة القرابة . وحنين الاخوة . لكان لي معه شأن أى شأن
ثم تحرك صوب الباب زاحفا . كما تتحرك افراس البحر تشغل حيزا
من الفضاء فسيحا وسار خلفه اخوته وأهله وتركوا رسول الله صلى الله
عليه وسلم وحده مطرقا حزينا . حتى دخلت عليه خديجة كعادتها ترفه عنه
احزانه . وترف حوله بالسعادة والهناء . وخلفها فاطمة في مثل البرق
محيياها والشمس طلعتها . تلقي بنفسها بين أحضان والدها . وتداعب بيدها
لحيته . وهو يصطنع معها الدعابة ويتكلف المزاح ثم لا يلبث بعد ذلك أن
يعود الى تفكيره . شاعرا بثقل الامانة التي أمر بها . وبشدة الكفهرار
الجو وحلو كته امامه . فتعود خديجة إلى محدثه تسلية عنه وتسرية لاقوة
منها على الاحتمال دونه ولكن لانها لاتشعر بكل ما يشمر به من اعباء
الرسالة واثقالها .

وقد كان بوده أن تستمع عشيرته حديثه حتى نهايته . لعل فيه
ما يخضد من شوكتهم ويلين من جفوتهم . ويشفي من شكيمتهم ولكن
ابا لهب قد فوت عليه ذلك السبيل من جديد عندما رأى أن يدعوهم مرة
أخرى وأن يكون معهم أشد خكمة وأكثر حزمًا فدعاهم الى طعام في غداة
يوم آخر ثم قال لهم مامعناه

أنتم أهلى وعشيرتى . وما أعلم انسانا من العرب قد جاء قومه بافضل
ما جئتمكم به قد جئتمكم بخيرى الدنيا والاخرة . وقد أمرني ربى أن
أدعوكم اليه . فايكم يؤازرنى على هذا الامر وأن يكون أخى ووصيى
وخليفتى فيكم ؟

فنظر بعضهم الى بعض فى استخفاف وسخرية فابتسم هذا وقهقهه

ذاك . وتغامز ثالث وأشار رابع بالقيام . لولا أن وقف علي بن أبي طالب الصغير فنوا إليه ينظرون ماذا يفعل أو بماذا يتكلم هذا الحدث فالفوه يقول في حماسة واحدة أنا يا رسول الله عونك . أنا حرب على من حاربت وظل على من واليت وأحببت

فقال بعضهم من شدة الضحك وراحوا يرشقون أبا طالب بالاحاظ ويتغامزون عليه بالشفاه وينظرون إليه نظرة من فقد نفوذه علي صغار أولاده وقلت من يده حبل قيادهم عليه . وخسر بين الجميع أجل صفقة تتعلق بشرف من بيدهم رفادة الحرم وسدانة الكعبة . وسقاية الحاج . وهي معقد الفخر . وذؤابة الكرامة والعزة والشرف بين العرب فطأطأ أبو طالب رأسه استحياء وخجلا . ثم همرا بالانصراف تتعالى ضحكاتهم وتتجاوب أصوات مزاحهم وهزئهم .

- ٤ -

« والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني »
« والقمر في يساري . ما تركت هذا »
« الامر حتى يظهره الله او اهلك دونه »

حديث شريف

كشفت الشمس عن وجهها نقاب الغلس على صوت رسول الله واقفا فوق الصفا ماذا عنقه الكريم في الفضاء مشيرا بيده إشارة الطلب والاستدعاء . هاتفا من أعماق قلبه (١)
يامعشر قریش . .

(١) وذلك بعد أن أمره الله بالجهار بالدعوة في قوله : (فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين)

فرددت الاجراء صوته . وصافح الاذان لهتافه . وتداعت قریش
شیوخا وکھولا وشبانا کما تتداعی السهام الى الهدف وتتوالی أسراب
النحل الى الخلیة عند الغروب وتجذب قطعة المغناطیس الکبيرة ذرات
الحديد . ثم ناشدھم الحق والرحم وقال :
أرايتم لو أخبرتکم أن خيلا بالوادی تريد أن تغیر علیکم
أکنتم مصدق ؟

أصوات - نعم .. أنت عندنا غير متهم فما جربنا عليك كذبا

رسول الله .. انی نذیر لکم بنیدی عذاب شديد . يا بني عبد
المطلب .. يا بني عبد مناف .. يا بني زهرة .. يا بني تمام يا بني مخزوم .. يا بني
أسد . ان الله أمرنی أن أُنذر عشیرتی الاقربین . وانی لأملک لکم من
الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا الا أن تقولوا . لا اله الا الله
فاحمر وجه أبی لهب وجحظت عيناه ترمي بما يشبه اللهب . وتداخلت
طیات جسمه بعضها في بعض وراح يستمعین بأعصابه علی حمل بدانته حتی
استطاع أن یقف ثم توجه الى رسول الله فی غضب وقال :

تبالك ألهذا جمعتنا ؟ (١)

فرنی محمد الى عمه ارناءة الحزین یصاب من مأمنه ويراش من حیث
ینتظر الرجاء ثم أخذ المجتمعون یرددون النظر بین محمد فی موقفه الا سیف
یتلقى الصدمة فی بأس الکمی . وقوة الصندید . و بین عمه الذی لوی
وجهه وعکص شفته وبلل جبهته بماء الحنق والغیظ . وأمطر رسول الله
وابلا من نظرات الحقد والاشتماز . ولم یجد الناس ما یقولونه بعد أن

(١) وهذه المناسبة نزلت السورة الکريمة فی ذم أبي لهب (ثبت یدأبى لهب
وتب) الى آخر السورة

وقف أبولهب من ابن أخيه هذا الموقف السلبي العنيد. سوى أن تضاحكوا وتمازحوا . وهم منصرفون . ثم لا يفتأون ينظرون خلفهم الى رسول الله ليقرأوا على وجه آثار الاعراض عنه . والهزء بدعوته . ورسول الله في مكانه مطأطئ الرأس غارق التفكير . يناجي قلبه ربه بصوت لا يسمعه إلا المطهرون . وتهتف روحه وتنادي (اللهم اهدي قومي فانهم لا يعلمون)

وكان السائر صوب دار الندوى يرى أشراف قريش وقادتها يسرون نحوها في صمت . تتألق على ثيابهم البيض أشعة القمر . كأنهم ثماثيل من الثلج الناصع قد دبت فيها روح الحياة . أو أشباح الليل الهائمة تزيد في صمتها رهبة الكون وتؤكد من تزمتمها دقة الموقف وقد دعوا لبعثه ومعالجته

ونحت ذبالة (١) حزينة متهاففة جلسوا جميعا يتحدثون في خفوت كأنهم أحسوا بما يتهددهم من خطر الدعوة الجديدة وان كان بعضهم لا يزال يعتقد أنها محاولة فاشلة كتلك التي يحاولها رهبان المصارى وأخبار اليهود كل عام في سوق عكاظ

ثم قطع هذا الضجيج عليهم صوت أجش كأنه هزيم الرعد وقال : أرى أن الخطب بدأ يستفحل . وأن دعوة محمد تشق طريقها الى أعماق الأسر . وان خروجه ومن معه من حجور الاستخفاء والتستر الى الوقوف حيث وقف بالأمس يدعو الى دعوته في شجاعة وجرأة . كأن ليس بمسكة أحد . وكأن سدنة هذا البيت قد فارقوا الحياة

شيبة بن ربيعة — ليس هذا خطبه . وإنما خطب هؤلاء من بني

(١) سراج

عبد مناف وأمية يتشادون ويتقاتلون حول الزعامة في قريش من أجل رفادة البيت وسقاية الحاج فقد فقدت قريش زعامتها منذ مات هاشم وتلاه عبد المطلب فبهض جناحها . وفلت شوكتها وتصرم جبلها . وتفرقت كلمتها . مما شجع مثل ورقة بن نوفل علي أن يعرض نفسه في الاسواق والمجتمعات والنوادي ويدعو الى دين النصاري . ووقوف قس ابن ساعدة بين الناس يقرض ويسجع ويدعو الي ماسماه دين ابراهيم وظهور مثل ورقة بن نوفل يبعض الناس في الاوثان وينفرهم منها ويدعو الي ما زعمه دين الحق ، وما كان لواحد من هؤلاء أن يرفع صوته وأن يحجر برأيه بين سكان هذا البيت وأهله لولا هذا الانحلال الذي دب الي نفوسنا حسدا علي الزعامة . وجريا وراء النفوذ والسلطان . حتى فقدنا النفوذ والسلطان . واستطاع محمد وأصحابه أن يقفوا مانهذا الموقف الجريء العاص بن وائل - علي رسلكم أيها الناس . ما هذا الذي تقولون؟؟

ولقد وصلتم بحمد الي السماكين . ورحمتم تنعتونه بأوصاف ملك غزا أرض الحرم وحمل أهله في ركابه . وما هؤلاء الذين حوله الا حفنة من الخلق لا في العير ولا في النفير

أبو سفيان - أرجو أن لا نخطيء الحقيقة الواقعة . وأن لا تأخذنا العزة بالظواهر . فمحمد يطيف به خلق كثير . من مضاى قريش . وذؤابة زهرة وتميم وأسد ومخزوم . فهذا أبو بكر وأولاده وهو من تعلمون نسباً وخلقاً ومالفا وخبرة وغنى . وهذا عثمان بن عفان وهو من تعلمون نبالة واستحياء وعراقة ودمائة وثراء . وهؤلاء غيرهم . وهم جميعا في مكان الذروة والسمام . . مثل الزبير بن العوام . وعبد الرحمن بن عوف

وسعد بن أبي وقاص . وطلحة بن عبد مناف وأبو عبيدة بن الجراح . وأبو سامة
بن عبد الأسد والأرقم بن الأرقم .

العاص بن هشام - ليس هذا فقط . بل وقد أسلم أيضا عثمان وعبد الله
وقدامة أبناء مظعون . وعبيدة بن الحرث . وسعيد بن زيد وزوجته
أسماء وعمير بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود . ومسعود بن القاري
ومسعود بن ربيعة وامرأته

نبيه بن الحجاج - بل وهناك ما هو أكثر من هذا فيما علمت مثل:
خنيث بن حذافة . وعامر بن ربيعة . وعبد الله وأحمد بن جحش . وجعفر
ابن أبي طالب وامرأته أسماء بنت غنيس . ومعمر وحاطب بن الحرث
وامرأته فاطمة . والسائب بن عثمان بن مظعون والمطلب بن أذهر بن عوف
وامرأته رملة

منبه بن الحجاج - بل وقد أسلم أيضا نعيم بن عبد الله . وخالد بن
سعيد . وامرأته أمينة وهيمنة بنت خلف وحاطب بن عمر . وأبو حذيفة
ابن عتبة . وواقد بن عبد الله . وخالد وعامر وعاتق وإياس أبناء بكر .
وصهيب بن سنان . والنمر بن قاسط وفهير مولى أبي بكر

أبو سفيان - بل لقد تبعه بعض العبيد رغم ديانة ساداتهم . مثل صهيب
مولى عبد الله بن جدعان وبلال بن رباح الحبشي . وعامر بن فهيرة .
وأبو فكيهة المدعو فالح . ولبيبة جارية بنى مؤمل . وزنيرة جارية بنى
عدي . والنهدية مولاة بنى نهد وغنيس مولاة بنى زهرة وغيرهم كثير

راح المحدثون في المجلس يعددون أسماء الذين اعتنقوا دين محمد من
المسلمين والمسلمات .. والخاصرون بين فاغرفاه من وقع المصاب على مسمعه
كالأبله . وبين مكود لا يستطيع مغالبة الحزن يفرى في كبده لسماع

هذه الانباء . وبين زافر في خرب وحرارة كانه لئلال يكافح الماء فلا يستطيع
لمفاجأته بما لم يكن ينتظر . ثم صمت المجلس هنيهة قائمة . وعلته سحابة
حزينة . لم يقطعها الا الوليد بن المغيرة في صوته الاجش قائلا :
ما حفزني لدعوتكم الا مكافحة هذا الخطب قبل استشرائه . . فما
تشيرون به ؟

أبو سفيان - أن نذهب الي عمه أبي طالب الذي يمنعه ويدافع عنه
مرة أخرى حتى نعذر فيه يوم مجاهدته وندفع عن شرفنا ازاء
العاص بن هشام - ان أبا طالب رجل لين العريكة عطوف على ابن
أخيه مداور في حديثه مخادع . لم يستطع عجزا أو عظفا أن يصنع بمحمد
شيئا . فما الجدوي من العود اليه في هذا الامر

ربيعة بن شيبه - لاضيران نعاود أبا طالب مرة أخرى فاما أن يتخلى عنه
ويدفعه برمته الينا أو يحول دون عيبه في آلهتنا وتسفيه أحلامنا
ثم ذهب الوليد بن المغيرة وأبو سفيان بن حرب والعاص بن وائل الى
أبي طالب موفدين من قريش لوضع حد لدعاوة محمد لدينه بين العرب والنيل
من آلهتهم . ثم تقدم اليه الوليد وقال له :

— يا أبا طالب إنك سنا وشرفا ومزلة فينا وانا قد استنهيناك من ابن
أخيك . فلم تنهه عنا . وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه
أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تسكفه عنا أو نناله وإياك في وقت واحد حتى يهلك
أحد الفريقين . ونرجو أن يكون هذا آخر ما نتذكر به

ثم انصرفوا وتركوا أبا طالب في مكانه شارد الذهن محمدا يبصره الي
الارض يقلب هذه المعاني في رأسه . ويزن هذا التهديد بيزان حسه .
ويذكر مكانته العظيمة تميل بها محبته لابن أخيه . ونقوذه يتوارى رويدا

رويدا تحت عينيه . فيثور علي عاطفته وينعي عليها حبه وحنانه ويعزم التخلي
عن محمد ما دام لا يستمع لنصحه . ولا يرضخ لآرائه . ثم يعود بذاك كرتة
الى محمد . فيتمثله أمامه صبيا يدرج في حجره عصفورا دعوبا بريئا . ثم
يافعا صالحا نبيلًا . ثم شابا فتيا عيوبا أمينًا . ثم زوجا كريما محسنا . اضطلع
بتربية ولده علي ، وساعد في تربية ولده جعفر . ثم ما ذنبه بعد كل هذا
الا أنه يدعو الناس الي كلام حق ويتمادي فيه ويصبر عليه . زاعما بذلك
سعادتهم .. ولكن اذا كان هؤلاء لا ينظرون الى هذه السعادة بعين
الحبة والرضا فما ضره لو تركهم وشأنهم . وخلى بينهم وبين ما يعتقدون دون
أن ينال من آلهتهم ويسب أحلامهم

ولكنه يأبى إلا أن يفعل ذلك . وهم يأبون الا أن يدعهم وما يعتقدون
أو أن أتخلي عنه لهم . ليأخذوه بما يصنع .. ولكن أنى لقلبي أن يسمح
بذلك . ومتى وكيف أروض عواطفى على هذه النكسة وتلك السبة الابدية ؟ ..!
الا ان قرشا تضع مكاتى في كفة المقادير . وتساونى بها على ابن أخي
فليت شعري ماذا أصنع ؟ . ثم استدعى ابو طالب رسول الله ثم قال له :
- يا ابن أخي ان قومك قد جاءوني وراودوني على تسلمك لهم أو

تركهم وآلهتهم فابق على نفسك ولا تحملى من الامر ما لا أطيق
كلمات لم تتجاوز أسطرا ونكبتها حلقت في الفضاء سحابة وداء أمام
رسول الله . ونزلت عليه نزول الخطب المدلهم .. وظن أن عمه قد خذله
وتخلى عنه . فجمع رسول الله كل شجاعته وكل ايمانه وصاح في وجه عمه وقال :
والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك
هذا الامر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه

ثم القى بنفسه على وسادة عمه مبهورا متعبا لما ثار في نفسه من

الذكريات والمواعج وما تتفاعل فيها من قوة الأيمان تغالب دخيلة الضعف
وطيوف الهرجة في نفس عمه.. ثم اعتمد رأسه الشريف وبكى ثم قام منصرفا
وكأنه وهو ينصرف كسير الفؤاد حزين النفس ينتزع قلب عمه من
بين جوانحه . ويحمله معه . فناداه من فوره . وأقبل يطوف حوله بعين
الابوة الحانية. ويمسح على ظهره بيد العطف والمحبة العميقة ثم قال له :
افعل يا ابن أخي ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبدا ثم أنشد يقول:
والله لن يوصلوا اليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا
فامض لامرك قدز عمته ناصحي فلقد صدقت وكنت قبل أمينا
وعرضت ديننا قد عرفت بانه من خير أديان البرية ديننا
لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحا بذاك يقينا

- ٥ -

« فلنراود أبا طالب للمرة الثالثة ولنذشبع أبوته »
« وحنانه بعارة بن الوليد أنه دفن في قريش »
« لعله ينسى به محمد بن أخيه فيسلمه لنا!! »
عتبة بن شبة

ووقف أبو سفيان بينهم محتدا مغیظا مرهف الاعصاب وقال :
- ألم أقل لكم ان أبا طالب لن يتخلى عن ابن أخيه ولن يحول بينه
وبين ما يلطخ به شرفنا ويسم به آلهتنا ??
لقد أرخى له العنان من جديد . وأطلقه في أعراضنا وكرامتنا
ومعتقداتنا . ثم جمع بنى هاشم لديه وحرك فيهم روح العصبية ودعاهم الي
مؤازرة محمد وحمايته من قريش . وأثار فيهم حفيظتهم الدفينة على بنى أمية .

فان انتصر محمد كان لهم من مجده نصيب. وان خذل، فسوف لا يغرمون شيئاً.
بينما يكونون قد لبوا نداء القرابة والعصب والرحم. ونيس لنا الآن الا أن
نثيرها حرباً على محمد ومن أخذ بدعوته. وآمن برسالته. والا فلنلبس
البراقع واللفاع ولنحمل عار المستقبل وذل الابد.

عتبة بن شيبة - لعلنا جميعاً اذا ما مست أيدينا مكان العطف الابوي
وذكرنا منزلة الابناء من الآباء. أدركنا الحد الذي ينبغي أن نعذر فيه
أبا طالب في ابن أخيه فهو كافله عن يثم. ومريه عن فاقة ومواسيه حيث
فارقه المواسي. وحرّم عطف الامومة. فهل لرجل له كل هذا الشأن
في حياة محمد. ولمحمد كل هذه الذكريات الجميلة في نفس عمه. ان يسلمه
ضحية رغبة من قريش؟؟

ابو سفيان - ولكن على المسيء أن يقدم ثن اساءته. وعلى المخطيء
أن يدفع عن خطيئته وأية اساءة يصك محمد بها وجهها أكثر من أن
يسفه أحلامنا. ويسب آلهتنا وينال من شرفنا وكرامتنا. فليهن المال
ولترخص الابناء ولتذهب الارواح والدماء دون أن يسمع هذا الذي
يقول:

عتبة بن شيبة - لو أن الشأن لأبي طالب وحده. تخفت المصيبة
وهان الرزء. ولكن وراءه بنى هاشم. وهم من تعلمون بطشاً وقوة
وعدداً ومنزلة. فلنراود أنا طالب للمرة الثالثة. ولنشجع أبوته وحنانه في
عمارة بن الوليد. أنهد قتي في قريش وأجمله وأكيسه. تقدمه له ليتخذ
منه ولداً له وحببياً لعله ينسى به محمد فيسامه لنا فان قبل الصفقة فيها
ونعمت. وإلا كانت الحملة الشعواء على محمد ومن يمنعه منا ويعصم دمه دوننا
أصوات - مرحى .. مرحى .. مرحى

ولكن الموقف الآن يتطلب رضا عمارة بن الوليد نفسه
عمارة - وهل لي دونكم رأى . أم هل يغلو شبابي في سبيل اللات
والعزي ومن أجل سعادة قريش اذا نادى التضحية وأهاب بي القداء .

أصوات - مرحى .. مرحى .. مرحى

ثم ذهب المطعم بن عدى ومعه عمارة بن الوليد الى أبى طالب
مندوبين عن قريش ثم عرضا عليه أمرهم . فغضب أبو طالب . حتى أطل
الغضب من عينيه وقال :

- والله لبئس ما تسامعوني .. أعطوني ابنكم أغذوه لكم . وأعطيكم
ابنى فتقتلونه !! هذا والله لا يكون أبدا

المطعم بن عدى - والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على
التخلص مما تكرهه . فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا !

أبو طالب - والله ما أنصفوني . ولكنك قد جمعت خذلاني
ومظاهرة القوم على فاصنع ما بدا لك . ثم أنشد معترزا برأيه وقومه ومادحا
رسول الله فقال :

إذا اجتمعت يوما قريش لمفخر	فعبد مناف سرها وصميمها
فإن حصلت أشراف عبد منافها	ففى هاشم أشرافها وقديمها
وإن نخرت يوما فإن محمدا	هو المصطفى من سرها وكريمها
نداءت قريش غثها وغمينها	علينا فلم تظفر وطاشت حلومها
وكننا قديما لا نقر ظلامه	إذا ما تنوا صغرا لخدود نعيمها
ونحسي حماها كل يوم كريمة	ونضرب عن أحجارها من يرومها
بنا اتعش العود الدواء وانما	بأكناف تندى وتنمى أرومها
دخل عليهم المطعم بن عدى وخلفه عمارة بن الوليد . شارد الدهن	

وإنبال . واجم الوجه . ثم جلس دون أن يقرىء المجتمعين السلام . فأدركوا سبب صمته وسر وجومه . فشار كوه شعوره . وشاطروه وجومه . وراحوا يتخيلون ما عساه ينتظرهم على أبواب المستقبل . ويرقبهم من الحوادث الجسام . حين تنتطح العزبان . ويلتقى الفريقان . في حرب شعواء تأكل الأخضر واليابس . وبعد أن نفذت وسائل السلم والمصانعة . ووصلت لحال الى درجة من الخطورة لا يحسن السكوت عليها

ثم شق هذا السكون على الحاضرين زفرة كأنها زجاجة الاسد . وتوجع كأنه خريز الشلال فأفاق القوم بن غشيتهم وقطعت عليهم حبل أحزانهم فنظروا الى هذا المتوجع فألقوه الوليد بن المغيرة . ثم هز لحيته مرات وقال :

لم يبق بعد الا الحرب ...

فقطاً الكل رؤوسهم في حزن عميق كأن وقع الحقيقة أثنى رؤوسهم فعاد المسكان الى صمته من جديد . وعاد بن المغيرة في صوته الراءع يقول :

نعم لم يبق مناص من التكميل بهؤلاء الصابئين عن دين قريش . اللائذين بحمى بنى هاشم . المخدوعين بهذا التاجر الكذاب ... شدوا عليهم في كل مكان وعذبوهم حيث وجدتهم . وارصدوا كل مرصد . حتى يموتوا أو يأبقوا (١) الى بلد آخر ويتواروا عن مغاني (٢) مكة وأفنديتها واغروا عليهم الدهماء وانشدوا فيهم الهجاء (٣)

(١) بهاجروا

(٢) منازلها

(٣) كان من شعراء قريش الذين هجوا رسول الله اذ كان : ابوسفيان ابن الحرث وعمرو بن العاص . وعبد الله بن الزبيري

لقد بذلنا لهم النصيح وراودناهم على الخير ومهدنا لهم سبل الرجوع
عن طريق الغي والضلال . فلم يجد كل ذلك . .

ثم لا تنسوا بعد ذلك أن موسم الحج قد وافانا .
وأن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم فاجمعوا
رأيا واحدا . ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ويرد قولكم بعضه بعضا
الاسود بن عبد المطلب - نقول كاهن

الوليد - والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان . فما هو بزمزمة
الكاهن ولا سجعته .

العاص بن هشام - بل هو مجنون
الوليد - ولا هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه
ولا تخالجه ولا وسوسته .

نبه بن الحجاج - لعله شاعر
الوليد - وما هو بشاعر . فقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه
ومبسوطه .

العاص بن وائل - اعتقد انه ساحر
الوليد - وليس بساحر لقد رأينا السحرة والسحر . فما هو بنفتهم
ولا عقدهم .

أبو سفيان - فما تقول اذن يا أبا عبد شمس .
الوليد - ولقد حرت في أمره . والله ان في قوله لحلاوة . وان عليه
طلاوة . وأن أصله لعزق . وان فرعه لجناة ... ثم أطرق وأطرق معه القوم .
وأخذ يدخل أصابعه بين شعر لحيته ثم يعود فيرسلها من جديد ويمسح
عليها ثم يعبس بجهته كأنه رأى ما يكره ثم يرفع حاجبه . كأنه يرفض شيئا .

ثم يعود فيبسطها من جديد ثم يلوي وجهه ذات اليمين وذات الشمال ثم استأنف حديثه وقال :

.. وما أنتم بقائلين من هذا شيئا الا عرف أنه باطل . وأن أقرب القول فيه أن تقولوا ساحر جاء بفرق بين المرء وزوجه . والولد ووالده والاخ وأخيه . وبين المرء وعشيرته .. فيخشى الناس لقاءه ويتفرقون عنه (١)

* * *

الناس تهرع من كل ناحية وتتنادى من كل صوب . وتفرع نحو جلبة . وضوضاء تحت سحابة قاتمة من الغبار . لم يكن يظهر خلالها الا رفع الايدي ومهبوطها بالتشاد والتلاحى . والناس حول المتشادين في حلقة مستديرة . كأنهم عباد النار حول سحائب الدخان ينظرون اليها في اعجاب . ويرمقونها في لهفة وتشبب . ثم انقسمت هذه الكتلة المتلاحمة الى شطرين . وقف على رأس كل منها كهل مستدير اللحية دامي الوجه ممزق الثياب يلوح على الاول أنه من أهل المدينة والثانى انه من أهل مكة . ثم راح المديني ينظر هنا وهناك باحثا عن بعيره فى خطفة البرق . حتى اذا استولى على خطامه راح يحدث المتسائلين عن سر هذا الشجار وقد علا فيه الزبد قائلا .

انه هذا اللعكم قد استقبلنى دون الشعاب . وأخذ يتسكع خلفى في فضول ويلقى على تحذيرا لم أفهمه . ثم علمت بعد ذلك أنه يحذرنى مغبة

(١) وهذه المناسبة نزلت الآية الكريمة « ذرني ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا انه كان لآياتنا عنيدا (خصما) سارقه صغودا . انه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم عبس وبسر (كره) ثم أدبر واستكبر . فقال ان هذا الا سحر مؤثر . ان هذا الا قول البشر ساحيه سقر » الخ السورة .

رجل ظهر بين أهل هذا الحرم . وزعم أنه يبنض الناس في الحرم . ويقبح لهم الميسر . ويطلق لسانه في الكهانة والكهان . ويقبح من عوائد الواد تترك لنا في أعقابها العار والشنار وأنه يدعى أن لهذا الكون ربا غير الآلات والعزى وهبل ، فأخبرته أن رجلا هذا شأنه . لا يصح أن يوصف بالسحر . وأن هذا الذي يدعو اليه لاعلاقة له بالسحر ولا بالكهانة . فإن كان هذا من ميراث الماضي وتركاته السوداء فليس عيبا أن يتخلى الناس عنه بعد .. وإن جريمة أن يحارب رجل يدعو الي ذلك .. والافقل لى . ماهذه الحرم نشرها فنجترح السيئات وما ذنب فتاة صغيرة بريئة فى أن توارى التراب حية . وما هذا الحجر لطيف به . لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ضرا أو نفعا .

قال المدني هذا تحت سمع المئات من المجتمعين . وأمام خصمه القرشي الذي أخذ يمسح عرقه ويخفف دمه ويجمع على جسمه مزق ثيابه . بعد أن هدأت ثأثرته . وبردت حميته . وأضحى بعد أن سمع خصمه كأنه فى أشهر الشتاء وقد أصابته السماء بوابل من الماء .

نعم قال المدني هذا وقد أخذ أكثر الناس ينظر بعضهم الى بعض بعين الرضا لهذا الذى يسمعون . ثم يتساءلون من هذا الذى يقول هذا الكلام . فيقال لهم محمد بن عبد الله ابن عبد المطاب سيد السدنة لهذا البيت وأمير رقادته بينما أخذ نفر آخر يلفو فى هذا البيان ويجادل فيه . ويحمل على محمد وأصحابه مما كاد يؤدى الى مشادة عنيفة لولا أنهم كانوا على مقربة من الحرم ، ثم تفرق الناس مثنى وجماعات يتناقشون ويتشادون حول صلاحية هذه الدعوى وعدم صلاحيتها . مما أحال مكة الى دار للبحث أو صيرها عكاظ أخرى

أخذ أبو سفيان يغدو في حجرته ويروح وقد اعتقل يداً بأخرى.
 خلف ظهره تحت سراج بحاكي أنفاسه المحترقة وأمله المترنح الذابل . ثم
 يطل من شرفته فلا يجد أحداً ثم يرفع بصره الى السماء ولعل ذلك لمعرفة
 الوقت ثم يعود الى فناء حجرته يذرعها غدواً ورواحاً . ثم سمع قرعاً على بابه
 فوثب اليه ليفتحه ظناً منه أن صحابته قد جاءوا ولكنه ما لبث أن رأى
 أمامه سائلاً . فطرده في شدة . ونهره في عنف . وأغلق دونه الباب
 ثم دخلت عليه زوجته هند . وقد رابها من أمر زوجها هذا القلق
 يتمثل في غدوه ورواحه . وهذا الطرد للسائل المسكين وهو ذلك المساح
 الكريم . لا يطرده سائلاً ولا محروماً فسأله ما به فقال
 لاشيء

هند - بن أشياء . .

أبو سفيان - انى مع القوم على موعد وقد غادر الزمن موقعه . ولم
 يفد منهم أحد وأغلب الظن أن تأخيرهم لخطب داهم

هند - ولكن على غير عادة تجتمعون هنا
 فزفر أبو سفيان زفرة كادت تتمزق لها أضلاعه وقال :
 وهذا هو سر ما نحن فيه من بلاء
 هند - بلاء ؟؟ ماذا تقول ؟؟

أبو سفيان - لقد دخلت دعوة محمد الى كل مكان حتى فرقت بين
 المرء وزوجه والعبد وسيده

وان انباء قريش في دار الندوي توافيه بغير تحريف ولا نقص حتى
 رابنا أمر انفسنا وأصبحنا نرتاب من أبنائنا وأهلينا مما جعل محمد يهزأ بنا في
 هذا ويقول .. ان الوحي ينزل عليه بهذه الاخبار من السماء . كان السماء لم

تتجد في مكة مهبطا صالحا للوحى الا ابن ابي كيشه (١)
ولهذا رأينا أن نجتمع هنا . محافظة على ما يدور بيننا
هند — والى متى تنتظر صحابتك : وقد قارب انتصاف الليل

أبو سفيان — وهذا ما يؤرقنى ويزعج بالى
ثم سمع قرعا على الباب ، فدخلت هند الى خدرها وراح أبو سفيان
يستقبل صحابته فلم يجد منهم الا نوفل بن خويلد . وأبو سفيان بن
الحريث . فاستقبلاه في صمت ووجوم لا تدرى امن رهبة الليل توحى
بالصمت وتبعث بالوحشة . أم استحياء من شدة التأخير عن الموعد
المضروب . أم كدما مما يحملون من أبناء دعوة محمد .

فأحس أبو سفيان بسوء ما يحملانه فجلس اليهم وامسى السكل في
صمت كأنهم في مأتم ثم طرقت الباب عليهم العاص بن وائل متبلا فرحا .
ولكن رابه صمت صحابته الثلاثة فابتدرهم قائلا :

علام اراكم في وجوم وصمت كان لم ينته اليكم بعدما وقع لمحمد اليوم
أصوات — في شيء من التهلل — لا وأبيك . ماذا حدث .

لقد كان يسير صوب الحجر وخلفه صديقه أبو بكر . فهجم عليه
شبان من قريش وأحاطوا به احاطة السوار بالمعصم .

وما ان شاهد أبو بكر ذلك حتى امتقع وجهه واصفر لونه . وأخذ
يمسك هذا بيد مرتعشة ويكلم ذاك بشقة مرتجفة . ومحمد بينهم كأنه بين
أهله !! فاما ادر كوا منه ذلك غاظهم موقفه فقالوا له :

انت الذى تسفه أحلامنا . وتقول عن « اساف ونائلة وهبل » أنها
أحجار لا تضر ولا تنفع . فظننا أنه سينكر ذلك تخلصا من ورطته .

(١) كنية كانوا يطلقونها على النبي استهزاء

وانقاذا لنفسه وصاحبه ولكنه أطلقها صريحة جريئة وقال

نعم أنا الذى قلت وأقول ذلك دائما

فاخذ فهر ابن سعد بمجمع رداءه حتى احتبس الدم في وجهه وبلغت
روحه حلقومه وصاحبه يتوسل ويبكي ويقول :

انقتلون رجلا أن يقول ربي الله

أبو سفيان — ليس هذا مربوط الفرس فحدثني ماذا قال محمد بعد ذلك

العاص — لم يكن منه الا الاصرار على موقفه . وقد تركناه قبل ان

تتداعي بنوهاشم علينا

نوفل ابن خويلد — يخرج من صمته — لقد أخطأنا التدبير حين

قررنا استقبال الوافدين الى مكة في الشعب والمنافذ وتحذيرهم من محمد
قبل دخولهم الى مكة

فقد فتح الحديث في ذلك أذهانهم واسترعي انتباههم وهياً حلبات
النقاش في ذلك بينهم . وزاد في الدعاوة والاعلام ما وقع بين القرشيين
والوافدين الى مكة حول ذلك

فكم من حادث وقع وكم من مشادات حدثت كانت من أكبر
العوامل على تتداعي الناس وتكتبهم فيسمعون ما يتلاحي عليه الفريقان
منهم المقتنع . ومنهم الممتنع

وأؤكد اننا لو تركنا الامر يسير في طبيعته ولم نرصد للحجاج البيت
أرصادا يحذرونهم من محمد لما وصل ذكره الى هذا المستوى . ولما انتشرت
دعوته الى هذا الشاؤ الذى وصل اليه بأيدينا وعلى لسان دعائنا . وحسبنا دليلا
على عقم ما قننا به . ان تناقش اليوم عند الظهيرة سعد بن غياث مع رجل من

أشرف يثرب فتجاذبا وتشادا وكان أن أقنعه الإثربي وأعلننا اسلامهما معا
وتعاقدنا على لقاء محمد وإيمانها به ونصرته
وهذا ما أحزننى وفل من عزمي واقعدنى عن البدار اليك في الميعاد
المحدود

- ٦ -

السلام هو الينا ولا علينا

حديث شريف

جلس الكل على أكمة في ذيل الجبل يودعون الشمس . ويرقبون
مع حنان الليل ورحمته سحابة عامرة بالماء . تبل أوام الارض . وتكسوها
السندس الأخضر . وتخرج لسكان المدينة حبا . وعنبا وزيتونا ونخلا
وحدايق غلبا وفاكهة وابا . وترفع عنهم ما يعانونه من شقاء الانتظار .
وبؤس ما هم عليه من خوف الجوع والاحمال . يهددهم بالموت فى كل
حين . فقال أحدهم وقد جلس القرفصاء . وعينه لما تزل ترقب الافق :
- لقد استفاضت الانباء وتواترت على السنة الغادين من مكة فى
موسم الحج أن بينهم رجلا أ كثر بركة من « ابن الهيبان » الذى كنا
نستسقى به . فهلا ذهبنا اليه بعد أن قتلنا اليأس . وفتك بهم عامل
الانتظار ??

فهر -- لقد انتهى إلى أمر هذا الرجل وشاهدت ملحمة بين أنصاره
وأعدائه عند الشعاب بمكة فى موسم الحج وأحسست بالغلبة لدعوته
واقترنت بما يقول أصحابه عنه . غير أنه لا يزال يردد فى خلدي هذا
الذي يقوله كل واحد فى مثل موقعي . وهو أنه اذا كان هذا الرجل أمينا

بين قومه صادقا . فلما اذا نبذوه ومن معه وحاربوه . ولعلمهم أعرف به من
سواه . وأعلم بأمره من غيرهم
سعد بن سعيد -- لا تنس يا فخر . أن لكل امرئ من أهله ومعاشره
منافسين وحاقدين وان زامر الحى لا يطرب . فلعل محمدا هذا لا يقف في
طريقه الا الحقد عليه . والكره لدعوته وحسده . وظهوره بين قوم عرفوه
يدرج بينهم صبيا . ويشب يافعا . ويفرع شابا وكهلا . وعندى ان لا مانع
من الذهاب الى مكة والاستسقاء به . عسى أن يرتفع عنا لم نحن فيه من
بؤس يكاد يهلك الزرع والضرع

* * *

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم متوضأ من منزله الى الصحراء
الواقعة فى أحضان « حراء » وخلفه وفد من أهل المدينة يسرون في
رهبة وخشوع : ثم صلى عليه الصلاة وأزكى السلام ركعتين ، ثم رفع
يديه السكريتين الى السماء . وكأن أصابعه تلامس السحاب . ثم دعى الله
وطلب اليه التوفيق والهداية والرحمة لأمته والمنة بالماء .. وما كاد يقبض
يده حتى سحت السماء مدرارا . وهطلت أنهارا وجاء اليه أهل الضواحي
يشكون الغرق . فرفع يده مرة أخرى وقال اللهم حوالينا ولا علينا . فأنجاب
السحاب عنهم وصار الماء مستديرا حولهم كاللا كليل .

ثم عاد وفد المدينة اليها . فكان ذلك مما مهد لدعوة النبي فيها بعد أن
مهدت اساليب قريش لها . فيما توهموه معا كسة وايقافا لسرياتها . وهكذا
يخدم الحق أنصاره وأعداءه على الرغم من الجميع

كلمة لابن مبرا

هذا أفق من آفاق الحياة المحمدية وصورة من صورها الكثيرة مازج الحقيفة فيها الخيال وخالط فيها الفن التاريخ دون أن يعدو الفن على حقائقه أو يستر الخيال جمال الحقيقة الرائع. فما أجريت على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم ما لم يقله ولا أخضعت اتجاه التاريخ من أجل طبيعة الأسلوب وإنما حاولت بقدر المستطاع أن أخضع جميع نواحي الفن ليكون في خدمة الحقائق لتبدو السيرة المحمدية في جمالها الشفاف وفتنتها الأخاذة وأسرارها الاجتماعية والسياسية الخالدة.

وليس قصدي من هذا كله إلا أن أستخرج معين السيرة من تحت جلامد التعابير الخشنة والعنفات المأمة وكثرة الروايات الطامرة للحقائق. وأن أنظمها أسلوباً قصصياً سهلاً ليستطيع الناس أن يستوعبوا نواحي الصورة التطبيقية للشرعة الإسلامية التي جاء بها القرآن وفصلتها سيرة سيد الأنام.

وكم حاولت محاول أن يصل إلى ما أخذت نفسي به ولكنهم كانوا بين مفضل للفن على التاريخ ومستعمل بالخيال على الحقيقة وبين كاذب على الواقع متجنج على صحابة النبي، وموجز لا يفتنع بمؤلفه إلا من درس السيرة واستوعب أطرافها ومناحيها وبين مسهب أضاع الجوهر في سبيل العرض وصل بالحقيقة في تيه الأسهاب والاستطالة. وقد أكون موفقاً بين هذا كله سائراً صوب الاعتدال حين يعلم الناس أنني لم أرد به شهرة أو انتفاعاً وإنما أردت به وجه الله جل جلالته وتعالى شأنه. . . فإني كنت قد وفقت فيما قصدت فيها ونعمت. وإن كنت قد أخطأت وضللت فأرجو الله الهداية والتوفيق إنه على ما يشاء قدير

المؤلف

الفهرس بحسب الترتيب التاريخي

للجزء الاول من كتاب صور الامم

صحيفة

- ٤٢ تنبؤ كعب بن لؤي جد النبي السابع بقرب ظهوره صلى الله عليه وسلم
- ٤٤ ما تنبأت به جراشع الكاهنة المعروفة عن ظهور النبي صلى الله عليه وسلم
- ٤٧ ما تنبأ به حبر اليهود في يثرب عن ظهور النبي صلى الله عليه وسلم قبل ميلاده « وقد وردت هذه التنبآت في كتاب نسيم الرياض في شرح شفاء الفاضي عياض »
- ٥٣ بعض مناقب عبد المطلب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم
- ٦٢ قصة حفر زمزم
- ٧٣ قصة الفداء وزواج عبد الله والد النبي بآمنة
- ٨٢ رحلة والد النبي بتجارته الى المدينة ووفاته بها
- ٩٢ ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم
- ١٠٢ ما تنبأ به سيف بن ذي يزن ملك الحبشة في شأن رسول الله وبعثه وذكره ذلك لجدده عبد المطلب
- ١١٣ ما حدث في ايوان كسرى من التشقق ايذاناً بولادته صلى الله عليه وسلم
- ١٢٦ ما ذكره الراهب بحيرا لابي طالب عن مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وخطورة شأنه

- ١٣٢ رعاية النبي للنعم وحضوره سوق عكاظ ومساهمته في حرب الفجار
- ١٤١ حضوره حلف الفضول في دار عبدالله بن جدعان
- ١٤٥ رحلته بتجارة خديجة وزواجه بها
- ١٥٦ هدم الكعبة ومساهمته صلى الله عليه وسلم في بنائها واحتكام قريش اليه في وضع الحجر الاسود
- ١٦٦ ما حدث به السكاهن سواد بن قارب عن الجن في مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ثم ما ذكره ابن الهيثبان الخبر اليهودي في ذلك أيضا
- ١٧٦ خلة النبي في غار حراء ونزول الوحي عليه فيه وانقطاع الوحي عنه
- ١٨٣ اتصال الوحي بعد انقطاعه
- ١٨٧ أمر الله نبيه بانذار عشيرته الاقربين
- ١٩١ امر الله نبيه بالجهر بالدعوة
- ١٩٨ مفاوضة قريش لابي طالب في التخلي عن رسول الله على أن يمنحوه (عمارة بن الوليد) بدله
- ٢٠٨ استسقاء وفد من المدينة برسول الله صلى الله عليه وسلم

* * *

هذا وقد وقعت أثناء الطبع أخطاء مطابعية لم نر بدا من تلافيها في
 نهاية الكتاب تحريا للصواب

ص	س	خطأ	صواب
٩	١٢	راجع	راجعا
٢٩	١٥	وليدعوه	وليدع
٣٢	١١	عجيبا	عجبا
٣٢	١٢	وتلاوه	وتلاوة
٣٢	١٣	ملك واحد	ملكا واحدا
٣٥	١١	لجها	الجهاد
٣٥	٢١	ونقلبوا	وانقلبوا
٤٤	٥	والامال	والاحمال
٤٥	١	وهم	ونهم
٤٥	٧	سبقتها	سبقها
٤٦	٧	اثادها	اتاها
٤٦	٩	الموثر	الموثر
٥٦	١	المال	الحال
٦٠	٢	يستطيع	يستطع
٦٠	١٢	أبوك	أبيك
٦٩	٨	ون	وان
٧١	١٠	اطافه	أطرافه
٩٦	٢٢	٣	١
٩٧	١	الجميع	الجميع
٩٨	٩	لرضيع	الرضيع
١٠٥	٢٠	الهم	اليهم

ص	س	خطأ	صواب
١٠٦	٢	آراعا	سراعا
١٠٦	٣	لت	آلت
١٠٩	١٦	هنا	هائئة
١١٠	٦	هذه	هذه
١١٨	١٨	شاحذوا	شاحذو
١١٨	١٨	مقدموا	مقدمو
١١٩	١٤	يدعوا	يدعو
١٢٠	٩	مرذك	مزدك
١٢٠	١٠	فتوحه	فتوجه
١٢٩	١١	الرجال	الرجال
١٢٩	١٤	بقصد	يقصد
١٣٤	٨	فتشد	فتشد
١٣٦	١	لهزيلة	الهزيلة
١٣٦	٢	لماخرة	الماخرة
١٣٧	٢٢	هذه وهذا	هذا وها هو
١٣٩	٢	بنظرون	ينظرون
١٤١	١٠	النضال	الضال
١٤٢	١١	فتنقد	فتندر
١٤٦	١٦	لهذه	لهذا
١٤٨	٨	حييها	حييها
١٤٨	١٩	فيها	فيها

ص	س	خطأ	صواب
١٥٠	٢٠	لا يتكلم	لا تتكلم
١٥٢	١١	فلقه	قلقه
١٥٢	١٣	نطل	تطل
١٥٧	١٣	نبؤه	نبوءه
١٥٨	١٨	سحيل	سجیل
١٥٩	١	بنيا به	بنيا نه
١٦٠	١٥	جله	جلى
١٦٢	١٦	يا بي وهب بين	بأبي وهب بن
١٦٤	٥	وميضه	ومیضة
١٦٤	٦	والتناييد	والتنايذ
١٦٤	٧	عبد الذار	عبد الدار
١٦٤	٢٢	جانب	باب
١٦٩	١٦	بابهم	بابه
١٧٠	١٣	مقالقتي	مقاتلي
١٧١	١٩	ينظر	وينظر
١٧٢	٤	اراد	أريد
١٧٢	٢	الانوار	الانواء
١٧٤		الكعبة موسم	الكعبة في موسم
١٧٥	٦	رجاء عمر	رجاء عمه
١٧٦	١٥	نسبح	تسبح
١٨٠	١١	عينه	عيناه

ص	س	خطأ	صواب
١٨٠	١٦	حذلا	جذلا
١٨٢	٦	لقد	لقد
١٨٢	١٨	ادعوا	ادعو
١٨٢	٢١	مخاورته	مما روته
١٨٣	١٨	كالطبول	كاليطوف
١٨٤	١٥	ويتلوا	ويتلو
١٨٦	١٢	يرنوا	يرنو
١٨٧	١١	من نسبه قریش	من نسبه في قریش
١٨٨	١٩	بعيدبن	بعيدبن
١٨٩	١٢	وجه	وجهه
***	٢٢	قال	وقال
١٩٠	١٦	خكمة	حكمة
٢٠٠	٦	قریش	قریش
***	٢١	با كناف	با كنافنا
٢٠١	٦	لحال	الحال
٢١٢	١٩	ولله	والله
٢٠٣	٩	مستدبره	مستديره
***	١٨	نزلت الآيه	نزلت فيه الآيه
٢٠٦	١٥	صدبقه	صديقه

